

دورية إلكترونية - محكمة - ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

تأسست غرة جمادى الثاني ١٤٢٩ هجرية

السنة الثانية - العدد الخامس سبتمبر ٢٠٠٩م/ رمضان ١٤٣٠هـ

الترقيم الدولي المعياري للدورية ISSN: 2090 – 0449

Historical Kan Periodical



متاحة للقراءة والتحميل عبر



الراعي الرسمي



http://commons.wikimedia.org



www.archive.org





www.nashiri.net





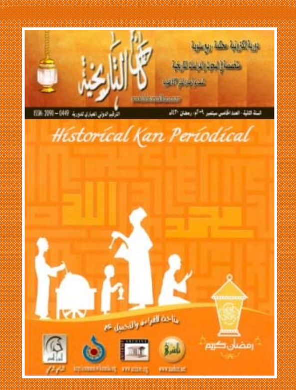
يعكس ماضيها، ويترجم حاضرها، وتستلهم من خلاله مستقبلها، لذا كان من الأهمية بمكان الاهتمام به، والحفاظ عليه، ونقله إلى الأجيال نقلاً صحيحًا، بحيث يكون نبراسًا وهاديًا لهم في حاضرهم ومستقبلهم.

الواقع أن الشعوب التي لا تاريخ لها لا وجود لها، إذ به قوام الأمم، تحيى بوجوده وتموت بانعدامه. ولهذا كانت فكرة تأسيس دورية علمية إلكترونية تاريخية عربية أكاديمية موجهة لأساتذة وطلبة الجامعات العرب و الباحثين و أصحاب الدراسات العليا في فرع التاريخ وهواة القراءات التاريخية في كل أنحاء العالم.

بهاء الدين ماجد
المشرف العام على دورية كان التاريخية
مدير إدارة الخرائط بدار الكتب المصرية



العدد الخامس



دورية كان التاريخية

- تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء هذه الدورية بالموضوعات التاريخية.
- ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والطلاب ، والباحثين ، والكتاب ، والمتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

موضوعات الدورية

- الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب وأصحاب الدراسات العليا والباحثين في الدراسات التاريخية والمهتمين بالقراءات التاريخية.
- الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

موقع الدورية على شبكة الإنترنت

www.historicalkan.co.nr

ISSN: 2090 – 0449 Online



دورية كان التاريخية
متاحة للقراءة والتحميل عبر
دار ناشري للنشر الإلكتروني
www.nashiri.net



الراعي الرسمي
سلسلة المؤرخ الصغير
سلسلة كتب علمية تاريخية ، تهدف إلى توفير المعلومة العلمية التاريخية



قَوَاعِدُ النَّشْرَ

ترحب الدورية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة ذات الصلة بالدراسات التاريخية، مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقيدة الإسلامية، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح، مع الالتزام بالضوابط التالية:

نشر البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية التي سبق نشرها أو التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في دورية أو مطبوعة أخرى.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع.
- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر. وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها، أما إذا كانت تعديلات طفيفة فتقوم الدورية بإجرائها.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر أو القديمة.
- أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- أن يعرض الكاتب ملخصا وافيا لمحتويات الكتاب مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور.
- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطروحات الجامعية

- يُراعى في الأطروحات (الرسائل) الجامعية موضوع العرض أن تكون حديثة وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد الموضوعات التاريخية.
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث.
- ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته.
- خاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- تنشر الدورية التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات ذات العلاقة بالدراسات التاريخية التي تعقد في دول الوطن العربي، ويشترط أن يغطي التقرير فعاليات الندوة أو المؤتمر مركزا على الأبحاث العلمية وأوراق العمل المقدمة ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.

هيئة التحرير

- تعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي.
- الحقوق المتعلقة بالأعمال العلمية المنشورة تعود إلى الدورية، ويحق لأصحاب المقالات والأبحاث والعروض والتقارير إعادة نشر أعمالهم في أي دورية مطبوعة أو إلكترونية أخرى.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال بصيغة برنامج "Word".
- يرفق مع العمل نبذة عن الكاتب تتضمن: الاسم، الدرجة العلمية، التخصص الدقيق، البريد الإلكتروني، الموقع الشخصي، المدونة الشخصية، صورة شخصية للنشر مع المقال"إن أمكن".
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر على البريد الإلكتروني لرئيس التحرير mr.ashraf.salih@gmail.com

Historical Kan Periodical

A specialized journal devoted to historical studies and research. Issued quarterly by: Junior Historian Series.

Kan exists to bring together people of all communities who have an interest in the past. It promotes and supports the study and teaching of history at all levels: teacher, student, amateur and professional.

Our Mission is Promote, develop and support the study of history at all levels. We publish a range of material for a wide variety of readers with regard to:

- Historical studies and research.
- Books Review.
- Thesis review.
- Reports of seminars and conferences.

Editorial Board invites all those interested in preserving the history of the Arab world to the enrichment of this periodical historical topic.

They also invite people who are interesting in historical studies to publish their useful writings.

Remark

- Receiving research "Word format "
- Memoir About the author is required include : Name, Degree, specialization, e-mail, personal site, personal blog, a personal image for publication with the article "if possible".
- Correspondence, advertisements and questions should be addressed to chief editor e-mail: mr.ashraf.salih@gmail.com



المجلات التاريخية في العالم العربي

بدأت الدراسات التاريخية في الوطن العربي بدايتها الحديثة مع إنشاء الجامعة المصرية وكلية الآداب التي كان اسم التاريخ فيها من أول أقسام الكلية ، ولأن الأساتذة الأجانب كانوا في الأغلب الأعم هم الذين ينظمون الدراسة في هذه الكلية ، وفي قسم التاريخ على وجه الخصوص ، فإنهم نقلوا التقسيم الأوربي للدراسة التاريخية بكل مشكلاته التي تعتبر من "أمراض النشأة" ، والتي ظلت ملازمة للدراسات التاريخية في مصر حتى الآن.

مع "تعريب" الدراسات التاريخية ، أي محاولة قراءة التاريخ من وجهة نظر عربية ومصرية ، ظهر عدد من المؤرخين العرب الذين كان طموحهم يدفعهم إلى محاولة بناء "مدرسة تاريخية" مستقلة عن المدارس التاريخية ، وتحاول في الوقت نفسه تصحيح الأخطاء والخطايا ، التي منحت عن إتباع خطى الأوربيين والأخذ بمقاييسهم وعدم فهم انحيازاتهم الناجحة في هذا السبيل. من ناحية أخرى ، أصدرت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مجلة خاصة بها لعبت دورًا مهمًا في تحقيق أهداف الجمعية ، كما أنها أصبحت مجالاً رحبًا استوعبت الدراسات التاريخية الجديدة ، التي قام بها الباحثون العرب ، ولعبت دورًا مهمًا في تطوير البحث التاريخي طوال النصف الأول من القرن العشرين ، ومازالت تقوم بهذا الدور حتى الآن.

كان طبيعيًا أن تصدر مجلات "تاريخية" أخرى في مناطق متفرقة من العالم العربي ، لكنها - مع الأسف - كانت في معظمها نسخًا مكررة من "المجلة المصرية" التي تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، كما أن بعض أقسام التاريخ أصدرت مجلات تاريخية في مصر وغيرها من بلاد العالم العربي ، جاءت تكرارًا لهذه المجلة العريقة ، كما أن اتحاد المؤرخين العرب في بغداد ، ثم في القاهرة ، أصدر "مجلة تاريخية" مشابهة.

مما يلفت النظر في هذه "المجلات التاريخية" جميعًا أنها أصبحت تكرر نفسها من حيث الشكل والمحتوى ، فكانت مجلات تنشر بحوثًا ومقالات في "عموم" التاريخ ، وكلها تقريبًا. بما في ذلك مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، أصبحت مجالاً لنشر بحوث "الترقية" للأساتذة والأساتذة المساعدين. وكلها "غير متخصصة" في فرع أو غيره من فروع الدراسات التاريخية العديدة الآن ، وكلها تناقش قضايا الفكر التاريخي ، وإنما بقيت على الشكل الذي صدرت به أولى المجلات التاريخية.

وإذا ما استثنينا الجهد الرائع - والفردي - لوجود جمعية متخصصة في الدراسات العثمانية والدراسات الموريسكية بمثابرة مدهشة من الدكتور عبد الجليل التميمي ، وجدنا المجلات "التاريخية" العربية كلها في حاجة إلى إعادة نظر لدورها وهدفها. نحن بحاجة إلى مجلات "تاريخية" متخصصة ، في التاريخ الاقتصادي للوطن العربي مثلاً ، أو في التاريخ الثقافي أو في تاريخ المرأة العربية أو في تاريخ الحروب الصليبية أو في التاريخ الاجتماعي أو العسكري ، وما إلى ذلك.

ونحن أيضًا في حاجة إلى مجلات "تاريخية" متخصصة في الفكر التاريخي ، ومشكلات البحث التاريخي ومتابعة الدراسة التاريخية في المدارس والجامعات ، كما أننا في حاجة إلى مجلات لنشر الوعي التاريخي من خلال "التاريخ الشعبي" أي الدراسات والبحوث التي تخاطب عامة الناس والمتعلمين منهم خاصة بأسلوب سهل سلس لتعريفهم بحقائق التاريخ دونما تعقيد أو تعالي القرّاء...

إن "المجلات التاريخية" كثيرة حقًا في الوطن العربي
لكنها كثرة التكرار وليست كثرة التنوع

كلمة الدكتور قاسم عبده قاسم بعنوان "المجلات التاريخية في العالم العربي" ندوة مجلة العربي "المجلات الثقافية ودورها في الإصلاح الثقافي" ديسمبر ٢٠٠٦.

www.alarabimag.com

Historical Geographical Aspects of Spanish Civil War

1936 - 1939





جوانب من الجغرافيا التاريخية للحرب الأهلية الأسبانية

١٩٣٦ - ١٩٣٩



د.خليف مصطفى غرايبة

قسم العلوم الأساسية

كلية عجلون الجامعية- جامعة البلقاء التطبيقية

المملكة الأردنية الهاشمية

khlaifgh@yahoo.com

▪ **الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

خليف مصطفى غرايبة ، جوانب من الجغرافيا التاريخية للحرب الأهلية الأسبانية (١٩٣٦ -١٩٣٩).-دورية كان التاريخية.-العدد الخامس ؛ سبتمبر٢٠٠٩.ص٨ -١٦.

(www.historicalkan.co.nr)



الملخص

كانت اسبانيا ملكية في العقد الثاني من القرن العشرين، ثم أصبحت جمهورية في بداية الثلاثينات، وفي سنة ١٩٣٦ اندلعت الحرب الأهلية الاسبانية على أثر إقالة زامورا Zamora وانتخاب آزانا Azana بدلاً منه، ومما زاد الأمر سوءاً تدخّل الدول الأوروبية في هذه الحرب التي انقسمت إلى فريقين، فريق بزعامة الاتحاد السوفيتي (سابقاً) يؤيد الجمهوريين أو حكومة مدريد ، وفريق آخر بزعامة فراكو (المتمردون) تدعمه ايطاليا وألمانيا.

يهدف هذا البحث إلى دراسة أسباب الحرب الأهلية الاسبانية ونتائجها وكيفية احراز فرانكو الانتصار على حكومة مدريد، وذلك من خلال استيلائه على مراكش الاسبانية وعلى عواصم الأقاليم الاسبانية وأخيراً إسقاط حكومة مدريد نفسها. فقد انعكست الخلافات العقائدية بين الدول الأوروبية على وضع اسبانيا الداخلي، الأمر الذي أدى إلى انهيار الاقتصاد الاسباني وإشاعة الفرقة بين أهلها ، وبذلك انتهت الحرب بانتصار الثوّار وقيام حكومة فرانكو الذي أعاد ترتيب البيت الاسباني وإعلانه الحياد عن الدول الأوروبية (حتى التي دعمته منها)، وإقامته حكومة كاثوليكية دكتاتورية أنزلت العقاب بخصومها ومعارضيها السياسيين بهدف نزع فتيل الحرب وإعادة الاستقرار إلى اسبانيا ، وكان له ما أراد ، ونظراً لما سبق فقد اتبع الباحث المنهج التاريخي في دراسته هذه.

المقدمة

يقول ابراهام لنكولن: "إن بيتاً منقسماً على نفسه لا يستطيع البقاء"، وقد صدق هذا القول على اسبانيا ، فقد انقسمت هذه في الفترة ١٩٣٦-١٩٣٩ م إلى فريقين متخاصمين: حكومة مدريد أو الجمهوريين ، والثوار وعلى رأسهم فرانكو ، ولم يتردّد الفريقان في طلب العون والمساعدة من الدول الأوروبية ، كما أن هذه الدول لم تبخل عليهم ، فأرسلت الأسلحة والمال والرجال ، مما زاد الحرب اشتعالاً ، وهكذا أصبحت اسبانيا مسرحاً لصراع مرير ، كانت نهاية نجاح فرانكو.

اتبع الباحث المنهج التاريخي Historical approach التصاعدي التتّبعي للأحداث التي جرت في اسبانيا أثناء فترة الحرب الأهلية ، ولتحقيق أهداف البحث بهذه المنهجية فقد تناول الباحث في دراسة هذه المحاور التالية:

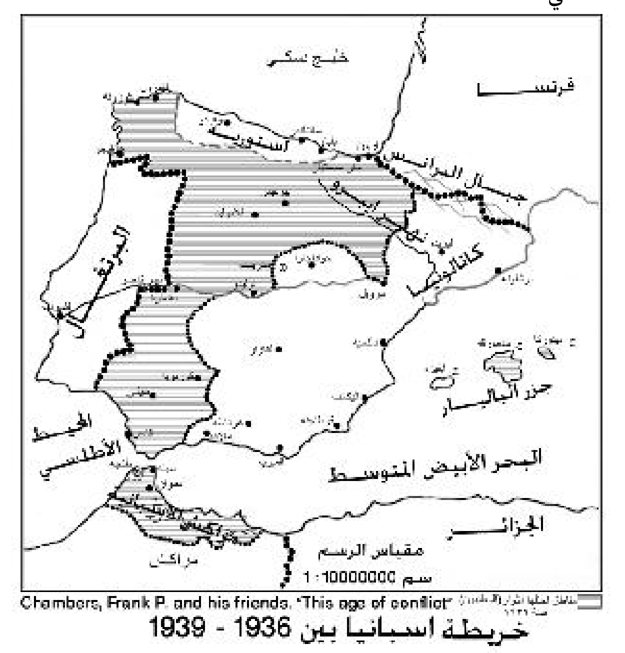
- لمحة عامة عن الجغرافيا التاريخية لاسبانيا.
- ظروف ما قبل الحرب الأهلية الاسبانية.
- أسباب الحرب الأهلية الاسبانية.
- سياسة عدم التدخّل في الحرب.
- شيء عن منظمة الفلنج.
- ثورة فرانكو.
- التدخل الأوروبي في اسبانيا.
- نتائج الحرب.

لمحة عامة عن الجغرافيا التاريخية لاسبانيا

إسبانيا ذلك القطر الذي اندلعت فيه نار الحرب الأهلية في عام ١٩٣٦م ، والتي جرّت إلى نيرانها بقيّة دول أوروبا ، كانت لعدة أجيال ، بعيدة عن الحركات السياسية القومية العنيفة ، لقد شهد هذا البلد حروبا أهلية من قبل ، أهلها كانوا عاطفيين وسريعي الاهتياج والعنف ، ولكنه عنف طالما اعتاد أن ينمو وينتشر ضمن حدودها الإقليمية فقط ، ولقد كانت هذه في بعض الأحيان السبب المباشر لقيام حرب قومية ، كتلك التي قامت بين فرنسا وبروسيا ،عندما تقاتلتا على عرش اسبانيا سنة ١٨٧٠ م ، وهي نفسها قاتلت الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٩٨ م ، غير انه لا حرب من هذه الحروب يمكن مقارنتها مع الحرب الأهلية عام ١٩٣٦م [١] ، في تلك السنة النحسة أصبحت اسبانيا ساحة القتال لكل المتخاصمين في أوروبا.

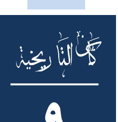
وتميل خريطة اسبانيا إلى الشكل المربع (الخريطة المرفقة) غير أن جغرافيتها الاجتماعية لم تكن متجانسة وملتحمة مثل فرنسا وايطاليا مثلاً ، كان في اسبانيا أربع لغات يتكلم بها البشر. ولقد عملت المناطق الجبلية حاجزا عجيبا وتنوعا في المناخ الذي سبب انقسامات حادة بين السكان الأسبان ، وكان الاسباني متكبرا وأنانيا يعتز بنفسه كثيرا ويعطي ولاءه لقريته فقط.

أما من الناحية الاقتصادية فان البلاد تظهر الكثير من المتضادات والمتناقضات فيها ، ففي بعض المناطق كان هناك نظام الملكيات الكبيرة من الأراضي ، وفي الأماكن الأخرى كان نظام الملكيات الصغيرة ، وفي الباسك وكتالونيا كانت هناك صناعة متقدمة ، بالمقابل كانت هناك طبقتا الفلاحين والعمال حيث الفقر والجوع ، ودليل ذلك أن مليونين من الاثنين وعشرين مليونا من السكان كانوا يقيمون في المدينتين الكبيرتين وهما مدريد وبرشلونة ، أما على مستوى القيادة السياسية فقد كان يتنازع عليها الإقطاع والنظام الكنسي [٢].



Chambers, Frank P. and his friends. "This age of conflict"

خريطة اسبانيا بين 1936 - 1939





لقد شكل الباسك والكتالونيين قوميتان منفصلتان في اسبانيا ، لكلّ تاريخه المميز ولغته واقتصاده ، وقد سكن الباسك في ثلاث مقاطعات هي فزكايا (Vizcaya) وجيوبزكو (Guipuzcoa) والالفا (Alva) ، وخلال تاريخهم حفظوا حقوقاً اقليمية (أرضية) لهم ، ومناجمهم التي قرب بلباو (Bilbao) كانت مشتغلة منذ زمن بعيد ، وأخيراً استخلص الباسك الصناعات الحديثة والطاقة الهيدروليكية من الجبال ، فتطورت منطقتهم ، لقد كانوا كاثوليك متعصبين ، وغالبا ما كانوا اشتراكيين[٣] ، ومهما يكن من أمر فان اسبانيا كانت ملكية في العقد الثاني من القرن الحالي ، وبدأت التيارات السياسية تفكك أوصالها ، فأصبحت جمهورية في بداية الثلاثينات. وفي سنة ١٩٣٦ قامت الحرب الأهلية الاسبانية والتي دمرت اسبانيا وحطمت اقتصادياتها وأشاعت الفرقة بين أهلها لمدة طويلة حتى سنة ١٩٣٩.

ظروف ما قبل الحرب الاهلية الاسبانية

تولى الفونسو الثالث عشر عرش والده في سنة ١٩٠٢ ، وكان عمره ١٦ سنة ، وكرّس حياته لعائلته وللكنيسة فقط ، وكان مولعا بحب السلطة ، فخوراً بعرشه ، وكان يغيّر ويبدّل الوزارات رغم إخلاصها له ، وأكبر دليل على هذا تعاقب ٣٣ حكومة في الفترة الواقعة بين سنة ١٩٠٢ –سنة ١٩٢٣ ، وكانت لا تمر سنة واحدة دون قيام مظاهرات أو حركات تمرد عسكري[٤].

وبينما كان الجيش الاسباني منهوك القوى في عملياته العسكرية ضد عبد الكريم الخطابي وزعماء الريف في مراكش ، أخذ الملك على عاتقه إنهاء الثورة الريفية بالقوة ، إلا أن قوات الملك منيت بكارثة عسكرية شنيعة وذلك بوقوع ٢٠٠٠٠ جندي اسباني في كمين نصبته له القوات العربية المراكشية ، وقتل منهم حوالي ١٢٠٠٠ [٥] ، ومن الطبيعي أن يكون لهذه الحادثة وقع كبير في اسبانيا بإيجاد أزمة داخلية حادة في البلاد ، وعندما قدمت اللجنة البرلمانية تقريرا مفاده الاستفسار عن المسئولين عن الكارثة ومحاكمتهم صادرت الحكومة هذا التقرير ، ومنعت نشره ، لاحتوائه على اتهامات وفضائح تمس شرف الملك ومقامه الرفيع.

وقد أحدث كل هذا بلبلة لدى البرلمانيين والصحافة والشعب ، وطالبوا الحكومة بتنفيذ ما جاء فيه حرفيّاً ، وللخروج من الأزمة قاد الحاكم العسكري لمنطقة كتالونيا ، الدون بريمو دي ريفيرا (Don primo de Rivera) ، جماعة من العسكريين الموالين للحكم وأسقط الحكومة القائمة آنذاك ، ونصب نفسه دكتاتوراً عسكرياً على اسبانيا[٦] وفرض أحكامه العرفية عليها.

وقد استولى على الوثائق التي استخدمتها لجنة التحري البرلمانية ، والتي أدانت القادة العسكريين في الكارثة الحربية التي حاقت بالجيش الاسباني في مراكش[٧] ودام حكم هذا الطاغية عامين مما أثار الرأي العام ضد الكتاتورية السكرية ، بل وضد الملكية بوجه عام ، وكانت البلاد تغلي بالسخط والحقد سنة ١٩٢٨ ، وبدأت حركة التمرّد كردّ فعل على هذا العصيان ، ففي سنة ١٩٢٩ انتشر التمرد في الجيش ، وقام طلاب الجامعات وطبقات العمال بالمظاهرات وإحداث الشغب ، مما أدى إلى زعزعة بريمو ريفيرا ، ودار في خلد زعماء الحركة أن النظام الجديد (الجمهوري) هو الحل الوحيد للقضاء على الحكم الملكي الفاسد ، ونتيجة لكل ذلك قدم بريمو ريفيرا استقالته في ٢٨ كانون ثاني سنة ١٩٣٠ وغادر البلاد ، وما كان من الملك سوى الاستسلام للمطالب المقدّمة ، وكانت تتمثل بما يلي[٨]:

(١) إعادة العمل بالدستور القديم الذي صدر سنة ١٨٧٦.
(٢) إجابة مطالب طلاب الجامعات وأساتذتها بالعفو عن المسجونين السياسيين.
(٣) إجراء انتخابات حرة وافية حتى يتهيأ للبلاد برلمان وطني يمثل الشعب حق تمثيل.

وكان موعد الانتخابات في شباط سنة ١٩٣١ ، فانتهزت الأحزاب الجمهورية الفرصة[٩] وعملت استفتاء للشعب لاختيار الحكم الملكي أو الجمهوري ، وقد لقي الجمهوريون نجاحاً باهراً في مدريد وبرشلونة ، وقد شكّل هذا صدمة عنيفة للملك ، وأدرك أن الخطر سيجرفه ، فما كان منه إلا مغادرة اسبانيا للنجاة بنفسه ، ولكنه في الوقت نفسه لم يعلن تنازله عن العرش ، على أمل انه سيستدعونه في المستقبل ، بعد أن تفشّى الفوضى ، ولكنها كانت القاضية على حكمه ، وعاش الفونسو الثالث عشر في المنفى بفرنسا حتى تشرين ثاني سنة ١٩٤١[١٠].

وفي هذا الوقت كانت اسبانيا تعاني من الانقسام وتنافس الزعماء والأحزاب على الحكم ، وفشل المجلس التشريعي المنتخب (الكورتيس Cortes) في اجتماعه في حزيران سنة ١٩٣١ في تغيير النظام الجديد ، وإقامة حكم جمهوري يتلاءم مع مطالب الشعب[١١] والذين يتمثلون بالفئات التالية:

(١) اليساريون حيث يطالبون القيام بثورة اجتماعية جذرية
(٢) الأحرار المعتدلون بقيادة الزعيم ازانا (Azana) يريدون الإصلاح وباعتقادهم أن اسبانيا بحاجة ماسة إلى الاستقرار.
(٣) الاكليركليين وهؤلاء قبلوا النظام الجمهوري في الظاهر بينما في داخلية أنفسهم لا يحبونه مطلقا.

وقد أعلن زامورا (Zamora) ، زعيم حركة الانقلاب ضد الملكية ، قيام هذه الجمهورية وأصبح رئيسا مؤقتا لها ، وقد ألف حكومة مؤقتة كذلك من أعضاء معتدلين ، ينتمون إلى الأحزاب الجمهورية ممن يدينون بالاشتراكية[١٢] ، وقد سارعت الحكومة الجديدة لوضع خطة ، تواجه متطلبات عديدة ، من بينهم:

(١) أولئك الذين استنكروا امتيازات الكنيسة وتدخلها في شؤون الدولة.
(٢) الاشتراكيون الذين يتطلعون إلى نظام اجتماعي واقتصادي جديد للدولة.
(٣) الجمهوريون الذين كانوا ينادون بوضع دستور يقوم على مبادئ الديمقراطية بحيث لا يترك مجالاً لرجال الجيش للتحكم في مصير الشعب أو يتسلطوا على السلطات المدنية.
(٤) اللامركزيين الذين ينادون بإقامة الحكم المحلي في البلاد ، والقضاء على مركزية الحكم في العاصمة ، وتجاه كل ذلك أعلنت الحكومة الجديدة ضمان الحرية الدينية والمدنية وحماية حقوق الملكية الخاصة ، ودعت جميع المنفيين بالعودة إلى اسبانيا وسرحت السجناء السياسيين وقامت باعتقال عدد من الموظفين الذين يؤيدون النظام الملكي ، ووعدت بالإصلاح خاصة في مجال الزراعة ، ووعدت بإجراء انتخابات لتكون جمعية تكوّن برلماناً (Company Constuent) تتألف على أحدث النظم الدستورية[١٣].

ووفقاً لذلك أجريت انتخابات في حزيران سنة ١٩٣١ ، وهي انتخابات جاءت بأغلبية من الجمهوريين اليساريين والاشتراكيين[١٤] وأصدرت هذه الجمعية دستورها الجديد الذي أعلن عن قيام جمهورية

العاملين من جميع الفئات، وإنشاء مجلس النواب (الكورتيس) ينتخب أعضاؤه لمدة أربع سنوات بطريقة التصويت العام. وأصبحت اسبانيا جمهورية ديمقراطية برلمانية حيث أن السلطة التنفيذية كانت في يد حكومة مسئولة أمام البرلمان، وأصبح الشعب يتمتع بالحرية الدينية [١٥] وأصبحت ثروة البلاد في خدمة الاقتصاد الوطني، وانتقلت اسبانيا من دولة إقطاعية إلى دولة تحاول تطبيق الاشتراكية.

ونال زامورا ثقة الشعب فأصبح رئيساً للجمهورية، لذا استقالت الحكومة المؤقتة وتشكّل مجلس وزراء جديد برئاسة الزعيم (Azana)، وفي سنة ١٩٣٢ حُلّ نظام الجزويت وصودرت أملاكهم، حيث قدرت بثلاثين مليون من الدولارات، وصرفت لصالح الشعب. وفي سنة ١٩٣٣ أصبحت الرئاسة الدينية (بصدور قانون) لمختلف الفئات للمواطنين الأسبان دون غيرهم. وألغيت المدارس التابعة للكنائس مباشرة. وأُمّمت أملاك الكنيسة رغم احتجاج البابا على هذه الأعمال. وصادرت الحكومة حوالي خمسين مليون فدان، من الأراضي التي استولى عليها الملك قبل قيام الثورة، ووزعت على الفلاحين وأصبح هناك ثلاث طبقات تعادي النظام الجديد وهي [١٦]:

(١) الملكيّين.

(٢) رجال الدين.

(٣) الطبقة الارستقراطية.

ولم يكن هؤلاء وحدهم أعداء النظام الجمهوري الجديد، بل كانت هناك فئة يسارية متطرفة ترى ان الثورة يجب ان لا تنتهي عند هذا الحد، بل نادت بوجوب قيام حكومة شيوعية في اسبانيا، تتبع نظام الحكم في الاتحاد السوفييتي، وكانت تجري محاولات م نقبل الملكيين والشيوعيين في السنتين ١٩٣٢ و١٩٣٣لقلب نظام الحكم. وعندما حلت انتخابات سنة ١٩٣٣ انهزمت الاحزاب اليسارية لتحلّ محلّها الاحزاب المعتدلة، التي تحاول الابتعاد عن المعسكر اليساري. [١٧] فالغت الكثير من اجراءات الحكومة السابقة، وحسنّت علاقاتها مع الفاتيكان. وتنبهت لهذا الامر الاحزاب اليسارية التي بدأت تشعر أن الحكومة أخذت تبتعد عنهم، فقرر زعاؤهم العمل على تغيير وضع البلاد. واندلعت الثورة في سنة ١٩٣٤ والتي اتسمت بالمبادئ الشيوعية وخاصة في (Austurias) ولكن الحكومة سارعت إلى القضاء عليها، وفي سنة ١٩٣٥ ضبطت رشوة أعطيت لبعض مساعدي رئيس الوزراء الراديكالي ليرو (Lerroux)، وقد أودت هذه الفضيحة بسمعة الحكومة مما أدى إلى استقالتها.

وفي هذه الأثناء ظهر جل روبلز (Gil Robles) الذي أصبح وزيراً للدفاع والذي كرس نفسه لتصدي (Azana) في محاولة الأخير جمهرة الجيش وقد حُلّ الكورتيس وذلك لإيجاد حزب مركزي جديد، ويستطيع أن يحلّ محلّ الراديكالية، كما أمر رئيس الجمهورية إجراء انتخابات من هذه الغاية [١٨].

وقد ظهر طرفان أثناء إجراء الانتخابات: الأول حزب اليمين وأهمهم روبلز (Robles) الذي ترأس الاتحاد الفدرالي الاسباني المستقل (C.E.D.A) وشاركه بعض الجماعة الأخرى، والثاني حزب اليسار ويضمّ الاشتراكيين والبرجوازيين الديمقراطيين الذين اتحدوا لأغراض انتخابية بما يُسمّى بالجبهة الشعبية (P.F) ومن أهمهم آزانا، وحينما جرت الانتخابات فازت الجبهة الشعبية بـ ٢٧٨ مقعداً، بينما حصل اليمين على ١٣٤ مقعداً [١٩]، وقد أصبح آزانا نتيجة لذلك رئيساً للوزراء ثم رئيساً للجمهورية مرة أخرى. وقد رفض الاشتراكيون الاشتراك الفعلي في إدارة الحكم. ولذلك كانت هناك بعض التحذيرات من أن هناك ثورة توشك على الحدوث، ولكن على أي أساس ستقوم؟ ومتى؟ وأين؟ فهي أسئلة لم يقدر على إجابتها أحد، إلا أن أحد اليساريين قال: "ستكون هناك ديكتاتورية عمالية تنجم عن هذه الثورة"، وقد حدث أن تمرد بعض الفلاحين في الجنوب واستولوا على مساحات من الأراضي الأميرية، واتهمت الحكومة بتقصيرها في حفظ النظام، وفي سنة ١٩٣٦ أعلن عن الحوادث التي حدثت في اسبانيا منذ الانتخابات فكانت كما يلي [٢٠]:

حرق ١٦٠ كنيسة و٢٦٩ جريمة اغتيال سياسية و١١٣ إضراب و٢٨ إضراب جزئي، ولذلك هوجمت مكاتب عشرة جرائد والتي نشرت هذا، لذلك لم يكن العنف مقصوراً على اليمين وحده، أو على اليسار وحده بل كان كلّ من الطرفين مسئول عن العنف، فاقتتل الناس في شوارع مدريد وعجزت الحكومة عن حفظ النظام، ومنع الاعتداءات على الأرواح وهدم الكنائس، وأصبحت اسبانيا في حزيران سنة ١٩٣٦ [٢١] على أبواب حرب أهلية طاحنة.

أسباب الحرب الأهلية الاسبانية

إن الثورات الذاتية في الجيش الاسباني بيّنت أن الثورة الجديدة لم تكن مفاجأة، بل هي حركة خُطّط لها بمهارة، منذ أمد بعيد [٢٢]، يمكن اعتبار إقالة زامورا من رئاسة الجمهورية في نيسان سنة ١٩٣٦ وانتخاب آزانا، هي البداية الفعليّة للخلافات الطاحنة بين مختلف الجهات، وقد كثُرت الاضطرابات وأعمال العنف التي قام بها أعضاء اليمين واليسار على حدّ سواء [٢٣]، لذلك اضطر آزانا (Azana) عندما أدرك خطر الجيش على حكومته، إلى إحالة بعض الضباط، المشتغلين بالسياسة، على التقاعد، كما أنه قام بتفريق من شكّ في إخلاصهم، ومن بين هؤلاء الضباط "فرانشكو فرانكو" (Franco)، وكان هذا يقود الفرقة الاسبانية التي نعمل في مراكش، كما نُفي معه الجنرال غودد (Ghoded) ونقل هؤلاء إلى جزر الكناري كما أنه قام بنقل الجنرال مولا (Mola) من المغرب إلى بامبلونا [٢٤].

إزاء ذلك أصبحت الجمهورية مهددة في أي وقت بالأخطار، وطبيعي أن تحدث هذه التنقلات بلبلة وتشتت أفكار المخططين للثورة وهناك أسباب أخرى دعت إلى قيام هذه الحرب، ومن أهم هذه الأسباب، هو عدم تحطيم الجمهورية لتلك الفئة التي تحكمت في مصير البلاد ومصادر ثرواتهم، وعدم تحقيقه بسرعة لأن الشعب الاسباني كان هكذا يشك ويتمنى، لكن الحكومة أخذت الأمور بهوادة وتؤده فنفذ لذلك صبر الفلاحين والطبقة العاملة.

بالإضافة إلى كلّ ذلك فان المتطرفين من الأحزاب اليساريّة وأحزاب اليمين في اسبانيا، أصبحوا يرون أنّ الحل الوحيد يكمن في تحقيق أهدافهم باستخدام القوة، ففي منتصف حزيران سنة ١٩٣٦ هاجم الحكومة زعيم من دعاة الملكيّة اسمه جوزيه كالفوستيلو ويتهمها بالجبن والضعف عن صدّ التيارات السياسيّة وفي الوقت نفسه أخذ اليساريون يعدّون العدّة لأحداث انقلاب شيوعي [٢٥]، لهذا نرى تشرشل يقول بأن أحد أسباب الحرب الأهلية، ترجع إلى "أن سياسة لينين –نظري الشيوعية ومؤسسها- هي تشجيع أي حركة يساريّة في العالم، حيث بدأت الشيوعيّة تدخل مع عناصرها الراديكاليّة، اسبانيا، حتى انفجرت الحرب الأهلية التي أدّت إلى تردّي أوضاع اسبانيا إلى درجة سيئة جداً [٢٦].



سياسة عدم التدخل في الحرب

اقترحت الحكومة الفرنسيّة ، منذ أول سنة ١٩٣٦ على الدول التي لمست منها التدخّل في هذه الحرب ، كالاتحاد السوفيتي وايطاليا وألمانيا خاصّة ، وبلغت بذلك كلّ دولة ، إلا أن القبول بذلك ظل شكلياً محضاً [٢٧] ، ولكنه بالنسبة لبريطانيا كان حقيقةً ، إذ لم تتدخل بريطانيا لإدراكها الحقائق التالية –كما وردت في كتاب خطوة بخطوة لتشرشل- [٢٨]:

(١) انقسام اسبانيا إلى فريقين متحاربين.

(٢) غمعان كلّ من الطرفين في قسوته وعدم رحمته.

(٣) أيّاً كان المنتصر فان اسبانيا ، بعد انتهاء الحرب ستبقى دولة صغيرة وضعيفة لتعيد بناء نفسها بعد ذلك ، وهذا لا يهم بريطانيا كذلك.

(٤) لا يمثل أيّاً من الطرفين المتخاصمين وجهة البنات البريطانية بأي حال من الأحوال.

(٥) بتساؤل تشرشل: هل حالة بريطانيا الدفاعية جيّدة حتى تقوم بمساعدة أناس لا يهمونها؟ يخلُص تشرشل من هذا التساؤل ، بأنه ليست بريطانيا أية مصلحة في التدخّل في الحرب الأهلية الاسبانية.

(٦) رغم تبنّي فرنسا لفكرة عدم التدخّل فإنها تُشارك الاتحاد السوفيتي بإرسال الأسلحة والعتاد إلى الكابتن كاباليرو (Caballero) وألمانيا وايطاليا تُرسل الأسلحة إلى الجنرال فرانكو ، وهذا لا يهم بريطانيا.

ويقول تشرشل : "وعندما قرأت عن أعداد المتطوعين من ألمانيا النازيّة وايطاليا الفاشيّة ، لمقابلة المتطوعين من روسيا البلشفية والمتطرفين الشيوعيين في فرنسا ، حزنت على هذه الحملات البربرية" [٢٩] ، لذلك نرى أن الحكومة في بريطانيا كانت محافظة والرأي العمالي لصالح السياسة الاسبانية ، لذا فان هذا التناقض جعل الموقف أفلاطونياً ، لأن مؤتمر نقابات العمّال صرّح بسياسة الامتناع ، وما تريد الحكومة الانجليزية هو احترام سلامة أراضي اسبانيا بما فيها جزر البالئيار [٣٠] ومع أن سياسة "عدم التدخّل" تبنتها فرنسا إلا أنها لم تلتزم بها ، ونقدر أن نقول بأن بريطانيا هي الوحيدة التي التزمت بهذه السياسة -من بين الدول التي وجه لها رسائل بهذا الشأن- وقد قال الوزير الانكليزي الأول نيفل تشامبرلن (Neville Chomberlain) : "إنه وهم ولكنه وهم ضروري لاجتناب الحرب" وسوف نرى أن هذه السياسة أفادت ، خاصة ايطاليا وألمانيا ، كما أفادت نظام فرانكو وسهلت ظفر الفاشية في اسبانيا.

شيء عن منظمة الفلنج "FALANG"

حينما ظفرت "الجبهة الشعبية " المؤلفة من الشيوعيين والاشتراكيين والراديكاليين والبورجوازيين ، في شباط سنة ١٩٣٦ [٣١] ازدادت مخاوف حزب اليمين في اسبانيا وأدى بهم هذا ، إلى القيام بمزيد من العنف والأعمال التعسفية ، وإزاء هذا الوضع الغائم والأحوال السيئة ، شُكّلت منظمة الفلنج ، التي تمتاز بغموض في عقيدتها ، ولكنها تنادي بفكرة تعاون الطبقات أكثر من فكرة صراع الطبقات ، والتأكيد على وحدة اسبانيا وقد كان أعضاء الفلنج من الأحرار البرلمانيين ، وكان أشهر رجالاتها ، زعيمها "Josey Antonia" الذي أبدى نوعاً من التعاطف على الاشتراكيين ، وكان كرهه لليمين المحافظ واضحاً ، خاصةً بعد الانتخابات التي جرت عام ١٩٣٦م ، ولم يشارك أعضاء منظمة الفلنج الذين حصلوا على مساعدات مالية "جوزي انتونيو" في نظرته لكلٍّ من الاشتراكيين واليمين ، كما أن أعضاء الاتحاد الفدرالي الاسباني المستقل –الذين آمنوا بالعنف الثوري والارهاب المضاد- لم يوافقوه ، في نظرته تلك.

ويبدو أن "جوزي انتونيو" لم يكن قادراً على أن يمنع التزايد الهائل في مليشيا منظمة الفلنج –وهم من فئات الشعب المختلفة الاتجاهات– لذلك أعلن في آذار عن حلّ هذه المنظمة ، وأُعتقل معظم قادتها ومن بينهم "جوزي انتونيو" [٣٢] وأصبح هذا يؤمن أن الثورة يجب أن تكون بعيدة عن العقلية العسكرية الضعيفة ، وبشكل سري ومنظم ، ولكنه أُعدم في نوفمبر (تشرين ثاني) سنة ١٩٣٦ ، وهكذا لم تعمل منظمة الفلنج بما كانت تنادي به لاسبانيا ، بل قضت عليها المنازعات الداخلية وظروف اسبانيا بشكل عام.

ثورة فرانكو

حاول بعض قادة الجيش الاسباني ، القيام بحركة عصيان ، والتمرد على الحكومة لصالح الملكيين في تموز سنة ١٩٣٦ [٣٣] ، إلا أن زعيمهم سانخورخو (Snjurju) كاهنفياً في البرتغال ، قتل بحادث طائرة ، قبل بضعة أيام من التاريخ المزمع لبدء الثورة ، حينما كان قادماً ليرأس تلك الحركة [٣٤] ، وفي الوقت نفسه كان الرئيس فرانكو قد غادر جزر كناري إلى مراكش ليرأس حركة التمرد التي قامت بها عدة فرق اسبانية ، كانت ترابط في مراكش ، لذا وبعد ان قُتل سانخورخو ، كان على فرانكو –رئيس الأركان العامة للجيش الاسباني –الذي جردته الحكومة من وظائفه في السابق ، أن يخلفه على رأس الحركة [٣٥] وهكذا أصبح فرانكو هو الزعيم الوحيد في نظر المتمردين ، الذين عقدوا عليه آمالهم ، لإسقاط نظام الحكم ، لهذا انضمت إليه أفواج الحاقدين على الحكومة ، من كبار الضباط العسكريين والبحريين في الجيش الاسباني وأغلبية من الجنود ، وفرق المغاربة ، والفرق الأجنبية ، وعدد لا يستهان به من المدنيين المحافظين ، ومن الملكيين والفاشست ، وعدد من الأفراد الذين كانوا في منظمة الفلنج ، وفريق ممن يعطفون على الكنيسة ، وقدّر عدد هؤلاء جميعاً حوالي ٢٧ ألف.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ ، بل دخلت قوات أجنبية إلى اسبانيا من ايطاليا وألمانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي [٣٦] –كما سنرى فيما بعد –ومن الجدير بالذكر أن معظم هؤلاء كانت لهم تجارب سابقة في هذه الأمور ، في كلّ من المغرب وكوبا ، كما أن لبعضهم تجارب في حركات التمرد التي كانت تحصل في اسبانيا قبل الحرب الأهلية [٣٧]. مهما يكن من أمر فان الحرب الأهلية بدأت في ١٧ تموز سنة ١٩٣٦ في مراكش الاسبانية ، لتضمّ بعد أيام ، كلّ من قرطبة وقاديس في الجنوب ، وسراقوصته وبيرجس وغاليسيا في الشمال ، إلى جانب المتمردين ، وفي نهاية سنة ١٩٣٦ أصبح ثلاثة أخماس اسبانيا في يد المتمردين (الوطنيين كما يسمون الآن).

أمّا الحكومة القائمة فلم يكن لها أنصار سوى فريق صغير من رجال القوات المسلحة [٣٨] ، وكان لهم أنصار كثيرون من الفلاحين وعمال المدن ، وأفواج كثيرة من المجندين الذين ليس لديهم قادة واضحين ، وعدد من الضباط المبعدين وعلى رأسهم مياجي (Miaja) وروجو (Rojo) ، وكما لعب كلّ من الكاتالونيين والباسك الدور الكبير إلى جانب الحكومة [٣٩] ، كما انضوى تحت لواء الحكومة عدد من المتذمرين الذين ساءهم اعتماد فرانكو على المغاربة الذين أتوا



ليحاربوا الأسبان في اسبانيا ، ووفد على اسبانيا لمساعدة حكومة مدريد ألاف المتطوعين من الاتحاد السوفيتي وفرنسا ، حيث تكونت منهم فرق هجومية وكان يُقدّر عدد هذه الفرق بـ ٦٥٠٠ جندي ، كانت لهم الشخصيّة التعاونية المميزة ، والقيادة المدرّبة كما قامت الاتحادات التجارية بتسليح آلاف الرجال من مخازنها [٤٠].

مثل هذه الفرق كانت تُحدث الفوضى والضجيج بعرباتها (Motor tracks) التي تتجول في شوارع المدن الكبير ، والتي يبدو أنها كانت المكان الوحيد لتجمعهم. كان بإمكان قوات الحكومة القيام بحرب عصابات ، وخاصة في المناطق الجبلية ، حيث كان لديهم من الشجاعة والحماس الشيء الكثير وقد تنبه الجمهوريّون (قوات حكومة مدريد) إلى أهمية الموارد الاقتصادية التي ساعدتهم كثيراً فيما بعد ، لتمركزهم في أماكن إستراتيجية ممتازة فقاموا باحتلال لمناطق الصناعية في كلّ من مدريد وبرشلونة وبلباو ومناجم الفحم في استرياس [٤١] (Asturias) كما كان لديهم أحسن البقاع من أراضي اسبانيا الزراعية إلا أن عيبهم الوحيد هو أنه ينقصهم التنظيم والقيادة ، أمّا قيادة الجمهوريين في الحرب (على الأقل في البداية) فكانت تتشكل من لجان الدفاع (Commitees of defense) والتي كان نصفها من السياسيين والنصف الآخر من الروس ، والذين كانوا يتهوّرون كثيراً في اتخاذ قراراتهم غير المناسبة ، وهذه القرارات كانوا يفرضونها على من يقودونهم فرضاً [٤٢].

الحرب الأهلية كما قال أحد معاصريها هي : "انتصار كبير للاقليمية ، وقد كانت فرصة سعيدة لدى الاتحادات التجاريّة ، والتجمعات السياسيّة السريّة في البلاد خاصّة في منطقة كتالونيا كما أنها كانت فرصة جيدة لدى رجالات الاقتصاد الفوضويين (Anarcho-Syndicalists) والبلاد الاشتراكية ، فالشيوعيون الأسبان الذين عشقوا حكومة موسكو ، كان عليهم التشاور مع المفوّض الشيوعي قبل الإقدام على اتخاذ أي أمر [٤٣]".

مقابل حياة الفوضى التي كانت تعيشها حكومة مدريد والتي لم تتنبّه لها أو تأخذها بعين الاعتبار كانت حشود فرانكو تضغط على أنصار فرانكو أن يحرزوا نصر سريع من خلال ثلاثة خطوات [٤٤]:

(١) الاستيلاء على مراكش الاسبانية .
(٢) الاستيلاء على عواصم الأقاليم.
(٣) إسقاط الحكومة في مدريد.

وقد نجحت الثورة في تحقيق أول هدف ، أما الهدفين الأخيرين فكان من الصعب عليهم تحقيقهما ، وذلك للمقاومة العنيفة التي أبداها أنصار الحكومة ، ولكن هذه المقاومة لم تطُل ونقلت الحكومة مقرها إلى فالنسيا ، لاقتراب جيش فرانكو من مدريد ، واعترفت ألمانيا وايطاليا بحكومة فرانكو الوطنية التي أسسها في مدينة بيرجس [٤٥] (Burg os).

وقد ضمت وزارة الزعيم الاشتراكي كاباليرو (Capallero) رئيس حكومة مدريد عدداً من الاشتراكيين والشيوعيين لأول مرة لذلك رأت حكومة الاتحاد السوفيتي أن تقوم بتقديم يد المعونة إلى حكومة مدريد رغم أنها لم تكن شيوعية على الإطلاق ، وسرعان ما اتخذت الحرب الأهلية الاسبانية مظهراً دولياً وصراعاً ايدولوجياً بين مبادئ الدول الأوروبية المختلفة ، أي بين الشيوعية وأعدائها ، بين "الحُمر" والفاشست كما أطلق عليهم مؤخراً [٤٦].

ويقول تشرشل: " ولقد اتصفت هذه الحرب بالقسوة والبشاعة وذلك لايمان كل طرف منهما بأن الغالب سيُفني الجانب المهزوم بعد الانتصار ، وأنه اليأس الذي دفع كل جانب بأن يتصف بعدم الشفقة والرحمة في القتال" [٤٧] حتى أن تشرشل يُسمّي هذه الحرب بمأساة الاسبانية ، وقد أدرك فرانكو خطورة هذا الموقف في بادئ الأمر ودليل ذلك أنه أرسل برسالة إلى وزير الحربية قبل ثلاثة أسابيع من اندلاع الحرب يحذّر فيها الحكومة ، ويدعوها للاستسلام ، وبالمقابل كان جنرالات الحكومة يتوقعون أنها حرب سهلة ، مما دفعهم للاستمرار بالقتال بخطط لا تتصف بالعمق مطلقاً [٤٨] ، وقد زاد الحرب تعقيداً تدخّل الدول الأجنبية في الحرب ، فلم يتردد الفريقان في طلب المساعدة من الخارج ففي ١٩ تموز أرسلت حكومة مدريد تطلب المعونة والنجدة من فرنسا ، وبالمقابل أرسل فرانكو رسله إلى ألمانيا وايطاليا ليطلبوا العون من هتلر وموسوليني [٤٩].

وقد تمكّن فرانكو من نقل قواته المرابطة في مراكش ، وكان بعضها من المغاربة ، بواسطة طائرات ألمانية وايطالية ، وإنزالهم في البرتغال لمخاصمة رئيس دولة البرتغال لحكومة الجمهوريين في اسبانيا. أما هتلر وموسوليني فقد برّروا تدخلهما في هذه الحرب بحجة أنهما يعملان ضد المبادئ الشيوعية ولأن ستالين في تدخله في الحرب الأهلية الاسبانية ، أراد أن يقوّي ساعد الشيوعيين الأسبان ، مما زاد في حنق كل من هتلر وموسوليني وقد اقترحت فرنسا في ٢ آب سنة ١٩٣٦ (وكما بينت سابقاً) أن تتفق كل من ايطاليا وبريطانيا وفرنسا رسمياً على عدم التدخل في اسبانيا ، ولم تلتزم بهذا الاقتراح سوى بريطانيا التي رأت أنه من غير مصلحتها التدخّل في هذه الحرب [٥٠] ، وقد ضاعت توصيات المندوب الاسباني سُدىً في عصبة الأمم ، لأن كلّ من ألمانيا النازية وايطاليا اللتان ساعدتا فرانكو ، ليستا في هذه العصبة ، فالأولى غادرتها إلى غير رجعة والثانية كانت على وشك الخروج بعد غزوها للحبشة ، ولما كان تدخّل الدول الأوروبية هو الذي قرر مصير هذه الحرب فمن الواجب علينا أن نناقش تدخّل كل دولة على حدة ثم نبيّن كيف أصبحت نهاية هذه الحرب بعد ذلك.

التدخل الأوروبي في اسبانيا

امتاز القرن التاسع عشر بالنسبة لاسبانيا بكثرة الحروب الداخلية ، كما امتازت هذه الحروب بتدخّل الدول الأجنبية ، وقد كان تدخل هذه الدول في بادئ الأمر مقتصراً على إرسال الأسلحة والمال ، أما في الحرب الأهلية سنة ١٩٣٦ فقد اختلف الأمر ، وأخذت القضية مجرى آخر ، ذلك أن هذه الدول أرسلت متطوعين وفنيين بل وفرقاً مجندة ، وأصبحت اسبانيا مسرحاً لصراع مرير [٥١] قاسى أهواله الآلاف من البشر ، وأصبح على هذا المسرح فريقين هما:

(١) حكومة الجمهوريين في اسبانيا يدعمها كل من الاتحاد السوفيتي وفرنسا.
(٢) الثوّار برئاسة فرانكو ويدعمهم كلّ من ايطاليا وألمانيا.

أما حكومة بريطانيا فكانت لا تحبّذ فكرة التدخّل ، ويقول تشرشل في هذا المجال: " إننا لا نؤيد قيام حكومة فاشية تابعة لايطاليا ، أو نازية تابعة لألمانيا ، أو شيوعية تدور في فلك روسيا البلشفيّة فإن قامت في اسبانيا إحدى هذه الحكومات فهذه مصيبة كبرى وأن ما نريده هو قيام حكومة حرّة في اسبانيا تعمل على خدمة مصالح شعبها ورعايته [٥١]".



موقف الاتحاد السوفيتي

مع أن حكومة اسبانيا لم تكن شيوعية بحتة ، إلا أنها كانت تحوي بعض الوزراء الشيوعيين وهذا ما دعا الاتحاد السوفيتي للتدخل ، والذي يشجّع كل حركة يسارية في العالم ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فانه ولا شك يُريد أن يوجد مركزاً شيوعياً في أوروبا الغربية [٥٣] ، وكانت مساعدات روسيا قاصرةً على إرسال الغذاء والمواد الخام ، لكنها بدأت منذ منتصف تشرين الأول سنة ١٩٣٦ في إرسال المعونات العسكرية [٥٤] ، وقد وصلت الفرق التي ضمّت جنسيات شيوعيّة مختلفة التي أرسلها الكومنترون ، للاشتراك في هذه الحرب إلى مكان بين مدريد وفالنسيا ، حيث ترأسها الشيوعي الفرنسي مارتي (Marty).

ومن الجدير بالذكر أن هذه المساعدات الروسية ومنها الطائرات أنقذت مدريد من السقوط العاجل ، رغم المساعدات الكثيرة لقوات فرانكو من دول المحور.

موقف فرنسا

رغم أن فرنسا هي التي تبنّت اقتراح عدم التدخّل في الحرب الأهلية ، ورغم تصريح ليون بلوم (Leon Blum) رئيس الجبهة الشعبيّة ، بعدم مدّ اسبانيا بمساعدة عسكرية وقوله : "إن أسباب الحرب في حدّ ذاتها ثقيلة ، وان فرنسا لا تفكّر بزيادة خطورتها بكفاح مذهبي" [٥٥] رغم كل هذا كانت المساعدات تصل إلى حكومة مدريد عن طريق فرنسا ، وكانت المساعدة –بمقابل ذلك– تصل إلى الثوار عن طريق البرتغال على أية حال ، تدخلت فرنسا في الحرب وذلك بقيام الاتحاد العام للعمل والحزب الشيوعي فيها ، بحملةٍ منذ بدء الحرب الأهلية لترسل هذه الحملة أسلحةً وعتاداً حربيّاً إلى الجمهوريين وقد عُرف عن ليون بلوم بتفضيله لحكومة الجمهوريين رغم التصريحات التي نادى بها ، وتركت الحكومة الفرنسية المتطوعين والأسلحة يذهبون إلى اسبانيا.

موقف ايطاليا

لقد تدخلت كل من ايطاليا وألمانيا في الحرب بشكل صريح ، وقد كانت هناك فكرة سابقة لدى هاتين الدولتين بالتدخل في اسبانيا ، وذلك عندما سافر سانخورخو ، الذي تقرّر أن يكون زعيم الثورة إلى روما وبرلين لطلب المساعدة وأن تدعماه في حركته. كما دلّت الوثائق الصادرة عن أصدقاء الجنرال فرانكو أن أحد القادة الثوّار وهو الجنرال مولا (Mola) كان قد وقّع اتفاقاً سرياً ، مع حكومة ايطاليا ، بتقديم ايطاليا الأسلحة والمال مقابل حصولها على فوائد اقتصادية في اسبانيا [٥٦] ، ولذلك كانت ايطاليا تعمل على إنجاح فرانكو .. لأنها كانت ترى أن حكومة فرانكو ستتخلى لها عن قواعد بحرية أو جويّة في جزر الباليار (Baleares) للأهمية الاستراتيجية لهذه الجزر ولهذا لم تتردد ايطاليا بارسال جنود جوقيين (Legionnaires) ووصل مع ايطاليا حدّ الصراحة باعترافها رسمياً بوجودهم في ربيع ١٩٣٧ ، واعترفت بشهر تشرين اول بوجود ٤٠ ألف جندي يقودهم قادة ايطاليون فضلاً عن ذلك فان صحافة ايطاليا احتفلت بسقوط كلّ من بلباو (Bilbao) وسانتاندر (Santander) في يد قوات فرانكو كانتصارين قوميين [٥٧].

موقف ألمانيا

كانت الحكومة الألمانية تأمل من تدخلها في الحرب الاسبانيّة بفوائد اقتصاديّة وإستراتيجية ، ففي بلباو توجد مناجم الحديد ، كما توجد في اسبانيا مناجم المنغنيز والنحاس والبريطس (pyrite) وكانت ألمانيا تفكّر بان ظفر حكومة فرانكو بالنصر ستستفيد من هذه المناجم ، أما الفوائد الإستراتيجية التي كانت تبغيها حكومة ألمانيا ، وهي أن هتلر كان يفكّر في أن اسبانيا الفاشية في المستقبل ، ستجبر فرنسا على الاحتفاظ بجنودها في حالة حرب فرنسية – ألمانية على حدود جبال البرنس ، ورغم كل هذا فان هتلر لم يتحمس للعمل على إحراز نصر حاسم لفرانكو بل كان يتمنّى إطالة الحرب ، لإشغال الدول المعادية التي يهمّها مستقبل اسبانيا [٥٨].

موقف بريطانيا

في بريطانيا كانت الحكومة محافظة برئاسة بلدوين ، أما الرأي العمالي في حزب المعارضة فقد كانوا يميلون إلى تأييد حكومة الجمهوريين التي يرأسها نجرين (Negrin) الاشتراكي المعتدل ، إلا أن حكومة بلدوين أصبحت ترى من المصلحة عدم الانحياز ، إلى فريق دون الآخر [٥٩] ، حتى لا يغضب الثوار الذين بدأت كفتهم بالرجوح من جهة ولئلا ينظم هتلر إلى موسوليني جهراً ، وهذا ما لا تريده بريطانيا طبعاً ومن هنا نرى التزام بريطانيا جانب الحياد ، وأن ما تريده هو احترام سلامة أرض اسبانيا بما فيها جزر الباليار [٦٠] ، وفي كتاب "خطوة بخطوة" نرى تشرشل يقول: "بواسطة الصليب الأحمر أرسلت بريطانيا مساعدات طبيّة وما غير ذلك ابتعدت عن اسبانيا" [٦١].

موقف عصبة الأمم

لقد خرجت ألمانيا النازية من عصبة الأمم ، كما كانت ايطاليا على وشك الخروج –بعد احتلالها للحبشة– حينما اندلعت الحرب الأهلية الاسبانية ، ولذلك لم تتورع هاتين الدولتين في مد يدّ العون والمساعدة مادياً ومعنوياً ، لقوات فرانكو. وبالمقابل قام الاتحاد السوفيتي بمساعدة حكومة الجمهوريين ، وهذه الأمور هي التي وضعت العقبات في فرض حلول للموقف من جانب عصبة الأمم ، كما فشلت جهود الولايات المتحدة في هذا السبيل ، رغم إصدار روزفلت أمراً بعدم تصدير الأسلحة أو مواد التموين إلى أي من الجانبين هذا من جهة ومن جهة أخرى فانه من الطبيعي أن الولايات المتحدة تكره قيام حكومة شيوعيّة في اسبانيا.

بعد هذه اللمحة الموجزة عن تدخّل الدول الأجنبية ، نرى من الضرورة بيان مجرى الحرب بعد سنة ١٩٣٦ والتي كانت كالتالي:

في آذار ١٩٣٧م حدث أكبر اشتباك حربي حيث قام المتطوعون الايطاليون بهجوم كبير لمساعدة فرانكو على الاستيلاء على مدريد . لكن قوات الحكومة ردّتهم على أعقابهم ولذلك رأى فرانكو أن يهاجم المنطقة الشمالية في باسك (Basque) فاستولى على ميناء بلباو ، وكانت الأنباء تصل إلى العالم الخارجي في نهاية سنة ١٩٣٧ تعادل جانبي القتال في القوّة وتعادلهما في امتلاك كل جانب جزءاً مساوياً للآخر من اسبانيا [٦٢] وكان الفريقان يقفان موقف الدفاع ينتظر كل منهما المساعدات الخارجية ، واستمر تدفّق الأسلحة والمتطوّعين عن طريق فرنسا والبرتغال ، ولكن المساعدات التي تلقاها فرانكو ، زادت بكثير عن تلك التي كانت تصل إلى الجمهوريين ، ففي ربيع سنة ١٩٣٨ اشتدّ ساعد فرانكو فبلغت القوات الايطالية وحدها والتي تعمل معه حوالي ١٠٠ ألف مجنّد ، وكانت مسلحة بالأسلحة الحديثة ، بينما قوات الحكومة كانت آخذة في الضعف ، ومن ثم تقدّم فرانكو فاستولى على مدينة ترول (Terwel) وكانت هذه أول ضربة وجهها فرانكو إلى



قوات الحكومة. واتجه شرقاً نحو البحر ففصل قوات أعدائه إلى قسمين، وسقطت برشلونة في كانون ثاني سنة ١٩٣٩، ثم تبعتها مدريد في آذار سنة ١٩٣٩، واضطرت الحكومة الجمهورية أن تنسحب إلى شمال كاتالونيا، ثم تعبر الحدود إلى الأراضي الفرنسية[٦٣] وبذلك تمّ لفرانكو وقواته النصر الحسم وانتهت الحرب الأهلية في اسبانيا واعترفت فرنسا وبريطانيا بحكومة فرانكو، وأرسلت فرنسا المارشال (petain) كسفير لها لدى النظام الجديد[٦٤].

وهكذا خمدت النيران التي دام إضرامها من سنة ١٩٣٦ – ١٩٣٩ في اسبانيا والتي راح ضحيتها آلاف البشر، وجاء فرانكو ليعلن حياد اسبانيا عن جميع المشاكل، والتفرّغ لإصلاح أمورها الداخلية، وإعادة كل شيء إلى مكانه لتجري الأمور بشكل طبيعي ومنظم.

نتائج الحرب وآثارها

انتهت الحرب الأهلية الاسبانية وكان المنتصر فيها فرانكو، فأسّس هذا حكومة كاثوليكية دكتاتورية، أنزلت العقاب بخصومها ومعارضيها السياسيين.

أمّا عن أثر هذه الحرب على وضع اسبانيا الداخليّة، فكانت اسبانيا مسرحاً لهذا الصراع العنيف، ولذا ومن الطبيعي أن يكتوي هذا البلد بحرّ لهيب الحرب، فقد دمّرت هذه الحرب اسبانيا وحطمت اقتصادياتها وأشاعت الفرقة بين مواطنيها لمدة طويلة[٦٥].

وعلى الصعيد الأوروبي لم ترتبط حكومة فرانكو بسياسة الدول التي ساعدته في الحرب، كألمانيا النازية وايطاليا الفاشية، لهذا لم تؤثر هذه الحرب في ميزان القوى الدولية في أوروبا، وقد أعلن فرانكو حياد اسبانيا عندما حدثت أزمة تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٣٨، مما جعل هتلر يسخط على فرانكو الذي أعلن استقلال سياسته. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية بقيت كذلك اسبانيا دولة محايدة. وظلت على عدائها للاتحاد السوفيتي الذي ساعد حكومة الجمهوريين السابقة في اسبانيا[٦٦].

أمّا على الصعيد العالمي فقد كان لها آثار عديدة هامة هي[٦٧]:

(١) نجاح هتلر من الناحية الإستراتيجية بإضعاف مركز بريطانيا وفرنسا وأن يلهيهم بتلك الحرب عن مراقبة أطماعه في وسط أوروبا – وأن يزيد ارتيابهم من الاتحاد السوفيتي –.

(٢) وتبعاً للأثر الأول فقد قدر هتلر أن يمنع من قيام جبهة انجليزية فرنسية ايطالية ضد ألمانيا.

(٣) وقد كان للتعاون الألماني الايطالي في معاونة فرانكو أن تمّ التعاون بين كلّ من هتلر وموسوليني، تأسيس محور برلين-روما في تشرين أول سنة ١٩٣٦.

(٤) لقد تكبدت ايطاليا الكثير من الخسائر والتضحيات في سبيل فرانكو مما جعل هذه تعتمد على ألمانيا خاصة وأن فرنسا وبريطانيا وقفت موقف المعارض لموسوليني عندما قام بحملة ضد الحبشة.

(٥) انضمت ايطاليا إلى الميثاق الألماني الياباني الذي وقعته الدولتان ضد روسيا في تشرين ثاني سنة ١٩٣٦.

خاتمة

كانت اسبانيا – وكما رأينا – ملكيّة قبل عام ١٩٣٠، ثم أصبحت جمهوريّة في سنة ١٩٣١ برئاسة زامورا، ويمكن اعتبار إقالة زامورا سنة ١٩٣٦ وانتخاب آزانا - بدلاً منه – هي البداية الفعلية للخلافات التي كانت مقدّمةً لحربٍ أهلية، أكلت اليابس والأخضر على السواء.

إلا أن الأمر الذي زاد الحرب اشتعالاً، تدخّل الدول الأوروبية وانقسام هذه الدول إلى فريقين:

(١) فريق يؤيد الجمهوريين (حكومة مدريد) وعلى رأسه الاتحاد السوفيتي.

(٢) فريق يؤيد المتمردين بقيادة فرانكو متمثلاً بايطاليا وألمانيا، وما قدّمته هذه الدول للفريقين المتخاصمين (الجمهوريين والثوار) من مالٍ وسلاح ورجال هو الذي عقّد الحرب حتى شملت اسبانيا كلّها.

وإذا بحثنا عن وضع هذه الدول المتدخلة في أمور اسبانيا الداخليّة وجدنا بينها خلافاً عقائدياً، يفرّق بعضها عن بعض، فالاتحاد السوفيتي شيوعي، وفرنسا تدخّلت مدفوعة من قبل الاتحاد العام للعمل والحزب الشيوعي فيها، هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى، ألمانيا نازية وايطاليا فاشية، وأمّا بريطانيا فلم تكن من هؤلاء أو أولئك، لهذا رأيناها التزمت جانب الحياد التام، وكانت كلّ دولة من هذه الدول تهدف من وراء تدخلها كسب الأطماع التي كانت تتوخاها في اسبانيا.

وأخيراً انتصر الثوّار، وقامت حكومة فرانكو، ولكنها لم ترتبط بالسياسة النازية ولا بالسياسة الفاشستية، وبذلك أحسن فرانكو في عمله هذا، حيث أنه بدأ ينظّم الأمور في اسبانيا من جديد، رغم الجراح البليغة التي أثقلت كاهلها.

هوامش البحث

(1) Chambers, Frank P. and his friends, “This age of conflict”, p. 513.

(2) Chambers, Frank P. ibid. p. 513

(3) Chambers, Frank P. ibid. p. 513

(4) Chambers, Frank P. ibid. p. 514

(٥) البطريق، عبد الحميد، (١٩٧١)، "التيارات السياسية المعاصرة"، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ص٢٨٦.

(6) Chambers, Frank P. op. cit. p. 515

(٧) البطريق، عبدالحميد، مرجع سابق، ص٢٨٧.

(٨) المرجع السابق، ص٢٨٨.

(9) Chambers, Frank P. op. cit. p. 516

(١٠) البطريق، عبدالحميد، مرجع سابق، ص٢٨٨.

(١١) المرجع السابق، ص٢٨٩.

(١٢) المرجع السابق، ص ٢٩٠.

(١٣) المرجع السابق، ص ٢٩٠.

(١٤) المرجع السابق، ص ٢٩٠.

(١٥) بييرونوفن، (١٩٦٩) "تاريخ القرن العشرين"، تعريب الدكتور نور الدين الحاطوم، دار الفكر الحديث، لبنان، ص٤٤٨.



(١٦) البطريق ، عبد الحميد ، مرجع سابق ، ص٢٩١.
(17) King-hall, S. (1936) “Our own time 1913-1934”, volume 2, I vor Nickolson and Watson ltd., London, page 130.
(18) Parker, R. AC., “Europe 1919-1945”, p. 198, Paris
(19) ibid. p. 201.
(20) ibid. p. 204.
(٢١) البطريق ، عبد الحميد ، مرجع سابق ، ص٢٩٤.
(22) Chambers, Frank P. and his friends, op. cit. p. 518.
(٢٣) البطريق ، عبد الحميد ، مرجع سابق ، ص٢٩٤.
(24) Parker, R. AC. op. cit. p. 204
(٢٥) البطريق ، عبد الحميد ، مرجع سابق ، ص٢٩٤.
(26) Churchill, W. S. (1942) “Step by step, 1936-1939” Macmillan and Co. ltd., London, p. 51.
(٢٧) بييرونوفن ، مرجع سابق ، ص٤٥٢.
(28) Churchill, W. S. op. cit. p. 87
(29) Churchill, W. S. ibid. p. 88
(٣٠) بييرونوفن ، مرجع سابق ، ص٤٥٢.
(٣١) المرجع السابق ، ص٤٤٨.
(32) Parker, R. AC. p. 203
(٣٣) البطريق ، عبدالحميد ، مرجع سابق ، ص٢٩٥.
(٣٤) بييرونوفن ، مرجع سابق ، ص٤٤٩.
(35) Chambers, Frank P. op. cit. p. 519
(٣٦) البطريق ، عبدالحميد ، مرجع سابق ، ص٢٩٥.
(37) Chambers, Frank P. op. cit. p. 519
(٣٨) البطريق ، عبدالحميد ، مرجع سابق ، ص٢٩٥.
(39) Chambers, Frank P. op. cit. p. 519
(40) ibid. p. 519
(41) ibid. p. 519
(42) ibid. p. 520
(43) ibid. p. 520
(٤٤) البطريق ، عبدالحميد ، مرجع سابق ، ص٢٩٥.
(٤٥) المرجع السابق ، ص٢٩٦.
(٤٦) المرجع السابق ، ص٢٩٦.
(47) Churchill، W. S. op. cit. p. 51
(48) ibid. p. 62
(٤٩) البطريق ، عبدالحميد ، مرجع سابق ، ص٢٩٦.
(50) Churchill، W. S. op. cit. p. 87
(٥١) بييرونوفن ، مرجع سابق ، ص٤٤٩.
(52) Churchill، W. S. op. cit. p. 52
(٥٣) بييرونوفن ، مرجع سابق ، ص٤٥٢.
(٥٤) البطريق ، عبدالحميد ، مرجع سابق ، ص٢٩٧-٢٩٨.
(٥٥) بييرونوفن ، مرجع سابق ، ص٤٥١.
(٥٦) المرجع السابق ، ص٤٥٠.
(٥٧) المرجع السابق ، ص٤٥٠.
(٥٨) البطريق ، عبدالحميد ، مرجع سابق ، ص٢٩٨.
(٥٩) المرجع السابق ، ص٢٩٩.
(٦٠) بييرونوفن ، مرجع سابق ، ص٤٥٢.
(61) Churchill, W. S. op. cit. p. 57
(62) ibid. p. 52
(٦٣) بييرونوفن ، مرجع سابق ، ص٤٤٩.
(٦٤) البطريق ، عبدالحميد ، مرجع سابق ، ص٣٠٠.
(٦٥) المرجع السابق ، ص٣٠٠.
(٦٦) المرجع السابق ، ص٣٠٠.
(٦٧) المرجع السابق ، ص٣٠١.



الدكتور خليف غرايبة في سطور:

- بكالوريوس جغرافيا / الجامعة الأردنية (١٩٧٢).
- دبلوم تربية / جامعة اليرموك (١٩٧٩).
- دبلوم انجليزي عالمي / جيرسي بريطانيا (١٩٧٩).
- ماجستير جغرافيا تاريخية / الجامعة الأردنية (١٩٩٠).
- دكتوراه جغرافية تاريخية سياسية / جامعة بغداد (١٩٩٥).
- قام بالتدريس في التعليم العام في كل من الأردن والسعودية وقطر. وقام بالتدريس في التعليم العالي في كل من السعودية والأردن.
- مساعد أكاديمي ونائب العميد في كلية عجلون / جامعة البلقاء التطبيقية. وعضو الجمعية الجغرافية العراقية. وعضو الجمعية الجغرافية السعودية. وعضو الهيئة الاستشارية لدورية كان التاريخية.

الكتب المنشورة:

- مبادئ الجغرافيا البشرية.
- الجغرافية التاريخية للمنطقة الغربية من جبل عجلون.
- التنمية في الوطن العربي.
- التربية الوطنية في الأردن.
- السياحة البيئية.
- السياحة الصحراوية في الوطن العربي.

البحوث المنشورة في مجلات مُحكمة:

- التركيب الداخلي لمدينة عرعر بالمملكة العربية السعودية.
- التوزيع المكاني للسكان في مدينة عرعر بالسعودية.
- سياسات التنمية المكانية في المملكة العربية السعودية.
- مراحل التوسع المورفولوجي لمدينة عمان بالأردن.
- الزحف العمراني على الأراضي الزراعية في محافظة اربد.
- المستقرات البشرية في لواء عجلون والجزء الجنوبي من قضاء حوران (١٥٩٦).
- الرحلات الجغرافية في التراث العربي الإسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريين.

مستقبل التاريخ





يثير الماضي تساؤلات عديدة ، للماضي علم يدرسه هو التاريخ ، الذي أصبح هو ذاته محل تساؤلات مثيرة ، فإلى اليوم يُقدم التاريخ من خلال كتابات المؤرخين سواء في الكتب أو المجلات العلمية أو الثقافية أو الصحف ، لكن مع تقدم وسائل التكنولوجيا باتت الأفلام الوثائقية مادة خصبة تجذب الكثيرين للتاريخ.

علم التاريخ موضوعه دراسة أحوال المجتمعات الماضية ، أي دراسة تطور الإنسان وما أنتجه من منجزات حضارية ، وما تركته هذه المنجزات من تأثير في تطور الحضارة المعاصرة ، هذا التعريف يُعد متقدمًا جدًا عن موضوع علم التاريخ قديمًا حيث كان الغرض الرئيسي من التاريخ مدح ولي الأمر وتمجيد الدولة ، لذا لم يهتم قدامى المؤرخين بالحياة اليومية للبشر ، لذا كان التاريخ قديمًا انتقائيًا فالمؤرخين كانوا ينتقون الأحداث والوقائع التي يؤرخوها (القصص التي يسردها المؤرخون من الماضي) مركزين على الأحداث التي تجذب انتباهنا ، وذلك ما يدفعنا للقيام بقصها على المعاصرين.

تُعد لهذا كله كتب التاريخ كنوز دفينة ، فهي عمل مفصل قام بسرده المؤرخون ، ودائمًا ما تغمرنا هذه الكتب بالسعادة حيث الحنين إلى الماضي ، ولكن ليس هذا كل شيء بالنسبة للمؤرخين المعاصرين لأننا لسنا فقط في حاجة لتقديم الماضي بل أيضًا لشرحه وتفسيره ، فالوصول إلى سياق أوسع للقصة يكون غير قاصر فقط على أحداثها المتتالية وإنما أيضًا للمغزى من وراء هذه الأحداث خاصة أن أهداف علم التاريخ الآن أصبحت أوسع نطاقاً وأكثر تنوعًا. لكن السؤال المطروح الآن هو لماذا نهتم بالتاريخ؟

هناك إجابات عديدة على هذا السؤال ، بعضها مفرط في إجاباته على نحو أن الاهتمام يكون بهدف الوصول للحقيقة المجردة ، لكن هذه الإجابة تكون كاملة لو كان الهدف علمي بحت أو للتعرف على الماضي وما به من مآثر ، أو لدراسة السلبيات والإيجابيات في تاريخ البشرية ، أو لأنه مكون أساسي من المكونات الثقافية لأي شعب ، وحقيقة الأمر أن كل ما سبق يُعد إجابة مبدئية حول السؤال المطروح ، لأن الإجابة الواقعية هي أن كل ما سبق ليس سوى نتيجة لاهتمامنا بالتاريخ ، فالتاريخ أساس لتثقيف المجتمع وإرشاده لقواعد السلم والحرب وإدارة شئون الدولة والتخطيط لمستقبلها ، من هنا يتحول مفهوم التاريخ من نطاق العلوم النظرية إلى العلوم العملية ، لأنه علم يرتبط بوجود الدولة وعناصرها المتمثلة في الأرض والشعب والسلطة السياسية ويعبر عنهم جميعًا بأنهم هوية الوطن ووجوده.

لذا عندما يعود الحاضر إلى الماضي ، يكون الماضي مركز قوى ، وغالبًا ما يكون التفكير في التاريخ في شكل سؤال يتأرجح ما بين ما هو التاريخ؟ ولمن يكون؟ مثل هذه الأسئلة ضرورية لوجود التاريخ ، فإذا كان الماضي بدون فجوات أو مشاكل لما اكتملت مهمة المؤرخ ، حيث أن التاريخ يُعد نوع من أنواع الجدل ، فهو جدل بين الحاضر والماضي ، وجدل بين ما حدث بالفعل وما سيحدث مستقبلاً.

يروي المؤرخون القصص ساعيين بذلك لإقناعك ببعض الأفكار فالأساليب التي يتبعونها تقوم على الحقيقة ، حيث أنهم يقدمونها بإنصاف حتى إذا أساءت إلى البعض ، كما يتوجب عليهم ترتيبها ترتيبًا



د. خـــالد عزب
مدير إدارة الإعلام بمكتبة الإسكندرية
رئيس تحرير مجلة أبجديات
الإسكندرية – جمهورية مصر العربية
Khaledazab66@hotmail.com

▪ **الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
خالد محمد عزب ، مستقبل التاريخ.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس ؛ سبتمبر ٢٠٠٩. ص ١٧ – ١٩ . (www.historicalkan.co.nr)



زمنيًا وجغرافيًا، وتقديم أعمال من سماتها جذب الانتباه، ساعيين بذلك للوصول لسياق شيق وممتع يتناسب مع الماضي.

نستخلص من هذا أن الماضي ليس القصة التي تُروي وحسب، ولكنه في مجمله مشوش وغير مرتب إلى حد ما ويتسم بالتعقيد كالحياة التي نحياها، فالتاريخ يخلق الشعور بالحيرة، وذلك من خلال السعي للوصول إلى نموذج وسياق ومعنى وقصص سهلة للقارئ، من هنا نستطيع أن نعود إلى الماضي لكي نفهم حقيقة التاريخ في الماضي.

التاريخ تغير مفهومه ومضمونه من عصر هيرودت وإلى الآن، لكن التغير الحقيقي كان في فترة الانتقال إلى عصر الثورة الصناعية والدولة المعاصرة، باعتباره جزء مما سمى العلوم الإنسانية بشكلها الحديث كآلية من آليات السلطة التي تعمل على السيطرة على المجتمع من خلال التعليم والانضباط وإعادة ترتيب مدركات وذاكرة المجتمع.

المستقبل

إذا كان التاريخ قد تغير عبر العصور، فلماذا لا يتغير الآن مرة أخرى؟

حقيقة الأمر أن الماضي يتم استرجاعه في الحاضر حيث يتم إعادة إنشاء الصلة بينهما، خاصة أن عملية كتابة التاريخ مليئة بالأسئلة؟ وهناك عنصر ما يجذبنا نحو الماضي ويحثنا على دراسة التاريخ حيث لم يكن الناس يعيشون كما نعيش نحن الآن.

لكي ندرك هذا لابد أن ندرك أن الطباعة غيرت حياة البشر، فالكتاب المطبوع والصحيفة والمنشور وبطاقات الدعاوي وغيرها من أنواع المطبوعات خلقت مجتمعات مغايرة عن مجتمعات ما قبل الطباعة، فالإنسان صار قارئ مثقف كائن اتصالي جيد، كما غير التلغراف من طبيعة الاتصال بين المجتمعات والدول، والإذاعة صارت في كل ركن من أركان حياة الإنسان اليومية، كذلك التليفزيون الذي صار دوره نقل الوقائع مشاهدة للناس في أماكنهم البعيدة، بل إن كل هذه الأدوات صارت مرجعًا تاريخيًا نعود إليه الآن لنشاهد التاريخ حيًا أو مقروءًا من مصادره الأصلية وليس عبر وسيط، ومع ظهور الأفلام الوثائقية لاسيما أفلام الحربين العالميتين الأولى والثانية، صارت هذه الأفلام وسيلة ممتازة لرواية التاريخ، وصارت الصورة الحية مع السيناريو المحكم والراوي هما أداة التأثير الرئيسية للأحداث التاريخية.

في الماضي كانت السير الشعبية تقوم مقام الأفلام الوثائقية في تسلية الجمهور، غير أن الراوي في السير الشعبية كان يضفي على روايته حبكة روائية مسلية خارج السياق الحقيقي للحدث التاريخي، وهو يضاهي هنا ما يعرف اليوم بالمسلسلات التاريخية، لذا فإن التاريخ الحقيقي هو الذي يوضح لنا أمور مختلفة لشعوب مختلفة، وتطور مهارة الإنسان في التأريخ للماضي هي المحك لرغبة هذا الإنسان في الاستفادة من هذا المخزون المتراكم للمعرفة والخبرة الإنسانية. فالتاريخ إذن بالنسبة للمجتمع بمثابة الذاكرة.

من هنا فإن مستقبل التاريخ لن يكون في كتب تعتمد على النصوص فقط، بل سيعتمد على نوع جديد من الكتب التاريخية تقوم بالأساس على الصورة والرسومات (الجرافيك) الشيقة، هذا النوع يعرف بكتب القهوة coffee books لأن الفرد يتصفحها للتسلية والمعرفة في أوقات الفراغ، ولأنها ستكون منافس حقيقي لشاشات التلفاز والإنترنت في جذب عين القارئ لمشاهدتها وقراءتها، وقد يلحق بهذا النوع من الكتب CD أو DVD عليه فيلم أو لقاء أو تسجيل لحدث مرتبط بموضوع الكتاب. أما الكتب التاريخية المحققة كالمخطوطات فسيكون موضعها المكتبات الرقمية على شبكة الإنترنت، ولذا سينحصر دور المؤرخ مستقبلاً في الدراسات الأكاديمية أو المجلات المتخصصة أو في المساعدة في تقديم المادة التاريخية على شبكة الإنترنت، بالإضافة لدور المؤرخ في تفسير التاريخ والبحث في ثغراته. فلن تكون هناك أمة ليس لديها موقع تاريخي شامل لها على شبكة الإنترنت، من هنا جاء اهتمام مكتبة الكونجرس بهذا الموضوع، والذي لم يقتصر على مجرد ذلك فحسب بل سعت إلى إقامة مكتبة تراثية عالمية بالاشتراك مع اليونسكو تضم نوادر التراث العالمي لكل أمة على شبكة الإنترنت تشارك فيها دول العالم بتقديم أفضل ما لديها من مواد تاريخية وأرشيفية ووثائقية.

التاريخ إلى أين؟

قديمًا كانت كل دولة تحتفظ بوثائقها داخل دار الوثائق القومية... الآن كل دولة تسعى إلى إتاحة هذه الوثائق والتعريف بها عبر شبكة الإنترنت، وهناك منهجان في هذا الصدد، الأول تطبقه الولايات المتحدة، بإتاحة ما تراه غير ضار بسياستها الجارية من وثائق كاملة على شبكة الإنترنت، والمنهج الثاني لدى الأرشيف البريطاني الذي يتيح بيانات وصفية كاملة للوثائق المتاحة للاطلاع.

لكن العالم يتجه الآن إلى ما هو أوسع من ذلك ألا وهو إقامة مواقع إلكترونية أو مكتبات رقمية أو ذاكرة تاريخية على شبكة الإنترنت لكل دولة، هذا النوع من المواقع صارت الحاجة له ملحة لسببين: الأول، ويتمثل في إقبال الأجيال الجديدة على تكوين ثقافتها عبر الوسيط الرقمي وليس عبر الوسائط الناقلة للمعرفة والعلم في صورها المضادة سابقًا. الثاني، تعدد المواد والمصادر التاريخية، وهو ما يجعل من برامج الحاسب الآلي ميزة كبيرة في ربط هذه المواد مع بعضها البعض لتعطي من مدخلات متعددة نتائج متكاملة لمدخل واحد مطلوب البحث عنه.

فمن المصادر التاريخية الجديدة المواد الإذاعية، المواد التليفزيونية، أرشيف الإنترنت، الصحافة، الصور الفوتوغرافية، الأفلام السينمائية، الأفلام التسجيلية، إضافة إلى المصادر التقليدية كالكتب، والدوريات، والوثائق، والعملات، وطوابع البريد، والآثار وغيرها.

هذه المواد جميعًا من الممكن في حالة وصفها في بطاقة وصفية شاملة تتضمن الكلمات التي يمكن أن يبحث من خلالها المستخدم عن هذه المادة تشكل مرجعية لاستعادة المادة عبر البحث على شاشة الحاسب الآلي، وهناك مداخل متعددة لتصميم الصفحة الرئيسية للموقع الرئيسي، منها مداخل تتبع موضوع البحث مثل: الحكام، رؤساء الوزراء، الموضوعات كالحياة السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والفنية، والحياة العلمية، إضافة إلى الأحداث الهامة، فضلاً عن الشخصيات العامة في مقابل البحث بالموضوع، هناك أيضًا البحث من خلال المواد مثل: الصور، الوثائق، الأفلام، التسجيلات الصوتية، الخطب، الصحف والمجلات، الخرائط،

النقـود ، طوابـع البريـد ، الكتـب ، الأوسـمة والنياشـين ، الأغلفـة والملصقات ، والإعلانات.

لكن هذا كله يجب أن يُعزز بمواد تاريخية موضوعية تشرح ببساطة كل ما يتعلق بتاريخ البلد حيث أن مستخدم الموقع يفترض فيه أن يكون باحثًا عن مادة تاريخية يريد أن يقرأ حولها أو أن يتعلم قبل أن يستخدم هذا الكم الهائل من المواد ، وإذا أضفنا لذلك مقالات ودراسات لمؤرخين في أيقونه icon خاصة تتناول قضايا بعينها أو تفسيرًا أو شرحًا لحدث تاريخي ، يكون الموقع التاريخي قد اكتملت أركانه.

هكذا سيكون تقديم التاريخ للمجتمع خلال السنوات القادمة ، لكن هناك فروق بين أن يُقرأ التاريخ من كتاب به نص تاريخي أو من خلال موقع تاريخي على الإنترنت ، هي كما يلي:

الكتاب التاريخي	الموقع التاريخي
يقف عند رؤية مؤلفه للموضوع	يدع القارئ يشكل رؤيته الخاصة به من خلال المواد المتاحة له
ينتهي العمل فيه بمجرد طباعته	يمكن تصحيح معلوماته والإضافة له
لا يتفاعل مع قارئه	تفاعلي حيث يمكن للقارئ المشاركة في الإضافة له
محدود التوزيع	ليس له حد في الانتشار
مادته محدودة على صفحاته	مواده متعددة تخدم الموضوع الواحد وتتنوع بصورة تلفت عين المشاهد
للأجيال الحالية	تاريخ للمستقبل

بل يمكن أن يتفاعل مستخدم المكتبة أو الموقع التاريخي مع جمهوره سواء عبر البريد الإلكتروني ، أو عبر فتح نقاش حول مسائل أو قضايا تاريخية محددة ، يشارك في النقاش علماء تاريخ مع الجمهور ، خاصة في قضايا تاريخية خلافية ، إن هناك ميزة إضافية للمكتبات الرقمية التاريخية ، هي أنها بمثابة سجل وطني يحفظ كل ما يتعلق بتاريخ الوطن في ذاكرة لا تختفي ولا تحترق بمرور الزمن أو لأي سبب من الأسباب ، فالوثائق لدى دار الوثائق القومية ، والمواد التليفزيونية لدى محطة التلفاز الوطنية ، والنقود لدى البنك المركزي ، والصحف لدى المؤسسات التي تصدرها وهكذا ، لكن المكتبة الرقمية هي الوعاء الذي يجمع كل المواد التي لها علاقة بذاكرة الوطن.

يعزز مثل هذا النوع من المكتبات الرقمية المحتوى الرقمي للدولة أو الأمة على الشبكة العنكبوتية التي يجرى الصداع حولها من قبل العديد من الدول والمؤسسات الكل يريد مؤطئ قدم له على هذه الشبكة إثباتًا لهويته وشخصيته.

إن الذاكرة الرقمية التاريخية تشبه الفيلم السينمائي في عرضه للمشاهد التي سرعان ما تتحول إلى ذاكرة الإنسان ، بعضها مشاهد ينساها وبعضها يتذكرها في موقف ما.

ستعود بكم الذاكرة سنين طوال إلى الوراء فتردكم إلى الماضي الذي لم نكن نحن جزءًا من مشاهده يوم أن كانت بلادنا في بدايات نهضتها المعاصرة ، حيث كان أجدادنا يناضلون من أجل تحديث بلادهم والحصول على حقوقهم ، وأنتم تستعرضون مشاهد من حياتهم اليومية ، سترونهم وكأنهم أشخاص حقيقيون يعملون ويقاتلون يتعذبون ويناضلون ، ويعيشون حياتهم بأدق تفاصيلها ، ستأخذكم إلى المدن والقرى ، هكذا سيكون مستقبل التاريخ ، صورة من الماضي تبعث عبر شاشة الكومبيوتر كي تقرأها الأجيال القادمة.



من مؤلفات الدكتور خالد عزب:

- فوة مدينة المساجد ، كتاب صدر عن مؤسسة الأهرام ١٩٨٩م .
- المسلمون واكتشاف الأمريكتين ، دار الصحوة ، القاهرة ١٩٩٣م .
- مشكلة المياه وحلولها في التراث الإسلامي كتاب صدر عن مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ودار القدس بالقاهرة ١٩٩٥م .قام بتقديمه الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا الأستاذ بكلية العلوم في جامعة القاهرة.
- بخاري الشريفة تاريخها وتراثها الحضاري ، كتاب صدر عن مكتبة مدلولي ، القاهرة ١٩٩٦.
- القدس ، المدينة والتهويد ، المركز العالمي للتوثيق والدراسات.
- فقه العمارة الإسلامية ، دار النشر للجامعات المصرية ، ١٩٩٧ .
- تخطيط وعمارة المدن الإسلامية كتاب الأمة العدد ٥٨ قطر ١٩٩٧.
- الفسطاط ، النشأة .. الازدهار . والانحسار ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ١٩٩٨.
- الأهرامات المصرية أسطورة البناء والواقع بالاشتراك ، دار عين القاهرة ٢٠٠٠.
- المدن التراثية في العالم الإسلامي ، كتاب الجمهورية القاهرة ٢٠٠١.
- شارك في تحرير دائرة سفير للمعارف الإسلامية.
- شارك في تحرير وإعداد بنك المعلومات الإسلامي لوزارة الأوقاف الكويتية.
- تراث العمارة الإسلامية عن دار المعارف ٢٠٠٣.
- تراث الحضاري و المعماري للمدن الإسلامية ، دار الكتب العلمية ٢٠٠٤.

دمشق

التاريخ عبر المخطوطات

Damascus



م.مريم بشيش

ماجستير دراسات تراث عالمي

دائرة آثار حمص – المديرية العامة للآثار والمتاحف

الجمهورية العربية السورية

ashtarb@care2.com

▪ الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مريم بشيش ، دمشق "التاريخ عبر المخطوطات".-دورية كـان التاريخيـة.-العـدد الخـامس ؛ سـبتمبر٢٠٠٩. ص ٢٠ -٢٧. (www.historicalkan.co.nr)

History through manuscripts



دمشق المدينة / العاصمة الأقدم و الأوحد التي لم تهجر ابدآ ومازال فيها السكن قائما عبر تاريخها و حتى الآن. لهذا تذخر دمشق ليس بالأوابد و الأماكن التاريخية فقط بل بعبق السنين و الياسمين المتدثر بكل ركن و كل زاوية في أرضها وكل نسمة من هوائها و كل قطرة من مائها. تراث دمشق وسحرها اللامادي و المكمل أبدا لتراثها المادي يجعلها مركز جذاب و مهم لأهلها أولا و لكل سائح و مهتم.

ذكرت دمشق باسم (داماسكي - Damaski) في رقم ايبلا (حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م) كمدينة في الجنوب من ايبلا. كما ذكر اسم دمشق بنصوص مصرية أيضا. هناك أكثر من تأويل لاسم دمشق التي يقال لها الشام أيضا فإحدى التأويلات تبين أن الاسم "شام" نسبة إلى (شيم - Shem) الابن الأكبر لنوح و الذي سكن المنطقة ، أو قد يكون من جذر الكلمة (شمال) حيث تقع دمشق جغرافيا في الشمال من شبه الجزيرة العربية. باللغة الآرامية ذكر الاسم (دارميساك - DarmeŚeq) والذي يعني "المكان الوافر المياه". أما الاسم باللغة الانكليزية (Damascus) فمأخوذ من اليوناني عبر اللغة اللاتينية و أصله من الاسم العربي. سجلت دمشق (المدينة القديمة) على قائمة " اليونسكو" للتراث العالمي عام ١٩٧٩ لأنها توافق الخصائص (i ، ii ، iii، iv ، vi) التي تناسب كونها موقع من مواقع التراث العالمي.[١]

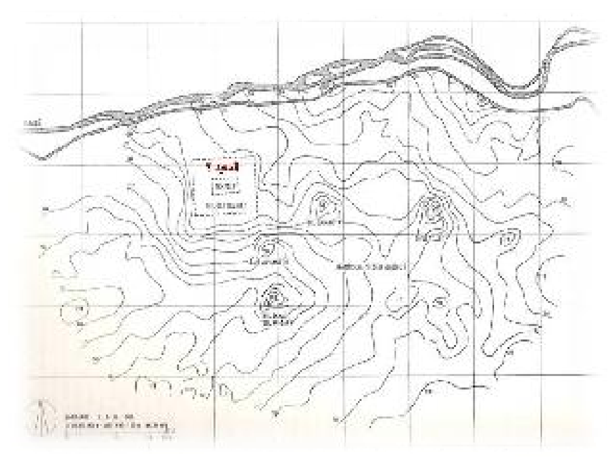
تطور المدينة

إن المعطيات الحديثة للتنقيب في تل اسود قرب المدينة قد يرجح عودة المدينة إلى ٤٠٠٠ أو حتى ٨٠٠٠ ق.م. قد يكون السكن غير المتوقف لدمشق يعود لموقعها الجغرافي الهام الذي تنازعت عليه قوى متنوعة في الشرق القديم و فيما بعد الشرق والغرب. كان لدمشق عبر التاريخ ازدهارها و كبواتها كمدينة فتارة هي العاصمة و تارة أهملت كمدينة و لكن بما أنها واقعة على واحد من أهم طرق التجارة فقد عملت دوما على أن تستمر رغم كل الصعاب. تتالي الحضارات عبر تاريخها الطويل ترك آثار متعددة الطبقات في مخطط إنشاء المدينة حيث كل ثقافة (حضارة) استخدمت و لعدة قرون نفس المكان (المركز) من المدينة إما بالبناء على الأجزاء الأقدم أو بإعادة استخدام الأبنية الباقية ، ..الخ. لذلك فان الطبقات الأقدم من المدينة القديمة غير معروفة تماما لان الطبقات الأحدث تعلوها مما يجعل التنقيب الأثري فيها صعب أو شبه مستحيل.

و هنا أحاول أن اعرض تغير شكل المدينة عبر مخططاتها في الفترات الرئيسة الهامة من تاريخها وفق ما توفر من مراجع لهذا الهدف.

١ - الفترة الآرامية

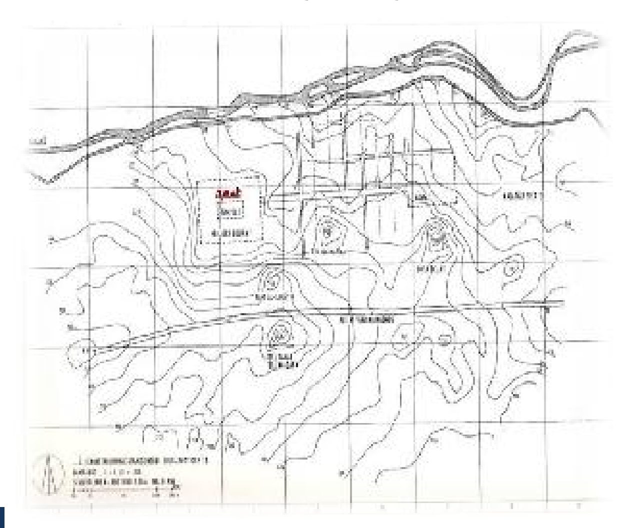
في هذه الفترة كانت دمشق عاصمة لمقاطعة أرامية صغيرة. ونظرا لضرورة وجود معبد للمدينة فيمكن الافتراض أن المعبد الآرامي (معبد حدد) كان متوضع في موقع الجامع الأموي الحالي حيث حوى الموقع أيضا معبد جوبيتير الروماني و كنيسة يوحنا المعمدان البيزنطية. يرجح على الأغلب أن شبكة جر المياه لري المدينة من نهر بردى تم مدها في هذه الفترة. للأسف لا يمكن مشاهدة شيء من معمار هذه الفترة ويمكن توقع مخطط المدينة ليس أكثر من عدة هضاب سكنت في تلك الفترة إلى الشرق الجنوبي من المعبد كما في الصورة (١).



٢- الفترة الهلنستية

عندما وقعت سوريا تحت سيطرة الاسكندر الكبير انتشر مناخ تحضر كلاسيكي غربي. خلال تلك الفترة كانت دمشق مستعمرة يونانية وقد خططت كنموذج المدن اليونانية فالمدينة شبكة منتظمة من الشوارع ضمن شكل مستطيل.

يفترض أن المدينة امتددت للشرق من معبد حدد الذي غدا معبد زيوس و إلى الشمال من المدينة الآرامية المفترضة. اتصل المعبد مع (اغورا -Agora) بشارع عريض مستقيم ومع المحاور الرئيسية للمدينة الهلنستية. تم بناء سور المدينة في هذه الفترة على شكل مستطيل و استنادا لـ(Dentzner) فان قياس المدينة قارب ٨٩ * ١٤٤ م. كما يتوقع (Dentzner) أيضا أن تحصين من تلك الفترة دعي (اكرا-Akra) كان قائمة في مكان القلعة الحالية. لسوء الحظ انه يصعب اختبار أيا من مباني هذه الفترة أو التنقيب عنها. و يمكن النظر لمخطط المدينة بهذه الفترة كما الصورة (٢).



---

(١) (i) كونها قطعة مميزة من مهارات إنسانية خلاقة.

(ii) لأنها تعرض تفاعل هام لقيم إنسانية عبر الوقت أو في منطقة ثقافية من العالم ضمن تطورات معمارية ، تقنية ، فنون ، تخطيط مدن ، أو تصميم المشهد الطبيعي.

(iii) تحمل خصائص فريدة أو على الأقل استثنائية لتقليد ثقافي أو لحضارة مازالت حية أو زالت.

(iv) كونها مثال استثنائي لنموذج بنائي ، معماري ، أو تناغم تقني أو مشهد طبيعي ولذي يظهر: (ا) مرحلة / مراحل مميزة من التاريخ الإنساني.

(vi) هذه المرحلة التاريخية

(iv) تكون متصلة مباشرة أو مرفقة ماديا بأحداث أو تقاليد حية ، أفكار ، أو باعتقادات ، بأعمال فنية أو مكتبية لها قيمة عالمية استثنائية.

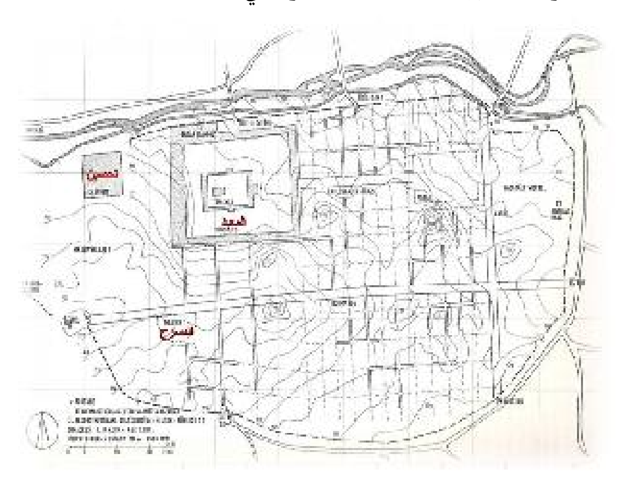


٣- الفترة الرومانية

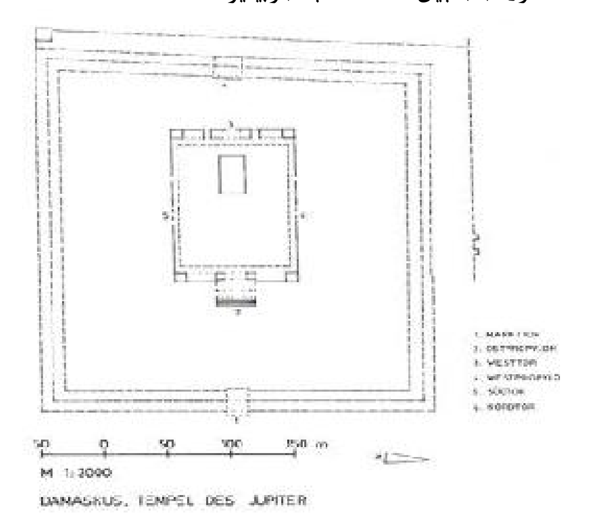
كانت دمشق في هذه الفترة واحدة من المدن العشر الرومانية دائمة الأهمية. ازدهرت التجارة الدمشقية بين الشرق و الغرب و انتشرت البضائع الدمشقية في كل الأصقاع من خلال التجار الدمشقيين. كان الغنى التجاري أساس لان تكون دمشق واحدة من أهم المدن الرومانية و هذه الأهمية تطلبت توسع و تعديل للمدينة لتتسع مباني هامة ضخمة. حوالي القرن الثاني قبل الميلاد أعيد تخطيط المدينة كمدينة مسورة مستطيلة بقياس (١٥٠٠ * ٩٠٠) م. عكس مخطط دمشق في تلك الفترة النموذج التقليدي لأي مدينة رومانية فقد ضم بشكل أساسي: " الشكل مستطيل و التخطيط شبكي منتظم".

- معبد جوبيتير و توضع مكان المسجد الأموي الحالي كما ورد سابقا.
- الشارع المستقيم الرئيسي (Via Recta) و الممتد غرب-شرق و الذي يعرف حاليا بشارع مدحت باشا.
- المعسكر و الذي توضع مكان القلعة الحالية.
- المسرح الروماني الذي تم التأكد من مكانه عند اكتشاف جزء صغير منه عند القيام بأعمال ترميم (بيت العقاد) (المعهد الثقافي الدانمركي حاليا).
- سور المدينة الذي حوى سبع بوابات رئيسية ، قليل منها مازال موجود و أهمها باب شرقي الذي كان نهاية الشارع المستقيم من الشرق.

الصورة (٣) تبين مخطط دمشق الروماني.



الصورة (٤) تبين مخطط معبد جوبيتير



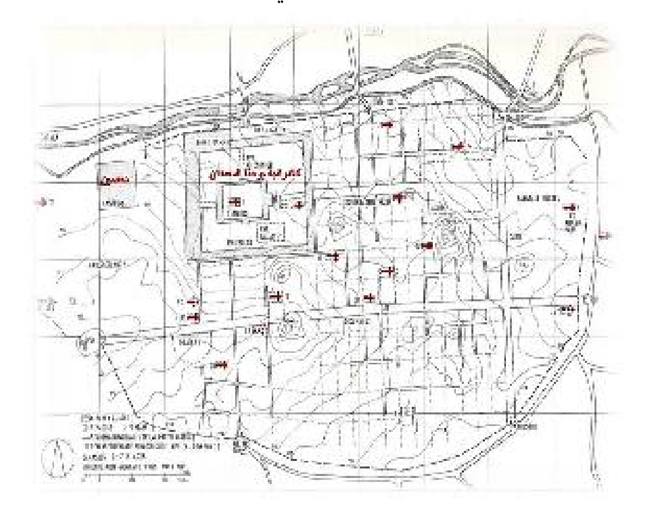
والصورة (٥) تبين باب شرقي (إحدى البوابات السبعة).



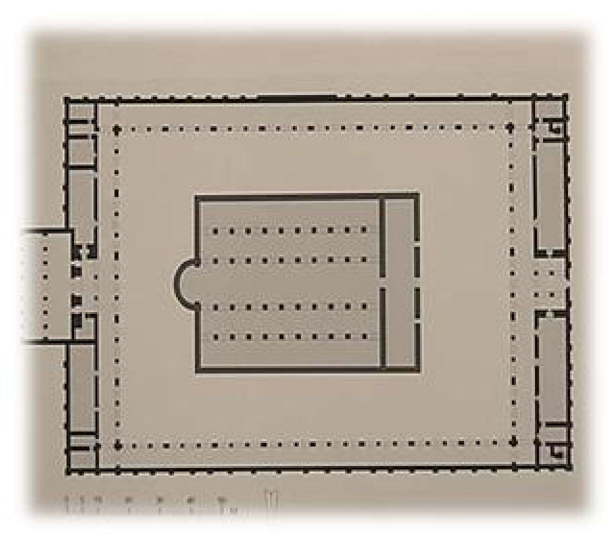
٤- الفترة البيزنطية

مع سقوط الإمبراطورية الرومانية في أواخر القرن الرابع الميلادي غدت دمشق عاصمة المقاطعة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية و حافظت دمشق في هذه الفترة على ازدهارها الاقتصادي و الاستراتيجي. تم تحصين أجزاء من المدينة عسكريا لحماية الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ضد هجمات الفرس. حافظت دمشق البيزنطية على نفس مخطط المدينة الروماني ما عدا إنشاء عدد هائل من الكنائس و كذلك تحويل معبد جوبيتير إلى كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان.

الصورة (٦) تبين مخطط المدينة البيزنطي



و الصورة (٧) تبين مخطط كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان.



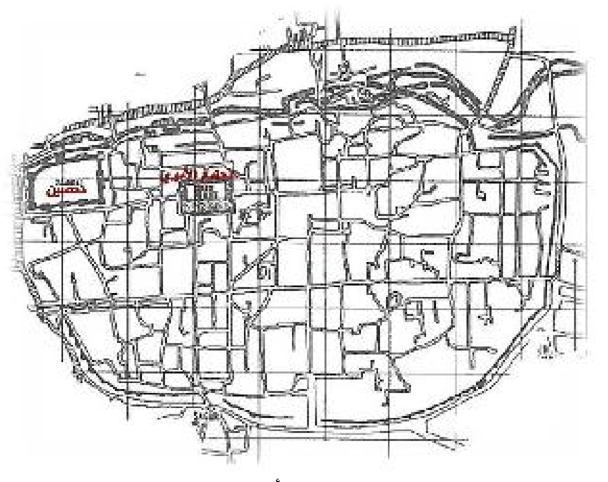


٥- الفترة الإسلامية

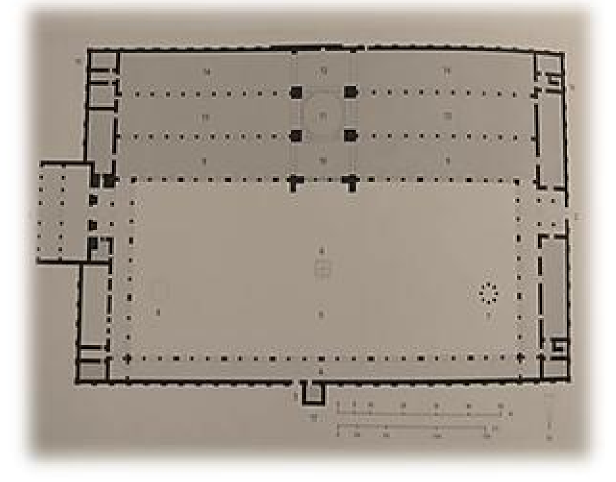
كانت دمشق من أوائل المدن التي تلقت الفتوحات الإسلامية مع بداية انتشار الإسلام لتصبح أهم مدينة سياسيا بالنسبة للمسلمين ولكن أهمية المدينة لم تكن دائمة بل شهدت أيضا فترات انحطاط.
مخطط المدينة لم يتغير مباشرة في الفترات الإسلامية الأولى لكن مع الوقت تم تطبيق الأفكار الإسلامية على تكوين المدينة بإعادة استخدام الأبنية السابقة للفترة الإسلامية و بالتدريج غدت المدينة تحمل النموذج الإسلامي لمخططها الذي أكثر ما بدا واضحا فيما بعد حين امتدت المدينة أكثر و أكثر. و أهم هذه الفترات يمكن إيرادها كما يلي:

٥-١ - الفترة الأموية:

لحوالي مائة عام و بدءا من حوالي عام ٦٦١ م بقيت دمشق عاصمة السلالة الأموية. أهمية المدينة لم تغير مخططها بشكل مفاجئ بل بقي كما اقرب لما كان عليه في الفترة البيزنطية. كان الأمر الرئيسي في بدايات هذه المرحلة الحاجة الماسة للمساجد كونها ليست فقط أماكن للعبادة و لكن أيضا كانت للنقاشات السياسية ، الاجتماعية ، و العلمية أيضا فلذلك تم تحويل أبنية الكنائس الموجودة في المدينة إلى مساجد. بقيت المدينة داخل الأسوار و بدء في هذه الفترة ظهور "الممرات الضيقة الملتوية" و لم يبقى المخطط منتظم الشبكة. و أيضا تم تحويل كاتدرائية يوحنا المعمدان إلى المسجد الأموي الكبير و ذلك حوالي عام ٧٠٥ م و الذي أصبح نموذج للمساجد بكل أنحاء العالم.
الصورة (٨) تبين مخطط المدينة في الفترة الأموية



و الصورة (٩) تبين مخطط المسجد الأموي.



٥-٢- الفترة العباسية:

حوالي العام ٧٥٠ مع انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين انتقلت عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد. لم تعد دمشق مدينة غير مهمة فقط و لكن التنافس بين الأمويين و العباسيين ترك أضرار جسيمة في منشات المدينة. اقتصر دور المدينة في هذه الفترة على كونها مكان عبور الخلفاء إلى القصور العباسية التي انتشرت في المنطقة المحيطة بدمشق. إن نظام الحكم العباسي شجع كثيرا نمو قطاعات ضمن المدينة لذلك فان المدينة أمست مجزئة إلى حارات. و كانت كل حارة منعزلة و لها مسجد و سوق و نظام حماية خاص بها.
أيضا المدينة بقيت ضمن الأسوار القديمة و التغير الهام في مخططها كان ظهور الحارات التي حوت الأزقة الضيقة و الملتوية و المسدودة النهاية. للأسف انه لم يبقى أي مبنى يعود لهذه الفترة. الصورة (١٠) تبين مخطط المدينة في هذه الفترة.

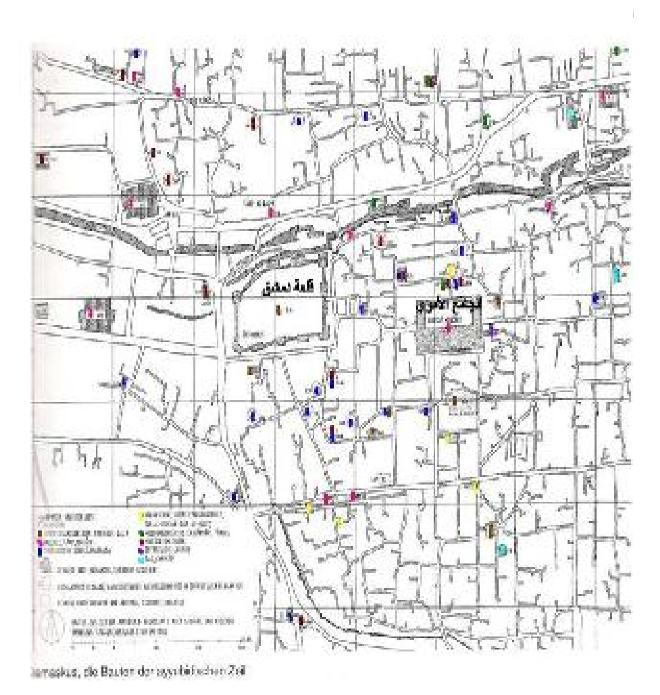


٥-٣- الفترة السلجوقية و الأيوبية:

يمكن اعتبار هذه المرحلة بأنها إعادة ترميم و بناء للمدينة و مرحلة تطورات ثقافية و اقتصادية و إحياء لازدهار المدينة السابق.
في الفترة السلجوقية تم التركيز على بناء المساجد و المدارس فحوالي (٢٦) مسجد و (١١) مدرسة بنيت في القرن الحادي عشر ، المدارس الجديدة بنيت إلى الشرق من المسجد الكبير حسب تقدير (Atasi).
كما أن الحكام السلاجقة الأوائل اهتموا بتحصين المدينة فبنوا القلعة حوالي عام ١٠٧٨ و التي ضمت مقر و سكن الحاكم بالإضافة لكونها مركز عسكري و قد أكمل البناء تماما في الفترة الأيوبية كمبنى ممثل شخص الحكام كما أن معظم المؤسسات الهامة للمدينة أوجدت في المنطقة المحيطة بها.
رممت المدينة خلال فترة الحاكم نور الدين (١١٤٦-١١٧٤) و قويت الأسوار كما تم بناء بوابات جديدة للمدينة مثل (باب الفرج و باب السلام). يعود الفضل لجهود هذا الحاكم ببناء الكثير من الأماكن الخدمية العامة كالمدارس ، البيمارستانات ، بيت العدل ، حمام نور الدين ، كما اوجد أيضا قصر شمس الملوك.
امتدت المدينة في الفترة الأيوبية خارج الأسوار إلى الشمال حيث تطورت منطقة سكنية جديدة في "الصالحية" على سفح جبل قاسيون كما أن المدينة امتدت خارج الأسوار أيضا إلى الجنوب حسب (Dorathee Sack). يمكن ملاحظة أماكن التوسع هذه حتى الآن على مخطط المدينة حيث العديد من المدارس و المساجد بنيت في هذه

المناطق أيضا. الصورة (١١) تبين مخطط المدينة في الفترة السلجوقية و الأيوبية.

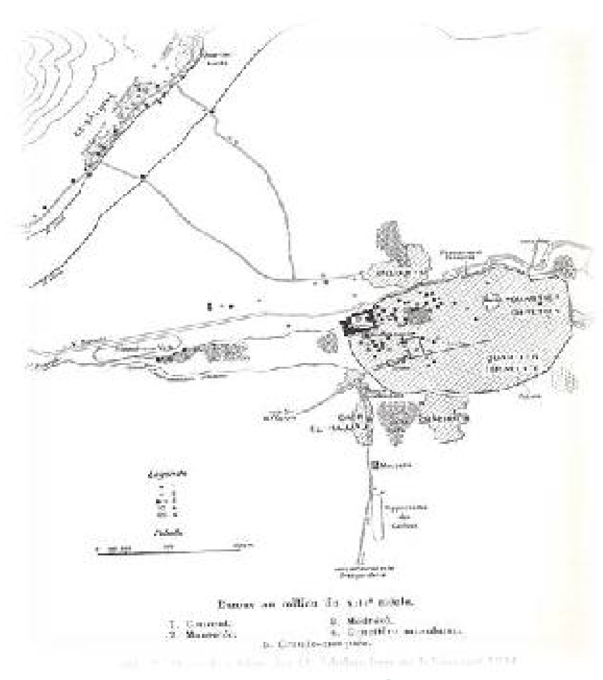




٥-٤- الفترة المملوكية:

بعد الخراب الذي نتج عن المغول تم في الفترة المملوكية إعادة ترميم المباني و الأوابد الأيوبية و تم أيضا إنشاء مباني مملوكية جديدة أيضا. أهم المباني المملوكية كانت الأضرحة (مثل ضريح بيبرس)، المساجد، و المدارس (مثل مدرسة الجقمقية) و التي تميزت بعمارة الأبلق (تناوب الحجر الأسود و الأبيض).

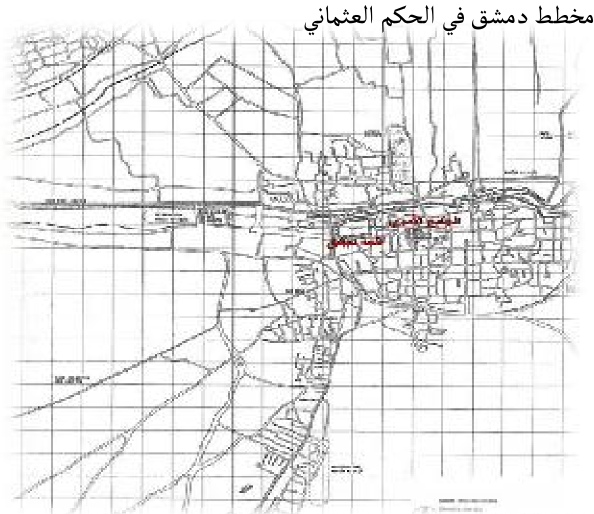
استمر امتداد المدينة خارج أسوارها كما أن المناطق الجديدة خارج المدينة اتصلت ببعضها في هذه الفترة. لذلك فان مخطط المدينة داخل الأسوار حافظ على نفس التخطيط بينما أجزاء جديدة امتدت خارج الأسوار و نموذج تخطيطها كان النموذج الإسلامي الحاوي على الحارات و الأزقة. في هذه الفترة نشطت الفعاليات الاقتصادية (التي تركزت سابقا في الشارع المستقيم) وبدأت توجه نحو الجامع الكبير وبدا معها الشارع المستقيم يفقد أهميته. بدأت تفرعات للأسواق بالظهور أيضا و خاصة قرب الجامع الكبير و بأماكن أخرى لتكون



٥-٥- الفترة العثمانية:

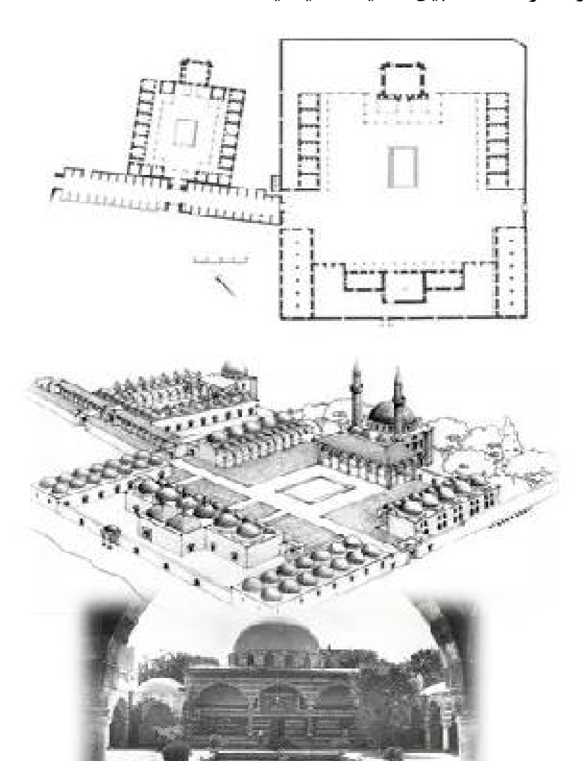
كانت دمشق عاصمة إحدى المقاطعات العثمانية و حدثت في هذه الفترة تغيرات هامة جدا في المخطط العمراني للمدينة. يمكن تجزيء هذه الفترة لثلاث مراحل (القرن السادس عشر، الثامن عشر، و التاسع عشر مع أوائل القرن العشرون) يتم من خلال كل منها النظر على تغير مخطط المدينة.

١- القرن السادس عشر: كانت معظم أعمال الإنشاء في دمشق خلال بداية القرن الأول من حكم العثمانيين. بعد اخذ دمشق مباشرة بنى السلطان سليم الأول تكية الشيخ محي الدين ابن عربي، بنى درويش باشا أبنية مشابهة كما بنى أيضا سوق الحرير، حمام، و خان داخل أسوار المدينة. بنفس الفترة بنى مراد باشا سوق آخر و الذي توج بقبة كبيرة دعمت بإعادة استخدام بقايا أعمدة المعبد الروماني جوبيتر. هذا السوق دمر لاحقا و لا وجود له اليوم. يمكن اعتبار التكية السليمانية نموذج مميز للمعمار العثماني في القرن ١٦. الصورة (١٤) تبين مخطط دمشق في الحكم العثماني





و الصورة (١٥) تبين التكية السليمانية.



٢-القرن الثامن عشر: حدثت نهضة عمرانية أخرى في دمشق عندما وصلت للحكم أسرة العظم الغنية. عشرات الحمامات ، الخانات ، المدارس و الأسواق قد بنيت و التي معظمها مازال قائما اليوم. المثال النموذجي لقصور دمشق الفخمة هو قصر العظم الذي يشغل حاليا كمتحف التقاليد الشعبية. في هذه الفترة أيضا بدا التأثير الغربي يلاحظ في المعمار كما في تخطيط المدينة و خاصة نموذج " الباروك" حيث ظهرت أعداد كبيرة من الساحات.

٣-القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين: كبرت المدينة حوالي ضعف قياسها في القرن التاسع عشر كما أن العديد من الشوارع والأسواق أنشئت في مناطق سكنية منها سوق الحميدية ، سوق مدحت باسا ، سوق ناظم باشا و علي باشا و كلها سميت نسبة للحكام الذين أمروا بإنشائها. كما أن أجزاء ذات طابع أوروبي بدأت بالظهور على امتداد الطريق بين المرجة و الصالحية حيث تم بالتدريج نقل المركز التجاري و الإداري لهذه المنطقة (المرجة ، البرامكة).

في أوائل القرن العشرين تم مد خط حديدي عبر دمشق (خط الحجاز) حيث قاد عبر الأردن إلى مكة. ولهذا فان محطة القطار ، قصر العدل ، و مكتب بريد أنشئت على مرتفع خفيف إلى الجنوب من المدينة القديمة.

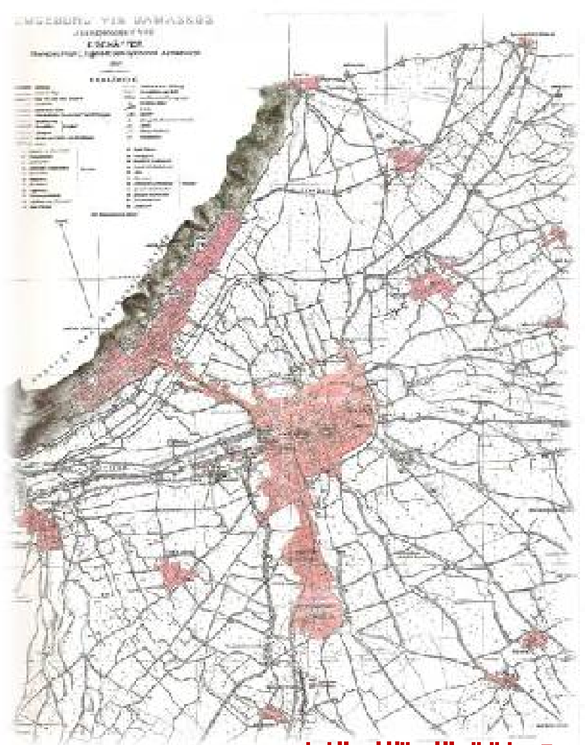
ضواحي جديدة تطورت إلى الشمال من نهر بردى و نوعا ما إلى الجنوب منه حيث دخل البناء غوطة دمشق. حرص عمل تخطيط المدينة على حفظ الغوطة قدر الإمكان و توجيه امتداد المدينة نحو شمال غربي منطقة المزة ، و لاحقا على طول وادي بردى في منطقة دمر و برزة في الشمال الغربي و الشمال الشرقي. في الحرب العالمية الأولى دخل الانكليز دمشق التي أعطيت فيما بعد للفرنسيين لتبدأ مرحلة أخرى من تاريخ المدينة.



الصورة (١٦) تبين مخطط المدينة عام ١٨٩٥



والصورة (١٧) تبين مخطط المدينة عام ١٩١٣.

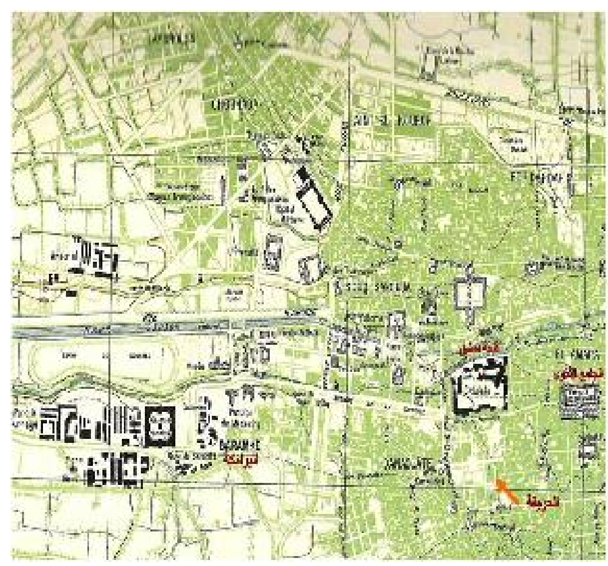


٦- فترة الاحتلال الفرنسي

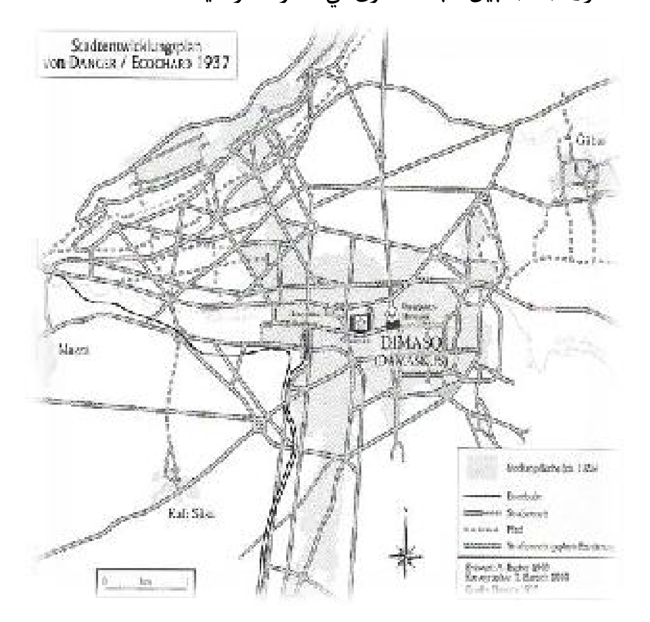
وقعت دمشق عام ١٩٢٠ تحت الانتداب الفرنسي. دخل الجيش الفرنسي دمشق بعد معركة ميسلون من الغرب. أيضا دمشق أمست عاصمة لمجموع الدول المنتدبة فرنسيا في المنطقة. دمر جزء من المدينة القديمة الواقع بين سوق الحميدية و سوق مدحت باشا بالكامل عندما تم قصفه بوحشية من قبل الجيش الفرنسي عام ١٩٢٥ و المنطقة حتى الآن تعرف بالحريقة. قصف مدمر آخر حصل للمدينة في عام ١٩٤٥ عندما وافق الفرنسيين على الانسحاب من سوريا.



استمر التحديث و التطور العمراني للمدينة خلال الانتداب الفرنسي لذلك تم إدخال طابع عمراني غربي للمدينة و خاصة في الجزء الشمالي الغربي بمحاذاة الضفة الشمالية لنهر بردى حيث بنى الفرنسيين نوع من (مدينة جديدة) منفصلة بشكل أساسي عن الجزء العثماني حيث الإدارة ، مركز تجاري ، و أبنية سكنية. خلت المنطقة بين (المدينة) العثمانية و الفرنسية من أي أعمال أو نشاطات لذلك تردت هذه المنطقة بشكل واضح. أول مخططات تنظيمية للمدينة تم و ضعها خلال هذه الفترة و تعود لحوالي ثلاثينات القرن العشرين . عكست هذه المخططات مبادئ تخطيط عمراني غربي حيث حوت نموذج الشبكة كتنظيم و طغى الطابع الفرنسي على الأبنية و الساحات و الحدائق. كما انه أيضا تم مد شبكة طرق للترامات و صلت كامل أجزاء المدينة و التي نتج عنها تدمير في بعض أجزاء المدينة القديمة حيث تطلبت العمل طرقات عريضة لم تكن ضمن المدينة القديمة مما اضطرهم لتوسيعها. الصورة (١٨) تبين تباين التنظيم العمراني للمدينة ففي الجزء السفلي اليميني المدينة القديمة و منطقة الحريقة ، الجزء الوسطي اليساري يبين منطقة البرامكة و هي الجزء العثماني للإدارة ، بينما الجزء العلوي اليساري يبين التخطيط العمراني الفرنسي.

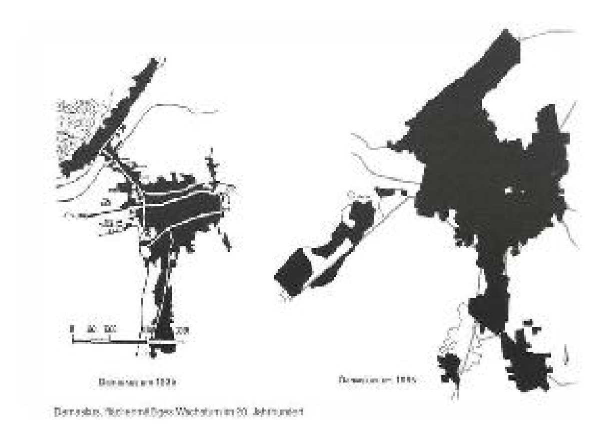


الصورة (١٩) تبين شبكة الطرق في الفترة الفرنسية.



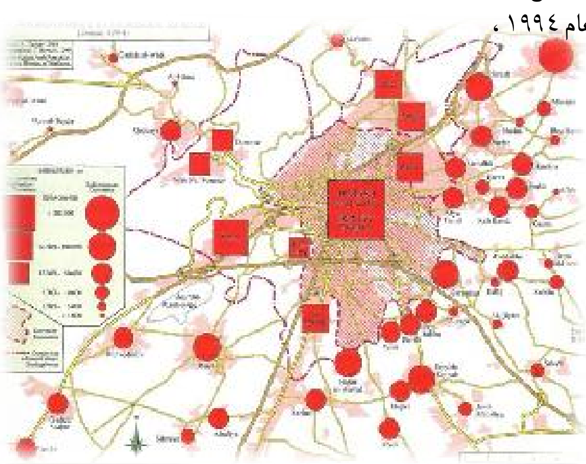
٧- دمشق عاصمة سوريا المستقلة

في السنوات الأولى من الاستقلال ازداد معدل النمو السكاني بشكل ملحوظ فمتوسط النمو في خمسينات و ستينات القرن الماضي كان أعلى من ٥ % في العام. النمو السكاني السريع بالإضافة إلى النمو الاقتصادي و الهجرات الضخمة من الريف إلى المدينة أدى إلى توسع كبير جدا للمدينة و مظهرها العام. الصورة (٢٠).



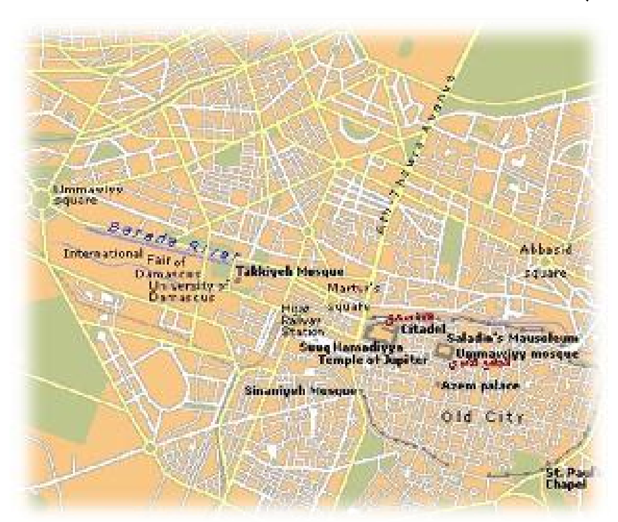
توسع المدينة كان إلى الشمال (المزرعة ، قصاع) و شمال غرب (أبو رمانة) حيث شغلت المنطقة مباني خدمية و أبنية سكنية حديثة في فترة خمسينات القرن الماضي و يشاهد في مباني هذه المنطقة الانسجام الكامل مع معمار النموذج الفرنسي. أيضا بالتدريج تم نقل الفعالية الاقتصادية من المدينة القديمة عبر الجزء الفرنسي إلى الشمال الغربي كما تطورت مناطق صناعية إلى الجنوب من المدينة القديمة. أيضا في ستينات القرن الماضي تم إنشاء عدد هائل من المباني الخدمية مثل متحف وطني ، مشافي ، جامعات. فيما بعد كانت الفكرة الرئيسية لتوسع المدينة أن يكون خارج المدينة الأساسية. في عام ١٩٦٨ تمت دراسة مخطط جديد لتوسع المدينة من قبل مهندس فرنسي(ECOCHARD) و ياباني (BANSHOYA) و لكن توقعهم لنسبة زيادة عدد السكان لم تتطابق أبدا مع الواقع حيث توقعوا عدد سكان المدينة (٩٠٤٠٠٠ نسمة للعام ١٩٨٤) بينما عدد سكان المدينة كان (١٠٠٠٠٠٠ نسمة للعام ١٩٧٦) مما أدى لخلق مشاكل في تخطيط المدينة و خاصة المناطق السكنية.

فيما بعد عملت الخطط على تحديث و تطوير المخطط العمراني للمدينة و قد اتبع النموذج الغربي للتخطيط حيث الشوارع العريضة و المتقاطعة بشكل منتظم و التي تملئ تقاطعاتها كتل الأبنية الشاهقة الارتفاع والمكونة من شقق مغلقة. الصورة (٢١) تبين مخطط دمشق عام ١٩٩٤ .



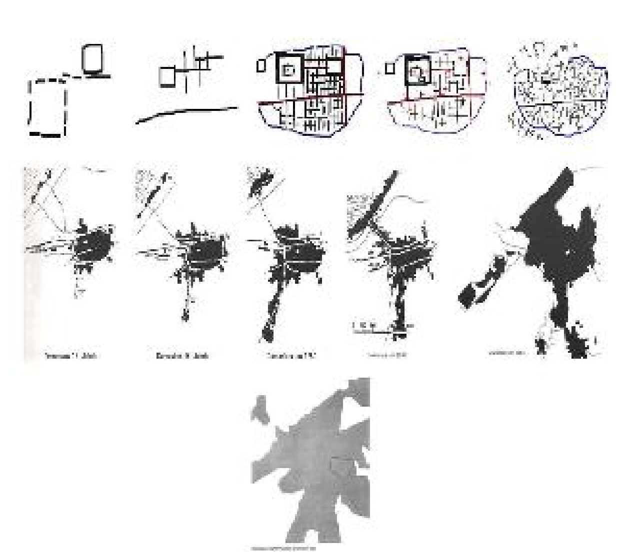


و الصورة (٢٢) تبين جزء من مخطط دمشق الحالي والذي يبين الفروق في التنظيم لأجزاء المدينة حسب المرحلة التاريخية كما ورد سابقا.



خاتمة

كما حاولت أن أقدم تاريخ المدينة من خلال المخططات فإنني سأحاول تلخيص ما تقدم من خلال الصورة (٢٣) و التي فيها نرى من اليسار إلى اليمين و بالتتالي تطور المدينة و تغير مخططها. الصورة تعرض شكل المدينة حسب الفترات و الأعوام التالية: الفترة الآرامية ، الفترة الهلنستية ، الفترة الرومانية ، الفترة البيزنطية ، الفترة الإسلامية الأولى ، القرن ١٣ ، القرن ١٦ ، ١٨٥٠ ، ١٩٣٥ ، ١٩٦٥ ، ١٩٩٥ وفي كل منها يمكن رؤية المدينة القديمة.



دمشق مدينة دائمة الحياة رغم كل ما حل بها من ازمنة صعبة ، دمشق المدينة التي تنهض سريعا للحياة و تحمل بين طبقات مخططاتها العمرانية بصمات التاريخ و أثار كل من مر بها.

المراجع

Adhikari, S., *2002*
Damascus: the oldest inhabited city in the world, The Tribune: June 23, 2002, at: http://www.tribuneindia.com/2002/20020623/spectrum/travel.htm

Atasi, S., *2000*
Von den Umayyaden zu den den Mamluken: Aspekte städlischer Entwiklung in Damascus, in: Damascus – Aleppo 5000 Jahre Stadtentwicklung in Syrien, Mainz am Rhein: Verlag Philipp von Zabern

Escher, A., *2000*
Die stätebauliche Entwiklung von Damaskus in der Zeit der Arabischen Republik Syrien, in: ed. Beate Bollman, Damascus-Allepo 5000 Jahre Stadtentwicklung in Syrien, Mainz am Main: Verlag Philipp von Zabern

Goodwin, G., *1997*
A history of Ottoman architecture, London: Thames and Huston

Nebel, S., *2000*
Gesamtstadt und Altstadt – Planungansätze in Damaskus, in: ed. Beate Bollman, Damascus-Allepo 5000 Jahre Stadtentwicklung in Syrien, Aainz am Main: Verlag Philipp von Zabern

Sack, D.,*1989*
Entwicklung und Struktur einer orientalisch-islamischen Stadt, Mainz am Rhein: Verlag Philipp von Zabern

Stierlin, H., *1996*
Islam. Frühe Bauwerke von Bagdad bis Cordoba, Köln et al.: Taschen

Trauzettel, H., *1988*
Syrien. Aus dem Reistagebuch eines Architecten, Berlin:VEB Veralg für Bauwesen

Weber, S., *2003*
Damascus: a major eastern Mediterranean site at risk, ICOMOS Germany, at: http://www.international.icomos.org/risk/2001/syri2001.htm

The Columbia Electronic Encyclopedia, 6th ed. Copyright ©2006, Columbia University Press, at: http://www.infoplease.com/ce6/history/A0814911.html

Damascus in History, http://www.damascus-online.com/damascus.htm

Damascus,http://www.crystalinks.com/damascus.html

Damascus, Archnet, Digital Library, http://archnet.org/library/places/one-place.tcl?place_id=1599&order_by=title&showdescription=1

Nur Eddine Bimaristan: great medical edifice of the Islamic civilization, Regional, Culture, 1/16/1999, http://www.arabicnews.com/ansub/Daily/Day/990116/1999011635.htm no author, 2002, no author, 2006http://www.syriagate.com/Syria/about/cities/Damascus/

http://lexicorient.com/e.o/damascus.htm

http://en.wikipedia.org/wiki/Damascus

http://www.saudiaramcoworld.com/issue/198202/restoration.of.damascus.htm

http://whc.unesco.org



البنية العمرانية لمدينة قلعة بني حماد


قلعة بني حماد



د.خـــالد بلعربي
قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة سيدي بلعباس - الجمهورية الجزائرية
belarbi.tlemcen@yahoo.fr

▪ الاستشهاد المرجعي بالمقال:
خالد بلعربي ، البنية العمرانية لمدينة قلعة بني حماد.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس ؛ سبتمبر ٢٠٠٩. ص ٢٨ - ٣٠. (www.historicalkan.co.nr).

لاشك أن التحليل المورفلوجي للمخطط العمراني لمدينة القلعة يتطلب الاختصاص الدقيق في ميدان العمران والآثار ، ويعتمد على نتائج التقنيات والحفريات التي يقوم بها الأثريون ، وكذلك على الدراسات الأبحاث الحديثة ، لذا فإنني سأحاول في هذه المداخلة دراسة المخطط العمراني والبنية الداخلية لهذه المدينة خلال العهد الحمادي معتمداً في ذلك على ما توفر لدي من مادة خبرية ، استقيتها من النصوص التاريخية بالدرجة الأولى والتي عثرت عليها في المصنفات العامة والخاصة بتاريخ الدولة بني حماد وحضارتهم ، ثم نعتمد بعد ذلك على نتائج بعض الدراسات والأبحاث الميدانية الحديثة التيّ سبقي في هذا الموضوع ، غير أن قلتها وندرتها وغموض بعضها تجعلنا نلجأ إلى النصوص التيّ تدفعنا إلى بعض النتائج التقريبية بتحديد بعض أماكن الأحياء ، والأبواب ، والمساجد التيّ وردت أسماؤها في هذه النصوص لاندثارها وزوال معالمها العمرانية بسبب الإنسان ومعول الزمان الذي عبث بها.

تتميز المدينة الإسلامية عموما في بلاد المشرق والمغرب بسمات مشتركة بغض النظر عن المميزات التيّ تفرضها البيئة الطبيعية ، والتقاليد المحلية. إن تشييد المدينة الإسلامية مرتبط بضوابط وشروط أساسية وضرورة توفر بعض المعالم العمرانية على رأسها المسجد الجامع ، والسوق ، والأسوار ، والأبواب وشبكة الطرق والدروب المخصصة للمشاة والعربات ، كما يمتاز سكان المدينة بحرصهم على صيانة ديارهم وبناءها تماشيا مع القيم الأخلاقية والعادات والتقاليد التيّ بنيت عليها الأسرة الحضرية الإسلامية وهي ضوابط تفند ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن البناء في المدن الإسلامية يتميز بالعشوائية وعدم التماسك.

إن مدينة قلعة بني حماد لا تخرج عن هذه القاعدة ولا تشد عنها ولا تبتعد عن وظائف هذا التخطيط ومعلمه ، فقد عرفت هي الأخرى تطورات منذ بنائها م قبل بني حماد الذين لهم الفضل الكبير في جعلها قاعدة للحكم ومركز دائرة نفوذهم في المغرب الأوسط [١] ، تتجلى هذه المآثر الباقية بالمدينة كالأسوار ، والقصور والمساجد ، والأبراج ، وهي معالم عمرانية تدل دلالة واضحة على اهتمام الحماديين بتشييد العمران وتخليده ، وعكس ازدهار هذه الصورة تطور العلوم والفنون والصناعات وانتشار السواق بالمدينة مما يدل على الرقي الحضاري للمجتمع الحمادي في ذلك الوقت.

كانت مدينة القلعة في العهد الحمادي عاصمة الدولة ، بنيت سنة ١٠٠٧ م أي قبل إعلان استقلال الدولة الحمادية ، تقع على حافة مرتفعات "التل" مشرفة على طرق تجارية عظيمة الأهمية تصل ثغر بسكرة بالساحل فرضت هذه المدينة نفسها كمدينة رسمية يقطنها أمراء بني حماد[٢].

المساجد: شيّد بنو حماد بالقلعة المسجد الكبير أو الأعظم ، ومسجدا صغيرا بقصر المنار ، كانت تؤدي الصلوات بهما ، وتلقى فيه بعض الدروس على الطلبة في المجالس العلمية المختارة[٣] ، وتعتبر مئذنة المسجد الأعظم من أقدم المآذن الجزائرية تتألف من برج واحد ، يبلغ ارتفاعها حوالي أكثر من أربع وعشرون مترا مبنية بالحجر ، تمتاز هذه المئذنة بالزخارف التيّ ترتبها ، فهو تحفة معمارية رائعة حتى أن بعض الباحثين يشيرون إلى أن مئذنة هذا المسجد قد أثرت في المآذن الموحدية وخصوصا في مئذنة جامع إشبيلية التيّ لها زخارف منظمة

حسب ثلاث ألواح قائمة[٤]، بالإضافة إلى المسجد الأعظم اكتشف علماء الآثار الجزائريين سنة ١٩٦٨ مسجدا صغيرا بقصر المنار يبلغ طوله ١٦٠ متراً وعرضه ١٢٠ مترا وفي وسط مشكاة محرابه كتابات تحتوي على آيات من القرآن الكريم، منها " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً "، ويعتبر المهندسون والأثريون بناء المسجد الأعظم من أبدع المخلفات الأثرية الحمادية[٥].

الأسوار والأبراج: اعتنى الأمراء الحماديون بتسوير مدينة القلعة التيّ كانت قاعدة لحكمهم لبلاد المغرب الأوسط لتكون قلعة منيعة صعبة المنال وحصنا قويا يسهل الدفاع عنها، كانت قلعة بني حماد محاطة بسور مازالت آثاره باقية إلى يومنا هذا، يبلغ طوله سبع كيلومترات، يبدأ من الشط الغربي لوادي فرج من جهة الشرق ثم يتجه نحو الشمال إلى أن يصل إلى جبل تاكربوست ثم ينحدر نحو جبل قرين ليعبر وادا باتجاه الشط الشرقي، ويذكر ابن حماد بأن الذي بنى قلعة بن حماد وسورها هو مملوك رومي يقال له بونياش[٦]، واهتم أمراء بنو حماد كذلك ببناء الأبراج القوية والعالية للمراقبة، ومن بين أبراج المراقبة بالقلعة التيّ يشير إليها الباحثون برج المنار الذي كان يمتاز بعلوّه، يراقب مدينة القلعة من جميع الجهات المختلفة، وكان عاملا مهما في تسهيل مهمة المراقبة والدفاع عن السكان لهذا البرج قاعدة مربعة الشكل يبلغ ضلعها ٢٠م، كما يشتمل على قاعتين، وكان ممر الحراس يحيط بهما[٧].

أبواب مدينة القلعة: تشتمل مدينة قلعة بني حماد على ثلاثة أبواب رئيسية واسعة، شيّدت على جانبي كل واحدة منها مراكز حراسة بمثابة أبراج صغيرة مربعة الشكل لمراقبة الضواحي والأماكن المجاورة والداخلين والخارجين منها باستمرار[٨]، وهذه الأبواب الثلاثة هي باب الأقواس، وباب الجنان وباب جراوة، ولم يبق منها إلاّ الباب الأول ولعل مدينة القلعة كانت تشتمل على أبواب أخرى لم يتم اكتشافها بعد، والجدير بالملاحظة أنه ليست لدينا معلومات خاصة بهذه الأبواب من حيث المكان المحدد لوجودها، فكل ما تشير إليه الدراسات هو فقط إثبات لوجودها، وكانت هذه الأبواب تغلق ليلا.

القصور: اعتنى الحماديون ببناء القصور، فقد عثر الأثريون في مدينة القلعة على ثلاثة قصور منها، قصر المنار وقصر البحر، وقصر السلام، ويبدو أن أمراء الدولة الحمادية كانوا مولعين بالبناء والتشييد، لأن العمارة رمز القوة والازدهار وهي واجبات ومهام الأمراء الأقوياء، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون "تكثر العلوم حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة"[٩].

يتألف قصر المنار من عدة مباني بعضها بجانب بعض، توجد به قاعات مختلفة الشكل من بينها القاعة الشرفية للقصور وكذلك المسجد الصغير الذي سبق ذكره، لقد بني هذا القصر بأسلوب فني معماري بديع والدليل على ذلك أن الجدار الشمالي للقصر كان يحتوي على ألواح مستطيلة من الرخام فوقها شريط مزين بعناصر هندسية منقوشة في الحجر، وكانت القاعة الشرفية للقصر مفروشة بقطع من الخزف بيضاء وخضراء، وتتخلل القصر أحواض من الزهور والأشجار المثمرة، ونافورات المياه، فهو معلم من معالم العمرانية الحمادية الرائعة[١٠].

أما قصر البحر فقد تم اكتشافه خلال الحفريات التي أجراها "دي بيلي" سنة ١٩٠٨، من مميزات هذا القصر أن مدخله الشرفي يشكل قاعة صليبية الشكل وصفين من القاعات المستطيلة متجهة من الجنوب إلى الشمال ورواق مفروش بالأجر الأحمر يحيط بالحوض الكبير الذي تلعب فيه الزوارق حسبما ذكره صاحب كتاب الاستبصار[١١].

ويتكون قصر السلام من أربع غرف وحجر صغيرة، يؤدي مدخله إلى قاعة مستطيلة يبلغ طولها ١٧,٧٥م وعرضها ٢,٧٥م، وبهذا القصر كذلك قاعات مختلفة الشكل والمقاسات، هذا ويشير بعض الأثريين إلى وجود قصر رابع بالقلعة وهو قصر الكوكب الذي لازلنا لا نعرف عنه أي شيء[١٢].

المساكن: إن الحديث عن السكن والمساكن بمدينة قلعة بني حماد، يتطلب نصوصا تاريخية ووثائق عن الخطط، ويتطلب حفريات وتقنيات ميدانية ولكنها مع الأسف غير متوفرة، فالباحثون يعانون من هذا الجانب، إلا أن بعض النتف والإشارات الواردة في بعض المصادر تسمح لنا بتكوين فكرة عامة عن المسكن وأنواعه في مدينة قلعة بني حماد، لأنّ العمارة الإسلامية تحكمها ضوابط مشتركة تجعلها ذات سمات تكاد تكون واحدة[١٣]، إن منازل قلعة بني حماد لا تختلف من حيث الشكل ونمط البناء عن منازل المدن المغربية فقد كانت مربعة الشكل في غالب الأحيان، لا تكتسي أي مظهر جمالي من الخارج ليس بها نوافذ مفتوحة على الشارع، وإن وجدت فهي نوافذ صغيرة لا تعرض الحريم للرؤية من الخارج[١٤]، كانت أبواب المنازل مصنوعة من الخشب كان يتوسط منازل القلعة الفناء ليدخل إليها الضوء، وتوجد بهذه المنازل ممرات تصل الغرف ببعضها البعض، وكانت هذه المنازل تحتوي على قنوات لصرف المياه إلى خارج المدينة، كما كانت تقترب من بعضها البعض خاصة في الأحياء الشعبية الأهلة بالسكان، وقد كان بناء جدران هذه المنازل يتم بالحجارة في الغالب الأعم[١٥].

أحياء المدينة: لا شك أن مدينة قلعة بني حماد كانت تشتمل على عدة أحياء كغيرها من مدن الدولة الحمادية، تقطنها طبقات اجتماعية مختلفة، والحقيقة أنه من الصعوبة بمكان أن نلم بجميع أحياء المدينة لأن الزمن قد أتى عليها، ويد الإنسان لم تبق منها شيئا، والنصوص قد أهملتها اللّهم إلا تلك البقايا والنتف التيّ لا تشفى غليل الباحث، ومن بين أحياء المدينة نعرف فقط أسم حي واحد وهو حي جراوة الذي يقع قرب باب جراوة[١٦].

الأحواض والجسور: احتفظت مدينة القلعة بآثار أحواض وجسرين، كان عدد الأحواض ثلاثة يقع الإثنين الأولين من قصور المنار والثالث في القسم الجنوبي للمدينة، الحوض العلوي لقصر المنار مستطيل الشكل يبلغ طوله ٤,٩٠م وعرضه ١,٣٠م وعمقه ٤,٩٠م، تصل إليه قناة محفورة في الأرض إلى زاويته الشمالية الشرقية، ويقع الحوض السفلي جنوبي غربي الحوض العلوي، مستواه أقل من المستوى الأول بمترين، أما الحوض الثالث الموجود جنوبي المدينة فهو على شكل مستطيل يبلغ طوله الداخلي ١٢م وعرضه ٦م، وعمقه متراً، وجدرانه محصنة تحصينا جيّدا بدعائم أسطوانية الشكل[١٧].

أما عن الجسور فقد كان بمدينة القلعة عدة جسور بقي منها اثنين أحدهما في القسم الغربي للمدينة على النهر الموجود بين قصر

السلام وجبل القرين والثاني يحمل أسم جسر سيدي عيسى موجود جنوبي المدينة وخارجها[١٨].

وهكذا ؛ يمكننا أن نقول أن بنو حماد شاركوا في بناء معالم الحضارة الإسلامية من خلال اهتمامهم ببناء المساجد والقصور والأسوار والأبراج والتي كلها كانت تدل على ولعهم بالبناء والتشييد ، وليس عجيبا إذا رأينا ابن حماد يرثي قلعة بني حماد في هذه الأبيات:

أين العروسان لا رسم ولا طلال * وأين ما شاد منه القادة الأول
ومجلس النوم قد هب الزمان له * بحادث قل فيه الحادث الجلل
وما رسوم المنار الآن ماثلة * لكنها خير يجري بها المثل

الهوامش:

1- إبراهيم حركات ، المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط ، دار إفريقيا الشرق ، المغرب 1998 ، ص267.
2- عبد القادر جغلول ، مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط ، ترجمة فضيلة الحكيم ، دار الحداثة ، لبنان ، 1982 ، ص58.
3- ينظر:
Saladine Note Surla Kalaa des Beni Hammad Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique de Constantine 1922-1923. p198.
4- رشيد بورويبة ، الدولة الحمادية ، تاريخها وحضارتها ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1977 ، ص213.
5- يحي بوعزيز ، جهود الجزائر الفكرية في موكب الحضارة العربية ، مجلة الأصالة ، العدد19 ، مارس-أبريل ، 1974 ، ص286.
6- الصنهاجي أبو عبد الله محمد ، أخبار مملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق جلول أحمد بدوي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص42.
7- رشيد بورويبة ، المرجع السابق ، ص203.
8- محمد تحريشي ، أسس المكون الثقافي للحماديين ، مجلة الفضاء المغاربي ، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها بالمغرب العربي ، جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان ، العدد 2 ، أبريل 2004 ، ص266.
9- ابن خلدون عبد الرحمن ، المقدمة ، دار الكتاب اللبناني ، (دت)، ص777.
10- عبد الحليم عويس ، دولة بني حماد ، دار الشروق ، 1980 ، ص73.
11- مؤلف مجهول ، الاستبصار في عجائب الأبصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، 1985 ، ص23.
12- رشيد بورويبة ، المرجع السابق ، ص270.
13- قدور أحمد ، المدن الموحدية وعلاقاتها بالإقليم (دراسة اجتماعية اقتصادية) دكتوراه في التاريخ (مرقونة) كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، 1988 ، ج2 ، ص437.
14- ينظر:
Golvin (L) le maghrib central à l'époque des Zirides Adrien Maisonneuve, paris, 1962, p153.
15- رشيد بورويبة ، المرجع السابق ، ص163.
16- المرجع نفسه ، ص156.
17- المرجع نفسه ، ص 273-274.
18- المرجع نفسه ، ص274.

أعظم الأخطاء في التاريخ

باع جورج هاريشن من جنوب أفريقيا مزرعته إلى شركة تنقيب بعشرة جنيهات فقط لعدم صلاحيتها للزراعة، وحين شرعت الشركة في استغلالها، اكتشفت بها أكبر منجم للذهب على الإطلاق، أصبح بعدها هذا المنجم مسؤولاً عن ٧٠% من إنتاج الذهب في العالم.

وفي إحدى ليالي ١٦٩٦م أوى الخباز البريطاني جوفينز إلى فراشه، ولكنه نسي إطفاء شعلة صغيرة بقيت في فرنه، وقد أدى هذا "الخطأ" إلى اشتعال منزله ثم منزل جيرانه ثم الحارات المجاورة، حتى احترقت نصف لندن ومات الآلاف من سكانها، فيما أصبح يعرف "بالحريق الكبير"، أما جوفينز نفسه لم يصب بأذى !!

وفي عام ١٣٤٧م دخلت بعض الفئران إلى ثلاث سفن إيطالية كانت راسية في الصين، وحين وصلت إلى ميناء مسينا الإيطالي خرجت منها، ونشرت الطاعون في المدينة ثم في كامل إيطاليا. وكان الطاعون قد قضى أصلاً على نصف سكان الصين في ذلك الوقت، ثم من إيطاليا انتشر في كامل أوروبا فقتل ثلث سكانها خلال عشر سنوات فقط.

تذكر بعض المصادر أن أحد الملوك البريطانيين اختلف مع البابا في وقت كانت فيه بريطانيا كاثوليكية، وكرد انتقامي حرّم البابا تزاوج البريطانيين الأمر الذي أوقع الملك في حرج أمام شعبه، وللخروج من هذا المأزق طلب من ملوك الطوائف في الأندلس إرسال بعض المشايخ كي تتحول بريطانيا للإسلام نكاية بالفاتيكان! إلاّ أن "جماعتنا" تقاعسوا عن تنفيذ هذا الطلب حتى وصل الخبر إلى البابا ، فأصلح الخلاف ورفع قرار التحريم (ولكأن تتصور إسلام بريطانيا، ثم ظهورها كإمبراطورية لا تغيب عنها الشمس) !!

وكانت فرصة مشابهة قد سنحت للمسلمين ، خلال معركة بلاط الشهداء (قرب بواتييه في فرنسا)، ففي هذه المعركة كرر المسلمون نفس الخطأ القاتل في معركة أحد؛ فقد تراجعوا لحماية غنائمهم من جيش شارلمان، فغلبوا وتوقف الزحف الإسلامي على كامل أوروبا. يقول أحد المؤرخين الإنجليز: "لو لم يهزم العرب في بواتييه، لرأيتم القرآن يُتلى ويُفسر في كامبريدج وأكسفورد" !!



لا لتهويد القدس

NO for Jerusalem Judaize

الممارسات الإسرائيلية لتهويد القدس

محاولات التهويد والتصدي لها من واقع النصوص والوثائق

ا.انور محمود زناتي
مدرس مساعد – قسم التاريخ
كلية التربية – جامعة عين شمس
جمهورية مصر العربية
anwar_zanaty@mail.com

Israeli practices to Judaize Jerusalem

- **الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
أنور محمود زناتي ، الممارسات الإسرائيلية لتهويد القدس.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس ؛ سبتمبر ٢٠٠٩.ص ٣١- ٣٩.(www.historicalkan.co.nr)

«إننا إذا حصلنا يوماً على القدس وكنت لا أزال حياً وقادراً على القيام بأي شيء فسأزيل ما ليس مقدساً لدى اليهود فيها ، وسأحرق الآثار التي مرت عليها القرون»!!

«هرتزل» مؤسس الحركة الصهيونية

خلفية عامة

القدس مدينة عربية النشأة ، سكنها العرب اليبوسيون[١] قبل خمسة آلاف سنة ، حيث يعتبر هؤلاء أول من أسس المدينة المقدسة حيث سموها (يبوس) في حوالي عام (٣٠٠٠) ق.م أي قبل نحو خمسة آلاف عام . فهي إذن - وكما ستثبت لاحقاً - عربية المنشأ والتطور ، وقد قدم إليها العرب الساميون في هجرتين كبيرتين : الأولى في بداية الألف الثالث قبل الميلاد ، والثانية في بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، والمؤكد أنه عندما قدم اليهود إليها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد كان الشعب الموجود أصلا شعباً عربياً أخذ منه الإسرائيليون لغته ، ومظاهر كثيرة من ديانته وحضارته[٢] .

ويرى ألفريد جيوم[٣] Alfred Guillaume : " إن الوعد الغامض المقطوع لأسباط إبراهيم بأرض الميعاد الممتدة من نهر مصر (النيل) إلى النهر الكبير (الفرات)[٤] هو وعد قطعه الله لنسل إبراهيم في جميع أرجاء المعمورة ، قبل مولد إسماعيل وإسحاق. وعلى ذلك فهو وعد مقطوع للعرب واليهود ، من أبناء إبراهيم جميعا ، ولم يقطع بأن أرض الكنعانيين هي لليهود وحدهم ، أولئك الذين لم تعرِ لهم الدولة ".

ويؤكد العلامة جيمس هنري بريستد أنه : "عندما دخل العبرانيون أرض فلسطين وجدوا فيها قبائل كنعانية تقيم في المدن الزاخرة ، واقتبس هؤلاء العبرانيين من الحضارة الكنعانية كما يقتبس المهاجرون الجدد إلى أمريكا العادات والتقاليد ، والأخلاق والملابس ، وكانت المدن الكنعانية ذات حضارة قديمة فيها كثير من أسباب الراحة وحكومة وصناعة وتجارة وديانة" . وقد حافظت فلسطين أو القدس على كيانها العربي سنين عددا .. وظلت أزماناً تحافظ على وحدتها وتضعف أزماناً أخرى ، ولكن حياة العرب فيها من الكنعانيين لم تختف بما وقع لها من غزوات العبرانيين أو الفرس أو اليونان أو الرومان. وكل ما في الأمر أنها بلاد قد تداولتها أيدي الغزاة دون أن تفقد أهلها وأصحابها"[٥] .

إقرار النصوص التوراتية

وأرض فلسطين باعتراف التوراة ذاتها كانت أرض غُربة بالنسبة إلى آل إبراهيم وآل إسحق وآل يعقوب ؛ إذ كانوا مغتربين في أرض فلسطين بين الكنعانيين سكانها الأصليين . وتؤكد لنا التوراة غربة اليهود عن القدس ، ففي سفر القضاة ١١:١٩ و ١٣ تجد قصة رجل غريب وفد مع جماعة له إلى مشارف (يبوس).. وفيما هم عند يبوس والنهار قد انحدر ، قال الغلام لسيده : " تَعَالَ نَمِيلُ إِلَى مَدِينَةِ الْيَبُوسِيِّينَ هذِهِ وَنَبِيتُ فِيهَا». فَقَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: «لاَ نَمِيلُ إِلَى مَدِينَةٍ غَرِيبَةٍ حَيْثُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي إِسرائيل هُنَا " .

وهذا نص آخر يؤكد أن إبراهيم عليه السلام كان غريبا فرداً في أرض كنعان تقول نصوص التوراة : « وَتَغَرَّبَ إِبراهيم فِي أَرْضِ الْفَلَسْطِينِيِّينَ أياماً كَثِيرَةً »[٦] . ونص آخر يقول : و« وَسَكَنَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ غُرْبَةِ أبيه فِي أَرْضِ كَنْعَانَ »[٧] . وكانت كل أمنية سيدنا إبراهيم أن يُعطَى من أهل فلسطين مساحة قبر لزوجته سارة: «أَنَا غَرِيبٌ وَنَزِيلٌ عِنْدَكُمْ. أَعْطُونِي مُلْكَ قَبْرٍ مَعَكُمْ لأَدْفِنَ مَيْتِي مِنْ أَمَامِي »[٨] .

وفي موضع آخر بالتوراة: "وَحَارَبَ بَنُو يَهُوذَا أُورُشَلِيمَ وَأَخَذُوهَا وَضَرَبُوهَا بِحَدِّ السَّيْفِ ، وَأَشْعَلُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ. ٩ وَبَعْدَ ذلِكَ نَزَلَ بَنُو يَهُوذَا لِمُحَارَبَةِ الْكَنْعَانِيِّينَ سُكَّانِ الْجَبَلِ وَالْجَنُوبِ وَالسَّهْلِ "[٩] . كما أورد المؤرخ اليهودي يوسفوس أن " الملك داود طرد الكنعانيين من يبوس وأسكن أهله فيها "[١٠] ويتضح من ذلك أن مدينة سالم (أورشليم) هي مدينة كنعانية أي عربية دخلها اليهود بحد السيف[١١] .

كلمة التاريخ

يقول المستشرق الفرنسي المنصف جوستاف لوبون عن التواجد اليهودي بفلسطين بأنهم : " قضوا زمناً طويلاً ليكون لهم سلطان ضئيل في فلسطين لا أن يكونوا سادتها" . ويضيف : " وفي فلسطين كان يعيش اليبوسيون ... ، وكان السلطان في فلسطين للفلسطينيين ... ، وكان ذلك حتى عهد داود . ولم تكن لهؤلاء اليهود لغة ، أو ثقافة ، أو حضارة خاصة بهم ، وإنما كانوا يقومون على تراث كنعاني بحت كما تؤكد لنا ذلك الأحداث التاريخية. وهكذا بقيت القدس ، بل كل فلسطين ، كنعانية في ثقافتها ، وفي حضارتها ، ولغتها "[١٢] .

وبالرغم من تعاقب الآشوريين والبابليين والإغريق والرومان على فلسطين ، إلا أن أهلها لم ينفكوا عن الأرض ولا اقتلعوا منها "[١٣]

ويؤكد دي سي أوليري في كتابه(Arabia Before Muhammad): "إنّ معظم الفلاحين الفلسطينيين الحاليين هم أنسال تلك الأقوام التي سبقت الإسرائيليين"[١٤]. والجدير بالذكر أن أول إشارة إلى أقدم أسماء فلسطين - هي أرض كنعان - توجد في حفريات تل العمارنة التي يرجع عصرها إلي خمسة عشر قرنا قبل الميلاد والاسم الذي تذكره هذه الحفريات هو كيناهي او كيناهنا kinahi , kinahna وأصله كنعان kana'an ، وأشارت هذه الحفريات بهذا الاسم إلي البلاد الواقعة غربي نهر الأردن ومنها سوريا كما أن كنعان هو الاسم الذي تذكر به التوراة هذه البلاد ومن ثم يستطيع القاريء أن يستوضح من ذلك أن الكتاب المقدس لليهود " التوراة " يعترف بأن فلسطين ليست بلادهم وأنهم أتوا إليها نتيجة الغزوة التي قام بها يوشع بن نون إلي هذه البلاد[١٥] .

وهو ما يؤكده الدكتور ل.كارنييف: " ... فالفلسطينيون المعاصرون هم أصحاب الحق ، والكنعانيون هم سكان فلسطين عبر التاريخ ، وإسرائيل في الأصل قبيلة صغيرة ، قامت بالغزو طمعاً في أرض كنعان ذات الثقافة العالية ، والتي سميت بعد ذلك فلسطين "[١٦] . ويعلق " جوزيف ريان " قائلاً : " نتيجة للحجج الصهيونية فإن الانطباع الذي تكون في بعض الأوساط هو أن أي تاريخ ذي أهمية تذكر في فلسطين قد تقف في سنة ٧٠ م وأنه لم يبدأ السير ثانية إلا مع الحركة الصهيونية بقياد تيودور هرتزل[١٧] Theodor Herzl[١٨] .

وشهد شاهد من أهلها

ونورد شهادة الكاتب اليهودي ألفريد لينتال ، حيث قال: "إن الكنعانيين هم أول من جاء إلى فلسطين ثم تتالت بعدها القبائل العربية ثم القبائل العبرية"[١٩] فالقدس إذن خالصة العروبة أبداً وأزلاً وما وجود اليهود فيها إلا فترة انتقالية تمثل سبعين عاما فقط أو سبعة وتسعين عاما على عهد داود وسليمان عليهما السلام[٢٠] .

تزييف التاريخ

" تهويد القدس ما هو إلا عملية نبش سياسية واغتصاب واضح "[٢١]

هنري كتن

لقد كان تزييف التاريخ لدى قادة ومنظري الحركة الصهيونية Zionism شرطا أساسيا لاحتلال فلسطين. ومن هذا المنطلق عكفوا على قراءة التاريخ وإعادة صياغته ، قافزين على الحقائق ومزيفين وقائع السنوات والقرون. بهدف احتلال القدس وجعلها عاصمة للدولة العبرية المقامة على أرض فلسطين . ولتحقيق هذا الهدف أمطروا جامعات العالم ومراكز البحث العلمي بالدراسات التي يدّعون بأنها حصيلة الأحافير في بيت المقدس. هذه الدراسات لا تزيف التاريخ فحسب ، وإنما تلغي السمات الحضارية المتميزة للمدينة المقدسة والتي تُجَّذِر حقيقة طابعها العربي والإسلامي . ويسخر خبراء القانون الدولي من مجرد فكرة إعادة تشكيل الخريطة السياسية للعالم على أساس غزوات وهجرات وتوزيعات الماضي الغابر[٢٢] ، ويعدونها أمراً زائفاً بالواقع والقانون[٢٣] .

والتاريخ يؤكد أنه لم يقم لليهود كيان سياسي في المنطقة أكثر من سبعين عاماً على عهد النبيين داود وسليمان عليهما السلام[٢٤] . هذا بينما ظلت المنطقة دائما أرضاً عربية ، عريقة في عروبتها . ولم يكن لليهود أي تواجد سكاني يذكر في مدينة القدس منذ العام ٧٠ بعد الميلاد وحتى العهد العثماني ، حيث لم يسجل خلال الفترة المذكورة سوى وجود عائلتين يهوديتين في العام ١٢٦٧ بعد الميلاد ، ثم بلغ عدد اليهود في القدس عام ١٥٢٥ بعد الميلاد ، أي بعد أقل من عشر سنوات من الإدارة العثمانية نحو ستة آلاف يهودي ، وأخذ التواجد اليهودي في المدينة بالتزايد خلال السنوات التالية ، إلى أن عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا عام ١٨٩٧. فاحتل موضوع استيطان و تهويد القدس مكانة الصدارة في البيان الختامي للمؤتمر المذكور ، ومنذ ذلك التاريخ سعت المنظمات الصهيونية المنبثقة عن المؤتمر الصهيوني الأول كل ما بوسعها لإيجاد واقع جديد في القدس في سياق سياسة سكانية صهيونية مدروسة[٢٥] نستعرضها على الوجه التالي:

التهويد المنظم

بعد أن قامت إسرائيل باحتلال القدس الشرقية ١٩٦٧م اتخذت خطوات مباشرة وسريعة من أجل تهويد المدينة وعلى جميع الأصعدة. ووضعت البرامج الإستراتيجية والتكتيكية طبقاً للسياسة الهادفة إلى السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من الأرض مع أقل ما يمكن من السكان العرب. وهذا النهج الإسرائيلي أدى بدوره إلى برنامج عمل يومي ينحو باتجاه إعادة تكوين المدينة وتشكيلها من جديد وإعادة صياغة التركيبة والخريطة السكانية الديموغرافية لها واستخدمت أساليب مختلفة نستعرضها بالتفصيل فيما يلي:

١- منذ الأيام الأولى للاحتلال تم الإعلان عن توسيع حدود بلدية القدس وتوحيد المدينة في ١٩٦٧/٦/٢٨ إثر احتلال الجزء الشرقي ، وبدأت الخطوات العملية لإنشاء حي يهودي جديد ؛ فقامت سلطات الاحتلال بهدم جزء من حي المغاربة[٢٦] وأجلت سكانه دون أن تتيح لهم الفرصة لإخلاء مساكنهم ، كما قامت بإجلاء قسم كبير من سكان حي الشرف ، وهو من الأحياء العربية القديمة ، وقامت بعزل أحياء عربية كاملة من القدس على إثر إعادة ترسيم الحدود للمدينة. ثم تم توسيع الحي اليهودي الذي استتبعه ظهور أحياء جديدة دفعت بآلاف من المستوطنين اليهود للقدوم إلى المدينة. وتولت شركة (إعمار الحي اليهودي) عملية تهجير السكان العرب ، وامتدت عملية الإخلاء إلى مناطق شاسعة داخل مدينة القدس القديمة.

٢- كانت سلطات الاحتلال تعمل على الاستيلاء على الأراضي بواسطة شركات عقارية وهمية ، ووحدة خاصة تسمى وحدة " أيعوم " وهي الوحدة التي كانت خاضعة لما يسمى إدارة أراضي إسرائيل ، وعملت هذه الوحدة على دفع المواطنين الفلسطينيين إلى بيع مبانٍ وأراض في منطقة القدس الكبرى. وقامت بمنع المواطنين الفلسطينيين من شراء الأرض واستثمارها والتوسع العمراني من خلالها[٢٧]. كما تم مصادرة واقتطاع نحو ٢٠% من مساحة البلدة القديمة مما أدى إلى طرد أكثر من ٧٥٠٠ مواطن خارج أسوار المدينة ، ومصادرة ٦٣٠ عقاراً ، وهدم ١٣٥ عقاراً.

ويبين الجدول رقم (١) عدد السكان الذين نزحوا عن مدينة القدس العربية حسب التقسيم الإداري الإسرائيلي إثر حرب يونيو (حزيران) وبالتحديد حتى أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٧ والذي بلغ حوالي ٢٣١٩٣ نسمة ويشمل هذا العدد بالإضافة للذين نزحوا اثر الحرب كذلك السكان الذين كانوا متواجدين خارج المدينة أثناء التعداد الإسرائيلي سواء في فلسطين أو خارجها ، وفي كلتا الحالتين قد فقدوا حق الإقامة في مدينة القدس الموسعة حسب التقسيم الإداري الإسرائيلي بسبب قوانين الإقامة الإسرائيلية في المدينة.

٣- بعد إجراء سلطات الاحتلال ما يعرف بالإحصاء العام حرمت آلاف المواطنين من أهالي المدينة الحصول على الهوية بسبب تواجدهم خارجها لمختلف الأسباب. وعشية احتلال القدس طردت إسرائيل المواطنين الفلسطينيين الذين يقطنون الحي اليهودي الذين بلغ تعدادهم ٦٥٠٠ نسمة.

٣- تم إلغاء القوانين الأردنية واستبدالها بالتشريعات والقوانين الإسرائيلية وإغلاق المحاكم النظامية الأردنية.

٤- أقدمت سلطات الاحتلال على سحب بطاقات الهوية لعدد كبير من المواطنين الفلسطينيين المقدسيين مما يعني حرمانهم من دخول مدينتهم وفقدان حقهم الشرعي بالإقامة في القدس ، ونص القانون الإسرائيلي (١١/أ) لعام ١٩٧٤ أن " من يقيم خارج البلاد لمدة تتجاوز سبع سنوات بشكل متواصل فإنه يفقد حقه في الإقامة الدائمة في القدس " . كما أقدمت إسرائيل على سحب بطاقات الهوية للمقدسيين رغم كونهم لم يخالفوا التعليمات الواردة في القانون.

٥- قامت برفض منح هويات الإقامة الدائمة وجمع الشمل لشباب وأطفال ولدوا خارج القدس. وتقوم إسرائيل بتطبيق سياسة الترحيل السري للسكان الفلسطينيين من مدينة القدس بوسائل متعددة تشمل قوانين وتنظيمات وأحكام قضائية وتكتيكات إدارية ويشكل الترحيل السري استمراراً مباشراً للسياسة العامة لإسرائيل في القدس الشرقية منذ عام ١٩٦٧ التي تهدف إلى إيجاد واقع ديموغرافي لا يمكن معه تحدي سيادة إسرائيل على القدس العربية.

٦- قامت سلطات الاحتلال بإلغاء الإدارات العربية ونقل قسم منها إلى خارج مدينة القدس وربط شبكتي المياه والهاتف بالقدس الغربية منذ عام ١٩٤٨م ، وإلحاق الدوائر العربية بالدوائر الإسرائيلية مثل ، عمال وموظفي بلدية القدس العربية ، وسن تشريع يفرض على أصحاب المهن العرب الالتحاق بالمؤسسات "الإسرائيلية" ليسمح لهم بمزاولة عملهم.





جدول رقم (١)

عدد سكان القدس الشرقية عشية ضمها
وعدد النازحين اثر حرب حزيران عام ١٩٦٧ [٢٨]

المنطقة	الإحصاء الأردني تشرين ثاني ١٩٦١	الإحصاء الإسرائيلي أيلول ١٩٦٧	عدد السكان المقدر ١٩٦٧ سنة أساس ١٩٦١	حركة السكان عن المدينة في أيلول ١٩٦٧	عدد النازحين حسب وزارة شؤون الأراضي المحتلة ١٩٧٣
القدس الشرقية حسب التقسيم الإداري الإسرائيلي	٧٥٦٤٦	٦٥٨٥٧	٨٩٠٥٠	(٢٣١٩٣)	١٤٧٠٤
سكان المناطق التي ضمت إلى القدس الشرقية	١٥١٥٨	٢١٤٨٨	١٧٩٢٤	٣٥٦٤+	٤٥٠٦
الطور	٤٢٨٩	٥٧٠١	٥٠٧٢	٦٢٩+	١٧٩٥
العيسوية	١١٦٣	١٦١٣	١٣٥٧	٢٣٨+	٢٤٤
شعفاط	٢٥٤١	٣٤٠٠	٣٠٠٥	٣٩٥+	٤٢١
غرب بيت حنينا	...	٣٦٠٩	-	-	٨٨٣
مطار قلنديا	٢٠٠٠	١١٢٣	٢٣٦٥	(١٢٤٢)	٧٢
صور باهر وأم طوبا	٤٠١٢	٤٧١٠	٤٧٤٤	(٣٤)	٧٧٣
بيت صفافا ، شرفات القسم الأردني	١١٥٣	١٣٣٢	١٣٦٣	(٣١)	٣١٨
القدس الشرقية حدود البلدية (التقسيم الأردني)	٦٠٤٨٨	٤٤٣٦٩	٧١٥٢٦	(٢٧١٥٧)	١٠١٩٨
المدينة القديمة	٣٦٨٠١	٢٣٦٧٥	٤٣٥١٦	(١٩٨٤١)	...
المدينة الجديدة	٢٣٦٨٧	٢٠٦٩٤	٢٨٠١٠	(٧٣١٦)	...

٧- في عام ١٩٦٨ بدأت الخطوات التالية خارج سور المدينة القديمة بمصادرة الأراضي لإنشاء مستوطنات إسرائيلية ، وتم وفق ذلك مصادرة مساحات واسعة من الأراضي في الشيخ جراح ووادي الجوز وأقيمت أحياء المستوطنين على هذه الأراضي ، ثم بدأت سلطات الاحتلال بالشروع في إنشاء مستوطنات الحزام المحيطة بالقدس ، وهي مستوطنات : رامات اشكول ، جفعات هامينار ، معالوت دافني ، والتله الفرنسيه الخ [٢٩].

٨- اتفقت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة سواءً حكومات العمل أو الليكود على تكثيف الاستيطان [٣٠] خارج الأسوار ؛ فالسياسة الإسرائيلية المتبعة في هذا المجال اعتمدت على مصادرة أوسع مساحات ممكنة من الأرض بأقل عدد سكان عرب فقد رسم (رحبعام زئيفي) حدود البلدية لتضم ٢٨ قرية عربية ، وتجنب بقدر الإمكان المناطق المأهولة بالسكان العرب . ويتضح من الجدول رقم (٢) المستعمرات في الجزء المضموم من القدس (في حدود البلدية).

٩- العمل على تهويد الاقتصاد العربي في القدس وقامت بسلسلة من الإجراءات تهدف إلى تصفية الاقتصاد العربي وإذابته تدريجياً في الاقتصاد الإسرائيلي ، وقامت بمنع إدخال أي إنتاج زراعي أو صناعي أو أي سلعة من القرى والمدن العربية من الضفة الغربية إلى أسواق القدس في الوقت نفسه تسمح بدخول جميع البضائع والمنتجات الإسرائيلية بسهولة وفتح أبواب التعامل التجاري الإجباري بين التجار العرب والإسرائيليين وحرمان المنتج العربي من الأسواق المجاورة.

١٠- انتهاج سياسة اقتصادية سكانية خانقة في الشطر الشرقي حيث ترفض بلدية القدس منح تراخيص لبناء وحدات سكنية جديدة أو ترميم منازلهم القديمة مما دفع المئات من المواطنين الانتقال للقرى المجاورة. وإسقاط وسحب الهويات والترحيل لكل عائلة فلسطينية تكون فيها الزوجة من القدس والزوج من خارجها. وإسقاط وسحب هوية كل مواطن فلسطيني حصل على جنسية بلد أجنبي ما عدا الجنسية الأردنية.

١١- في عام ١٩٧٢م تم وضع خطة متكاملة تحت اسم (خطة التنمية الخاصة)، لإعادة تخطيطها بهدف تغيير العوامل الطوبغرافية والديمغرافية والمعمارية والتاريخية والاقتصادية والجغرافية ، وجعلها موضع إسقاطات تخطيطية مستقبلية حتى سنة ٢٠٠٠ لتغيير معالم مدينة القدس وهوامشها تماماً ، وتخطيط أماكن الحفريات الأثرية الراهنة والمستقبلية بدعوة التاريخ المزيف لليهود.

١٢- في الفترة التي تمتد من العام ١٩٧٤ وحتى توقيع اتفاقيات أوسلو ، عملت الجمعيات الإسرائيلية شبه الحكومية على الاستيلاء على الأراضي تحت عناوين الشراء بأثمان باهظة للبناء الحضري والمرافق الخدمية المتطورة وبالشراكة عند اللزوم ، ومن هذه الجمعيات : "عطيرت كوهانيم" ، "عطراه ليوشناه" ، "العاد" [٣٢].

١٣- قامت إسرائيل عام ١٩٧٦م بإقامة مستوطنة معاليه أدوميم ، والهدف كان من أجل إقامة تجمع استيطاني كبير يجمع تلك المستوطنات الصغيرة التي أقيمت ما بين منطقة البحر الميت وشمال أريحا وتصبح معاليه أدوميم مدينة كبيرة لها صفة مدينة إقليمية ترتبط بمشروع القدس الكبرى ومهمتها السيطرة على المنطقة الشرقية من القدس أي من رأس العامود حتى البحر الميت ومستوطنات أريحا [٣٣].





جدول رقم (٢) المستعمرات الإسرائيلية في الجزء المضموم من القدس[٣١]

المنطقة	سنة التأسيس	المساحة (دونم)	المساحة المبنية (دونم)	عدد الوحدات السكنية	عدد السكان	القرى العربية التي على أراضيها المستعمرة
التلة الفرنسية	١٩٦٨	٨٢٢	٨٠٠	٥٠٠٠	٦٥٠٠	لفتا وشعفاط
رمات أشكول	١٩٦٨	٣٣٤٥	٣٩٧	٢٢٠٠	٦٦٠٠	لفتا ، شعفاط
معلوت دفنا	١٩٦٨	٣٨٩	٣٨٩	١١٨٤	٤٧٠٠	خلة نوح
نفي يعقوب	١٩٨٠، ١٩٦٨	١٨٣٥	٩٠٨	٣٨٠٠	١٩٣٠٠	حزما ، بيت حنينا
الحي اليهودي	١٩٦٨	١١٦	١٠٥	٦٥٠	٢٤٠٠	البلدة القديمة
رمات الون	١٩٧٢	٤٨٤٠	٢٨٧٥	٨٠٠٠	٣٧٢٠٠	لفتا بيت اكسا شعفاط
تالبيوت الشرقية	١٩٧٠	٢٢٤٠	١٠٧١	٤٤٠٠	١٥٠٠٠	صور باهر
جيلو	١٩٧١	٢٧٤٣	٢٤٧٥	٧٤٨٤	٣٠٢٠٠	بيت جالا ، شرفات ، بيت صفافا
عطروت	١٩٧٠	١٣٦٠	١١٥٨	منطقة صناعية		قلنديا ، الرام ، بيت حنينا ، بير نبالا
سبغات زئيف وسبغات عومر	١٩٨٠	٤٦٢٧	١٢٨١	٧٤٣٨	٣٥٢٠٠	بيت حنينا وشعفاط وحزما وعناتا
تلة شعفاط	١٩٧٠	١١٩٨	...	(مشروع) ٢١٦٥	٢٠٠٠٠ متوقع	بيت حنينا وشعفاط
غفعات همطوس	١٩٩١	٩٨٠	...	مشروع ٣٦٠٠		بيت صفافا ، بيت جالا
الجامعة العبرية	١٩٢٤	٧٤٠	...	...	٢٥٠٠	العيسوية
مشروع مابيلا (قرية داود)	١٩٧٠	١٣٠				باب الخليل ، حي الشجاعية
جبل أبو غنيم	١٩٩١	١٩٩٢	...	٦٥٠٠ (مشروع)	٣٥٠٠٠ متوقع	بيت لحم ، بيت ساحور ، أم طوبى وصور باهر

١٤- عملت إسرائيل عبر المقص الطبوغرافي في الجهة الشمالية على إقامة حزام يربط مطار قلنديا بمطار اللد غربا ، وشقت شارعا التفافيا سمته شارع (٤٥) حيث سعت إلى إقامة مناطق صناعية عبر هذه المنطقة تربط بين منطقة قلنديا حتى موقع مستوطنة أبو غنيم جنوبًا وتجنب مخطط المشروع الدخول إلى مدينة القدس ، لهذا أقيم مشروع طريق وسط بين جفعات زئيف وشارع النفق الذي يوصل إلى منطقة أبو غنيم حتى كفار عتصيون ، هذه الوقائع جعلتنا نتعرف على خطة إسرائيل لفرض السيادة على القدس . لهذا نجد أن المعركة ضارية وشرسة جدًا في مدينة القدس ، حيث إن الحكومة الإسرائيلية ودولة إسرائيل بكل إمكاناتها اللامتناهية اتخذت القرارات ووضعت الوسائل والأدوات اللازمة من أجل تنفيذ أطماعها في القدس[٣٤].

١٥- وفي عام ١٩٨٠ أعلنت إسرائيل ضم القدس إدارياً وسياسياً بقرار من الكنيست الإسرائيلي وإعلان توحيدها وجعلها عاصمة لدولتهم تحدياً لاتفاقية جنيف وحقوق الإنسان والقرارات الدولية.والخطورة تبرز حين تؤكد إسرائيل إن القدس خارج إطار العملية السياسية الجارية حالياً ، مما يعني سلفاً أن يصبح ٢٤ في المائة من مساحة الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ جزءاً من إسرائيل[٣٥].

١٦- وفي عام ١٩٨٧ م استخدمت سلطات الاحتلال شتى الأساليب للضغط على السكان لإجبارهم على بيع منازلهم في البلدة القديمة أو مصادرتها كما فعل (ارئيل شارون) الذي سكن في منزل في شارع الواد في الحي الإسلامي بعد إجبار سكانه العرب على إخلائه بتاريخ ١٩٨٧/٢/١٥.

١٧- تنفذ وزارة الداخلية منذ شهر ديسمبر من عام ١٩٩٥م سياسة جديدة تقضي بأن أي فلسطيني من سكان القدس الشرقية لا ينجح في أن يثبت أمام وزارة الداخلية أنه يقيم في القدس في الوقت الحالي ، وكان يسكن بها في السابق بشكل متواصل يمكن أن يفقد وللأبد حقه في أن يعيش في المدينة التي ولد فيها. فيصبح مضطراً تبعاً لذلك إلى ترك بيته كما لا يعد في مقدوره الإقامة في القدس التي تخضع للسيطرة الإسرائيلية دون موافقات وتأشيرات خاصة ، كما لا تتاح له إمكانية العمل في الأراضي الفلسطينية التي تخضع للمحتل الإسرائيلي ، بما في ذلك القدس ، وتسلب منه كل حقوقه الاجتماعية التي يضمنها له سداده للضرائب المستحقة عليه ، مثل الانتفاع بخدمات التأمين الصحي وغير ذلك[٣٦].

١٨- قيام وزارة الداخلية الإسرائيلية بالعديد من الإجراءات التعسفية التي تطبقها ضد السكان الفلسطينيين في القدس لدفعهم إلى تركها مثل إلغاء حق المواطنة ، وعدم إصدار رقم قومي للأطفال الفلسطينيين في القدس ، وعدم تغيير تسجيل الحالة الاجتماعية في بطاقة الهوية ، ورفض طلبات جمع شمل الأسرة في القدس[٣٧].

١٩- العمل على تغيير ملامح التوزيع الديموغرافي حيث قفز عدد المستوطنين اليهود في القدس المحتلة عام ١٩٦٧ من لا شيء إلى أكثر من ١٦٠ ألف مستوطن حتى منتصف العام ١٩٩٦ ، والى ١٨٠ ألف مستوطن مع نهاية العام ٢٠٠١. وفي هذا السياق دأبت سلطات الاحتلال على إتباع الممارسات التهويدية كي تستطيع تحقيق سياستها تجاه القدس[٣٨] مع استقدام مستوطنين إسرائيليين متشددين لتوطينهم في القدس ، ويدخل هؤلاء المستوطنون سباقاً مع الزمن لاحتلال المزيد من أراضي المدينة وتهويدها والقضاء المبرم على هويتها العربية والإسلامية وشخصيتها الحضارية المتميزة[٣٩].

٢٠- الاستيلاء على جبل أبي غنيم وإقامة مستوطنة بدلاً منه[٤٠] ، وهذا الجبل أوقفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه للصحابي عياض بن غنم فسمى الجبل بأبي غنيم نسبة إليه ، ومازال يحمل هذا الاسم ، فهو وقف إسلامي ولا حق لليهود فيه.

جدول رقم (٣)

المخطط الهيكلي لمستوطنة سبعات شموئيل

جبل ابو غنيم (هارحوما)[٤١]

أوجه استعمال الأراضي	المساحة بالهكتارات	المساحة نسبة مئوية %
١. منطقة صناعية	٧١.٦	٣.٤
٢. منطقة حرجية	٣٥٦.٤	١٦.٧
٣. طرق	٢٧٧.٦	١٣.١
٤. أشجار على جوانب الطرق	١٠٣.٤	٣.٨
٥. مؤسسات عامة	٧٠.٦	٣.٣
٦. منطقة بناء	٧٩٧.٦	٣٧.٥
٧. حدائق	١٠٦.٠	٤.٩
٨. مباني عامة	٢٣٤.٢	١١.٠
٩. فنادق وقربة سياحية	٢٩	١.٤
١٠. منطقة تجارية خاصة	٥٦.٢	٢.٦
١١. منشآت هندسية	١٣.٧	٠.٦
١٢. موقع ديني مسيحي قائم	١٠.٥	٠.٥
المجموع	٢١٢٦.٨	١٠٠

٢١- وخلال فترة ١٩٦٧-١٩٩٥ ، تم بناء ٧٦.١٥١ وحدة سكنية ، منها ٦٤.٨٦٧ وحدة سكنية داخل حدود البلدية ، أقامتها الحكومة وباعتها للإسرائيليين ، وهو ما يعادل ٨٨% من مجموع الوحدات السكنية التي بنيت.

٢٢- وفي فترة ١٩٩٠-١٩٩٣ ، تم بناء ٩٠٧٠ وحدة سكنية في القدس ، منها ٤٦٣ وحدة سكنية للعرب بمبادرة خاصة ، وهي تشكل ٥.١% من مجمل عدد الوحدات السكنية للعرب وفي سنة ١٩٩٣ ، تم الانتهاء من بناء ٢٧٢٠ وحدة سكنية ، منها ١٠٣ وحدات سكنية للعرب ، تشكل ٣.٨% من مجموع عدد الوحدات السكنية التي بنيت في تلك السنة.

٢٣- وفي سنة ١٩٩١ ، شكلت المنطقة التي بنيت فيها وحدات سكنية للعرب ٨.٥% من مجمل المنطقة ، التي بنيت ضمن حدود بلدية القدس.

١٩٩٠	%٩.٣
١٩٩١	%٦.٣

وبمقابلة حجم البناء سنة ١٩٦٧ بحجمه سنة ١٩٩٥ في القدس الشرقية فقط ، نجد أن معظم المصادرات التي أعدت للتطوير والبناء في شرقي المدينة خصص للأحياء اليهودية الجديدة.وإن سلطات التخطيط الإسرائيلية- تتجاهل الضائقة السكنية الخطرة وسط السكان الفلسطينيين في المدينة ، وتتنصل من واجب الاهتمام بالسكن الملائم لهم.

٢٤- وفي عام ١٩٩٦ م أعلنت وزارة السكان الإسرائيلية بأنها ستبني (١٥١٢٠ وحدة سكنية) في القدس الشرقية ليعيش فيها (٧٦ ألف يهودي) وهذا سيزيد عدد السكان اليهود في القدس الشرقية إلى (٢٣٦ ألفا) بينما عدد العرب فيها يصل إلى (١٥٥ ألفا) وبالتالي فإن الأمور ستكون لصالح اليهود مع ملاحظة أن القدس الغربية بكاملها لليهود أصلاً.

٢٥- وفي سنة ١٩٩٧ م تم استصدار القرار رقم ١٦٠٤ بإقامة بلدية عليا تحول القدس إلى " قدس كبرى " بإطار متروبولي أعلى ، واتباع خطة تقوم على تطوير المدينة بتحريكها نحو الشرق من خلال الاستيلاء على أراضي فلسطينية في الضفة الغربية حتى غور الأردن . وترك المناطق بين القدس وتل أبيب كمناطق ترفيهية وفي البحوث التي نشرت من جانب معهد القدس لأبحاث إسرائيل ، فان أكثر من عشرين اقتراحا تم تقديمهم منذ سنوات طويلة تتعلق بمستقبل القدس[٤٢].

٢٦-نفذت إسرائيل مشروع " الحزام الشرقي " الذي كان يهدف إلى ربط شرق القدس بجنوبها ومن ثم ربط شوارع المدينة في منطقة الحزام ، والهدف من هذا المشروع تفريغ المناطق العربية التي تقع على هذه الشوارع ، ومن ثم جعلها نقاطًا مهمشة ، أما المهمة الثانية لهذا الحزام فهو أنه يوفر مصادرة مساحات من الأراضي التي يمر بها ، حيث يجعل إقامة أي مشروع على أراضي تلك المناطق محذورًا من واقع أن هذه المناطق تعتبر منطقة حرمًا لهذا الحزام[٤٣].

٢٧- أما المشروع الضخم الذي تنفذه إسرائيل الآن في مستوطنة رأس العامود ومنطقة وادي الكدرون الذي أطلقت عليه مشروع (خاتم سليمان) فتمثل بإقامة (٢٢ إلى ٢٥) فندقًا كبيرًا على ضفاف وادي الكدرون يبدأ من كنيسة الجسمانية حتى موقع باب داود غربًا ، وتشرف على هذا المشروع شركة تطوير القدس الشرقية[٤٤].

آليات التهويد

طمس الآثار العربية

وهو أسلوب شيطاني من أساليب التحريف والتزييف في المدينة وهو إزالة وطمس آثار القرى العربية واستخدام حجارتها في بناء المستوطنات اليهودية ، حيث لجأت الحركة الصهيونية وعصاباتها إلى تدمير كامل القرى المقدسية في حرب ٤٨ ، وكل من يسير في قرى القدس من المصرارة -باب العمود حتى المالحة ومستشفى هداسا يرى بشكل واضح أن الكثير من الأسوار إنما بنيت من حجارة القرى العربية حيث نجد ذلك في مساحات الجامعة العبرية ومستشفى هداسا ومنطقة محنيه يهودا والمالحة وغيرها وتتجنب بلدية القدس الصهيونية البناء بالأسمنت المسلح لأسباب جمالية ولكي يخيل للزائر أن هذا السور بني من قبل مئات السنين ولكي يعملوا على إعادة استخدام هذه الآثار في تركيب تاريخ يهودي مزور.

طمس وتهويد المعالم الدينية

وقد لجأ الصهاينة إلى أسلوب طمس المعالم الدينية وتهويدها ؛ بداية من إزالة وتهويد حي المغاربة في العاشر من حزيران ٦٧ وترحيل أهله ومسجد حي الشرف في ٦٧ ، وقد يعمدون إلى تحويل المسجد إلى كنيس يهودي كما في مسجد النبي داود حيث أقدمت السلطات الصهيونية على إحداث تغيير في معالم المسجد ، بجانب إزالتها للكتابات القرآنية والزخارف وسرقة التحف الفنية والأثرية التي كانت موجودة فيه . وهناك نمط آخر من أنماط التزوير والطمس وهي أن يعمد الاحتلال إلى تحويل جزء من المسجد إلى كنيس كما حدث في مسجد النبي صموئيل شمال غرب القدس وكما حدث ويحدث في مسجد خليل الرحمن بعد المجزرة . وقد تلجأ سلطات الاحتلال إلى إزالة المسجد أو المقام نهائياً كما حدث في قرية صريحة المدمرة غرب القدس.

الاعتداءات الإسرائيلية على المسجد الأقصى المبارك

تتعرض مدينة القدس بصفة عامة والمسجد الأقصى المبارك بصفة خاصة لاعتداءات يومية من قبل سلطات الاحتلال الإسرائيلي ، ومن أشهر هذه الاعتداءات السيطرة على حائط البراق وتحويله إلى ما يسمى بحائط المبكي. وعن جريمة إسرائيل في حق حائط البراق يقول المهندس رائف نجم مستشار مركز توثيق وصيانة آثار القدس: إن حائط البراق يشكل الجزء الجنوبي الغربي من جدار الحرم القدسي الشريف بطول نحو (٤٧ متراً)، وارتفاع نحو (١٧ متراً)، ولم يكن في وقت من الأوقات جزءا من الهيكل اليهودي المزعوم. وكما تقول الموسوعة اليهودية: «إن مصادر المدراش (شروق التوراة) بأن هذا الحائط لم يكن موقع عبادة عند اليهود حتى القرن السادس عشر الميلادي».

ويقر بذلك عالم الآثار الإسرائيلي " إسرائيل فلنكشتاين " من جامعة تل أبيب والمعروف " بأبي الآثار " حيث شكك في وجود أي صلة لليهود بالقدس ، جاء ذلك خلال تقرير نشرته مجلة " جيروزاليم ريبورت " الإسرائيلية [٤٥] - عدد شهر أغسطس سنة ٢٠٠٠م-. كما فجّر عالم الآثار الإسرائيلي «مائير بن دوف» قنبلة دوى صداها في المنطقة ، حيث كشف النقاب عن أنه لا توجد آثار لما يسمى بجبل الهيكل تحت المسجد الأقصى [٤٦].

أما الدكتورة «كاثلين كينون» مديرة مدرسة الآثار البريطانية في القدس وأستاذة علم الآثار في جامعة أكسفورد فتقول: " إن عملية الحفريات الإسرائيلية التي تجريها إسرائيل حول الحرم القدسي لهي أبشع حفريات لتدمير التاريخ القديم ، وان إتلاف البنية الإسلامية التي بنيت في القرون الوسطى جريمة كبرى ، ولا يُعقل أن يتم تشويه الآثار بمثل هذه الحفريات ". وكان التسامح الإسلامي هو الذي مكن لليهود من الصلاة أمام هذا الحائط ، وتكررت محاولات اليهود للاستيلاء عليه في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين إلى أن وقعت ثورة البراق في أغسطس ١٩٢٩ والتي قُتل فيها العشرات من العرب واليهود ، وأدت الأحداث إلى تشكيل لجنة دولية لتحديد حقوق العرب واليهود في حائط البراق ، وكانت هذه اللجنة برئاسة وزير خارجية سويدي سابق وعضوية سويسري وآخر هولندي ، ووضعت اللجنة تقريرها في عام ١٩٣٠. يقول التقرير: «إن للمسلمين وحدهم ملكية الحائط الغربي ، ولهم وحدهم الحق العيني فيه لكونه يؤلف جزءا لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التي هي من أملاك الوقف ، وللمسلمين أيضاً تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة ، لكونه موقوفاً حسب أحكام الشريعة الإسلامية».

إلا أن العدو الصهيوني استولى على حائط البراق ؛ ففي عام ١٩٦٧ وبعد وقت قليل من حدوث النكسة ، لفت ضابطٌ يُدعى "أبراهام شتيرن" انتباه "موشي ديان " إلى وجود مراحيض ملتصقة بحائط البراق ، فأعطاه إذناً بهدمها. ولأن قيادة العدو كانت تستعد لاستقبال مئات الآلاف من اليهود في عيد نزول التوراة عند ذلك الحائط ، ولأن المكان الضيق بينه و بين بيوت الحي المجاور لم يكن يتّسع إلاّ لِبضع المئات ، فقد تقرر في العاشر من يونيو هدم الحي بأكمله. خلال بضعة أيام ، أُزيح تماماً حَيٌّ أطلق عليه المقدسيُّون اسم "حارة المغاربة" لِمُدة ٧٧٤ عاماً [٤٧].

الحفريات الأثرية في القدس العربية

وقد تبنت الحكومة الإسرائيلية سياسة تهويد مدينة القدس عبر سلسلة من الإجراءات والاعتداءات ضد أهل المدينة وضد الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية على حد سواء ، حتى أنه لم تبق حارة أو زاوية في القدس إلا وتعرضت لهذه الحفريات وعندما توجد أي آثار إسلامية كانت تلقى الإهمال والضياع والتدمير ولا يتم توثيقها وابتدعت ذرائع مختلفة. وكان من أهم وأخطر تلك الانتهاكات والاعتداءات الشروع في تنفيذ مخططات الحفريات تحت أساسات البلدة القديمة والأماكن المقدسة. بحجة الكشف عن التاريخ اليهودي وهيكل سليمان. ولكن الهدف الحقيقي لهذه الحفريات هو تصديع بنايات الأماكن المقدسة والأماكن الدينية والتسبب في انهيارها وطمس معالمها وتهويدها . ونادرا ما توثق الحفريات الإسلامية وإذا وثقت تبقى بعيدة عن النشر والدراسة والتعميم على المؤسسات العلمية . ومن هذه الحفريات ما يلي [٤٨]:

أ. الحفريات التي سبقت الاحتلال عام ١٩٦٧: وقد بلغ عدد الحفريات في أنحاء فلسطين عشرين حفرية على الأقل ، وعندما كانت تكتشف أي طبقة من الآثار الإسلامية كانت تلقى الإهمال والضياع والتدمير .

ب. الحفريات الإسرائيلية في القدس بعد عام ١٩٦٧: بدأت في أواخر عام ١٩٦٧ وهي مستمرة إلى الآن دون توقف رغم قرار مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة واليونسكو التي طالبت إسرائيل بوقفها ، ومن هذه الحفريات:

حفريات جنوب المسجد الأقصى المبارك: وتمت سنة ١٩٦٨ على امتداد سبعين متراً أسفل الحائط الجنوبي للحرم القدسي أما ما اكتشف في هذه الحفريات آثاراً أموية ورومانية وأخرى بيزنطية.

وحفريات جنوب غرب الأقصى المبارك: تم هذا الجزء من الحفريات سنة ١٩٦٩ وعلى امتداد ٨٠م مبتدئاً من حيث انتهى الجزء الأول ويتجه شمالاً حتى وصل باب المغاربة ماراً تحت مجموعة من الأبنية الإسلامية التابعة للزاوية الفخرية وقد صدعتها الحفريات ومن ثم أزالتها السلطات الإسرائيلية بالجرافات بتاريخ ١٤/حزيران/١٩٦٩ وأجلي سكانها. وقد تم اكتشاف أساسات ثلاثة قصور أموية.

وحفريات جنوب شرق الأقصى: سنة ١٩٧٣ واستمرت حتى سنة ١٩٧٤ وامتدت على مسافة ٨٠م للشرق واخترقت الحائط الجنوبي للحرم القدسي ودخلت الأروقة السفلية للمسجد الأقصى . وقد وصلت أعماق الحفريات أكثر من ١٣م وأصبحت تعرض جزءا من جدار

الأقصى الجنوبي إلى خطر التصدع بسبب قدم البناء وتفريغ التراب الملاصق للجدار من الخارج بعمق كبير وضجيج الطائرات الحربية يومياً فوق المنطقة واختراقها لحاجز الصوت وهذا يؤثر على جميع المعالم الإسلامية والدينية والتاريخية. أما ما تم اكتشافه في هذه الحفريات فكان آثاراً إسلامية أموية ، وآثاراً رومانية وأخرى بيزنطية.

وحفريات النفق الغربي: سنة ١٩٧٠ وتوقف سنة ١٩٧٤ ثم استؤنف ثانية سنة ١٩٧٥ واستمرت حتى عام ١٩٨٨ رغم قرار اليونسكو. وفي عهد نتنياهو نجحوا بفتح باب ثان للنفق من جهة مدرسة الروضة على طريق الآلام بتاريخ ٢٤/أيلول/١٩٩٦.

وحفريات باب العمود: قامت دائرة الآثار الإسرائيلية سنة ١٩٧٥ بالحفريات تحت باب العمود من الخارج وكشف عن باب السور القديم الذي يقع حوالي خمسة أمتار تحت باب العمود ثم وصلت الباب الحالية مع الساحة الأمامية الخارجية بجسر مسلح من أجل المرور من وإلى البلدة القديمة وكل ما وجد من آثار وعقود إسلامية لا تمت بالهيكل بصلة.

وحفريات باب الأسود (باب الأسباط): في عام ١٩٨٢ بحجة وجود بركة إسرائيلية في ذلك الموقع ، وانتهت الحفريات في عام ١٩٨٦ دون العثور على أثر إسرائيلي.

وقد قام الإسرائيليون بفتح النفق عام ١٩٩٦م ، والذي يقع بمحاذاة الجدار الغربي تحت البنايات المملوكية ، كالمدرسة الجوهرية والعثمانية والتنكزية ، ثم يتجه إلى باب الغوانمة ثم باتجاه الشرق عبر طريق المجاهدين إلى المدرسة العمرية ، حيث حدثت حوادث مشهورة في ١٩٩٦/٩/٢٤م تسببت هذه الصدامات في استشهاد خمسة وثمانين شهيداً وقد عرفت بأحداث النفق.

وفي ٢٠٠٧/١/١٠ كُشف عن مخطط يُكمِّل خطوة هدم طريق باب المغاربة ، ويتمثل ببناء كنيس في حارة باب الواد غرب سوق القطّانين ، أحد أبواب المسجد الأقصى ، تحت اسم "خيمة اسحاق" ، وذلك في مكان مبنى حمّام العين ، الذي أنشأه الأمير تنكز الناصريّ خلال الفترة المملوكيّة سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م ، ليبتلع إلى جنوب المبنى أرضاً تُسمّى البيّارة أو الحاكورة تتبع دائرة الأوقاف الإسلاميّة [٤٩].

وهذه الحفريات تجري بهدف إضعاف البنية التحتية للأبنية والمساكن والمقدسات الإسلامية ، حيث أصيب الكثير منها بتصدعات خطيرة ، مثل المدرسة العثمانية ، والمدرسة المزهرية والمدرسة الجوهرية في باب الحديد ورباط الكرد ، والزاوية الرفاتية ، والمدرسة التنكزية في باب السلسلة ، هذا إضافة إلى مئات المنازل التي سقطت أرضياتها وتصدعت جدرانها وتمنع دولة الكيان أي ترميم فيها .

والجدير بالذكر أن اعتداءات الصهاينة لم تمس الأحياء وحدهم بل طالت الأموات في قبورهم أيضاً ؛ فهناك مقبرة باب الرحمة " الأسباط " حيث أتت حفريات الجرافات الصهيونية على مئات القبور وتبعثرت عظام الموتى بحجة التطوير والأعمار ، وكذلك ما حدث في مقبرة مأمن الله العريقة حيث سيطر اليهود على هذه المقبرة وتوقفت عملية دفن الموتى منذ ذلك الحين ، وتناقصت مساحتها التي لم يتبقى منها سوى ١٩ دونم بعد أن كانت ١٣٦ دونم ، وهي تستخدم اليوم كمقر رئيسي لوزارة التجارة والصناعة الصهيونية.

وخلال الفترة التي يُغطّيها تقرير إدارة الإعلام والمعلومات بمؤسسة القدس الدولية في الفترة من ٢٠٠٦/٨/٢١ إلى ٢٠٠٨/٨/٢١ رصد التقرير ما قامت به فرق الحفريّات التابعة لدولة الاحتلال والجمعيّات المتطرّفة حيث تنشط في ٧ مواقع من أصل ١٨ موقع حفريّاتٍ تُحيط بالمسجد الأقصى ، وقد توزّعت هذه الحفريّات الهادفة لإنشاء مدينةٍ يهوديّة تحت الأرض على مختلف جهات المسجد الأقصى لبناء "مدينة داوود" ، وأكبر هذه الحفريّات وأخطرها على الإطلاق هو الطريق الهيروديانيّ الذي يمتدّ لمسافةٍ تزيد على ٦٠٠ متر ويربط ساحة البراق بالمدخل الجنوبيّ لمدينة داوود [٥٠]. وقد أعلنت بعض صحف الاحتلال في ٢٠٠٨/٤/١٣ أنّ أحجار حائط البراق بدأت بالتفتّت ، خصوصًا تلك الحجارة الواقعة في أعلى السور ، أي أحجار مصلّى البراق ، الذي يقع في أقصى الطرف الغربيّ للمسجد الأقصى. ويُمهّد هذا الإعلان في غالب الظنّ لإغلاق مسجد البراق ، ومنع المصلّين من الوصول إليه ، تمهيداً لتحويله إلى كنيسٍ يهوديّ أو موقعٍ أثريّ متصلٍ بالمدينة اليهوديّة المفترضة [٥١].

سلطة تسمية الأماكن "الإسرائيلية

أمر ديفيد بن جوريون ضباطه وخبراءه بمحو كل الأسماء الفلسطينية سواء كانت عربية إسلامية أو مسيحية أو ما قبل ذلك من كنعانية ويبوسية وعمورية وغيرها ، واستبدالها بأسماء عبرية [٥٢] ، وبالتالي تعرضت أسماء المدن والقرى العربية لتزوير وتهويد المسميات بطريقة عملية ومنظمة ، وتتم عن طريق سلطة " تسمية الأماكن "الإسرائيلية " وأوجه التحريف الصهيوني للأسماء تعتمد على عدة طرق منها استبدال حرف بآخر إضافة أو حذفاً ، وترجمة الاسم إلى العبرية (العبرنة) مثل جبل الزيتون إلى هار هزيتم وجبل الرادار إلى هار دار و هناك أسلوب آخر وهو تحريف الاسم العربي ليلائم اسماً عبرياً مثل كسلا أصبحت كسلون والجيب جبعون وتغير أسماء الشوارع والطرق والساحات العامة باستبدالها بأخرى يهودية كجزء من خطة تهويد المدينة ، وإزالة المعالم والحضارة العربية منها مثل تل الشرفة سمي (جبعات هفتار) . وباب المغاربة (رحوب محسي) . وطريق الواد وسمي (رحوب هكامي) الخ. ولذلك لابد من استعادة التاريخ المدفون ، والجغرافيا المطموسة.

طمس الهوية والثقافة الوطنية وتهويد التعليم

وتمثل ذلك بإلغاء مناهج التعليم العربية في المدارس الحكومية بمراحلها الثلاث ، وتطبيق منهاج التعليم الإسرائيلي ، والاستيلاء على متحف الآثار الفلسطيني وحظر تداول الآلاف من الكتب الثقافية والعلمية العربية الإسلامية ومراقبة النشر والصحافة مراقبة صارمة. وبرامج التعليم الإسرائيلي تستبعد كل ما ينتمي إلى الروح القومية العربية والابتعاد عن الثقافة العربية ليسهل صهرهم في البوتقة الإسرائيلية .

جدار الفصل العنصري

منذ ١٦ يونيو/ حزيران ٢٠٠٢ بدأت إسرائيل في بناء جدار فاصل يقطع أراضي الضفة الغربية قطعا مضيفا معاناة أخرى إلى ما يعانيه سكان الضفة من قبل. ويأتي ذلك ضمن سياسة فرض الأمر الواقع والتي استطاعت من خلاله ابتلاع نصف مساحة الضفة الغربية تقريباً ، والاستيلاء على مقدرات الشعب الفلسطيني ، وتنفيذ مخططات غير علنية من أجل طرد الشعب الفلسطيني ، وجعله يتشرد في منافي الأرض ، إن طريق الآلام المقدسي طويل ومرير على أبنائها العرب





الفلسطينيين من كل دين ومن كل مشرب ، فالجدار العازل الذي أدانته محكمة لاهاي ، لن يتوقف أذاه على التهام ٥٨% من مساحة الضفة الفلسطينية ، لأنه سيعزل القسم الأكبر من سكان الضفة والقطاع ٣.٨ مليون فلسطيني ، عن أهلهم داخل ما يسمى بالخط الأخضر الإسرائيلي ، بل إنه يمنع - بقرار من الكنيست - التزاوج بين الفلسطينيين في المناطق المحتلة عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧. وكان نصيب القدس هو إقامة الجدار العازل حولها بعد إحاطتها بسياج من المستعمرات الاستيطانية بهدف خلخلة التوازن الديموغرافي لصالح الإسرائيليين[٥٣].

ويستولي الجدار في هذه المرحلة على ما مجموعه ١٠٧كم٢ من مساحة الضفة الغربية ويستولي على ٣١ بئراً ارتوازية ويعزل ١٦ قرية يسكنها حوالي ١٢٠٠٠ فلسطيني أصبحوا معزولين بين الجدار الفاصل والخط الأخضر[٥٤] هذه القرى هي كما يلي:

جدول رقم (٤)

المناطق الفلسطينية التي تم عزلها بين الجدار الفاصل والخط الأخضر في المرحلة الأولى لبناء الجدار (٥٥)

م.	البلدة أو القرية	عدد السكان
١-	باقة الشرقية	٣٧٠٠
٢-	برطعة الشرقية	٣٢٠٠
٣-	نزلة عيسى	٢٣٠٠
٤-	أم الريحان	٤٠٠
٥-	خربة جبارة	٣٠٠
٦-	رأس الطيرة	٣٠٠
٧-	عرب الرماضين الجنوبي	٢٠٠
٨-	عرب الرماضين الشمالي	٥٠
٩-	خربة الضبع	٢٠٠
١٠-	خربة الشيخ سعد	٢٠٠
١١-	خربة ظهر المالح	٢٠٠
١٢-	نزلة أبو نار	٢٠٠
١٣-	خربة عبدالله آل يونس	١٠٠
١٤-	عرب أبو فردة	٧٥
١٥-	وادي الرشا	١٠٠
١٦-	خربة منطار الغربية	٢٥
	الإجمالي	١١٥٥٠

جدول رقم (٥)

تطور وتقدم عملية الإنشاء في الجدار الفاصل حتى ٢٠٠٦/٤/٣٠

المرحلة	الطول بالكيلو متر	النسبة من طول الجدار
أكملت إقامته	٣٦٢	٥١
البناء في أوجه	٨٨	١٣
لم يتم إقامته ومخطط له	٢٠٣	٣٦
المجموع	٧٠٣	١٠٠

جدول رقم (٦)

المجتمع الفلسطيني المتأثر بالجدار (٥٦)

المكان	عدد القرى والبلدات	عدد السكان	% من سكان الضفة
جيوب غرب الجدار الأساس	٥٣	١١٥٥٠٠	٥
جيوب شرق الجدار الأساس (*)	٢٨	١٤٧٧٠٠	٦.٤
شرق القدس	٢٣( )	٢١٠٠٠٠	٩.١
القرى والبلدات المحاذية للجانب الشرقي للجدار	١٠٢	٤٠٢٤٠٠(***)	١٧.٥
المجموع	٢٠٦	٨٧٥٦٠٠	٣٨

والجدير بالذكر أن الجدار له نتائج مدمرة على العائلات المقدسية والقطاع الاقتصادي والتعليمي وأكد وجود الصليب الأحمر أن جدار الفصل العنصري يعزل القدس عن الضفة الغربية ويمنع الحركة الحرة للمواطنين المقيمين في المدينة وتجمعات الضفة الغربية.ووجدت اللجنة الدولية أن إسرائيل تبدي استخفافاً عاما بالتزاماتها طبقا للقانون الإنساني الدولي في ممارستها في القدس الشرقية.حيث يتبع الجدار منطقا جغرافيا حيث الكتل الاستيطانية المحيطة بالمدينة بينما يستثني المناطق الفلسطينية في المدينة وذلك بوجود جيوب فلسطينية معزولة[٥٧].

كلمة أخيرة

إن قضية القدس أصبحت الآن في خط الدفاع الأخير ، ربع الساعة الأخيرة ، فقد بقي بيد العرب ١٤ % والكتل الاستيطانية التهويدية تحتل ٣٢ % والباقي ٥٤ % تحت سقف وسيف الاستيطان الاستعماري الصهيوني.

إن عملية إنقاذ القدس يجب أن تتسارع أكثر فأكثر على كل الأصعدة ليس الفلسطيني فقط ، بل العربي والإسلامي والمسيحي والدولي . فقضية القدس تمس الملايين من أبناء المسلمين والمسيحيين في العالم كله ، والاحتلال الإسرائيلي لم يراع كل الصيحات وكل القرارات الدولية التي أعلنت بأن القدس أراضي محتلة يجب الجلاء عنها.

وبعد: لقد نجحت الصهيونية في الاستيلاء على الأرض حتى الآن ، وفصلت أهلها عنها وشتتهم في أنحاء الأرض فيما يمكن وصفه بالإبادة الجغرافية . لكنها لم تنجح في القضاء على الشعب الفلسطيني الذي بقي حياً ومتماسكاً وشامخاً فلم يحدث قط أن أذعن الشعب للغزاة[٥٨] ، ولم يندثر كما اندثرت أمم قبله في كوارث أقل جسامة. وما أختم به هو خلاصة – اتفق معها – تقول :

" إن الله خصّ الجمال بعشر حصص فنالت القدس تسعا منها، وخص الحزن بعشر حصص فنالت القدس تسعا منها"[٥٩].

الحواشي

(١) يبوس : نسبة إلى اليبوسيين الذين يعتبرون أول من بنى القدس ، وهم بطن من بطون العرب الأوائل نشئوا في جنوب شبه الجزيرة العربية ثم رحلوا إلى الشمال مع القبائل الكنعانية واستوطنوا في هذه المنطقة ، وكان ملكهم: "ملكي صادق" قد اختط المدينة وبناها ، راجع ، عارف العارف : تاريخ القدس ، دار المعارف ، 1951م ، ص ١١ – ١٢ ، ظفر الإسلام خان ، تاريخ فلسطين القديم ، بيروت ، دار النفائس ، ١٩٧٣.

(٢) للمزيد في هذه المسألة راجع ، جمال حمدان : اليهود ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) ، ١٩٩٨ م ، هنري كتن : القدس الشريف ، ترجمة ، نور الدين كتانة ، مكتبة الأقصى ، الأردن ، ١٩٨٩ م ، أحمد سوسة : العرب واليهود في التاريخ ، ط ٧ ، العربي للإعلان والنشر ، دمشق ، ١٩٩٣ م ، ظفر الإسلام خان ، تاريخ فلسطين القديم ، بيروت ، دار النفائس ، ١٩٧٣ ، كارنيف :اليهودية والصهيونية في نظر شعوب العالم- رؤية إعلامية- ترجمة وتقديم د. محمد علي حوات ، دار الآفاق العربية- القاهرة- الطبعة الأولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠١ م ، J.Gray, The Legacy Of Canaan . Leiden,1957.

(٣) ألفريد جيوم : أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن ، وله شهرة في العالم الإسلامي ذائعة مستفيضة. وقد كان هو المشرف على تحرير كتاب " تراث الإسلام " الذي ترجم إلى عدة لغات والمقولة من كتابة كتابه "الإسلام "

(٤) راجع ، سفر التكوين ١٨:١٥ لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ ، نَهْرِ الْفُرَاتِ.

(٥) راجع ، العصور القديمة ، ترجمة داود قربان ، دار عز الدين ، بيروت ، ص٢٢٢.

(٦) سفر التكوين : ٣٧ : ١ .

(٧) سفر التكوين : ٢١ :٣٤.

(٨) سفر التكوين : ٢٣ :٤.

(٩) سفر القضاة : ١: ٨ – ٩.

(١٠)Josephus , The Jewish War , Penguin , 1969 , p. 360 .

(١١) محمود سعيد عمران : القدس والمسجد الأقصى في كتابات الرحالة الأجانب ، بحث خاص بالمؤتمر الدولي الثامن حول تاريخ بلاد الشام – جامعة دمشق بالتعاون مع الجامعة الأردنية ٢٢ – ٢٦ / ٢ / ٢٠٠٩.

(١٢) راجع ، جوستاف لوبون : اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، ترجمة عادل زعيتر ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص٢٣ ، وكذلك حضارة العرب ، ترجمة ، تحقيق: عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ م ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٩٠.

(١٣) والمقالة منسوبة للمؤرخ الاسكتلندي الشهير جيمس فريزر James Frazer راجع ، مصطفى مراد الدباغ : بلادنا فلسطين ، القسم الأول ، بيروت ، ١٩٧٢م .

(١٤)Kegan Paul -New yorK,1927, p.5 Arabia Before Muhammad

(١٥)Kenyon, Archaeology in the Holy Land, P.117,317. وظفر الإسلام خان ، تاريخ فلسطين القديم ، بيروت ، دار النفائس ، ١٩٧٣ ، ص١٥.

(١٦) كارنيف : اليهودية والصهيونية في نظر شعوب العالم- رؤية إعلامية- ترجمة وتقديم د. محمد علي حوات ، دار الآفاق العربية- القاهرة- الطبعة الأولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠١ م ، ص ١٠.

(١٧)cired in O. Killy Ingram, Jerusalem, Triangle Friends of the Middle East , Durham NC . 1978, P.26.

(١٨) ولد تيودور هرتزل سنة ١٨٦٠ في مدينة بودابست بهنغاريا ، لكنه نزح إلى فيينا عاصمة النمسا ١٨٧٨. وتعلم تعليماً حديثاً حيث حصل على دكتوراة في القانون الروماني سنة ١٨٨٤ ، وعمل بالمحاماة لمدة عام ، لكنه فضل أن يكرس حياته للصهيونية. وتم انتخابه رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية ، وكلمة ثيودور تعني هبة الله ، انظر: ستيوارت ، ديزموند: تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية ، ص٨.

(١٩) راجع ، إسرائيل ذلك الدولار الزائف ، تعريب الديراوي أبو حجلة ، دار الملايين ، بيروت ، ط ١ ١٩٦٥م ، ص٤٤٣.

(٢٠) راجع ، الموسوعة الفلسطينية ، القسم الثاني ، المجلد الخامس ، بيروت ، ١٩٩٠ ، ص ٦ .

(٢١) هنري كتن : القدس الشريف ، مرجع سابق ، ص ١٣٩ - ١٥٩ .

(٢٢) جمال حمدان : اليهود ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) ، ١٩٩٨ م ، ص ٥٦.

(٢٣) هنري كتن : القدس الشريف ، مرجع سابق ، ص ١٣٩ – ١٦٠.

(٢٤) للمزيد راجع ، كارين أرمسترونج : القدس مدينة واحدة .. عقائد ثلاث ، ترجمة ، فاطمة نصر ، محمد عناني ، سطور ، القاهرة ١٩٩٨ ، ص ٧٩ - ١٠٧ .

(٢٥) للمزيد راجع ، فيليب حتّي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٨٨ ، شريف : مدخل لدراسة مطامع اليهود في فلسطين قديماً وحديثاً ، ص ٢٧ ، Busse, Jerusalemer Heiligtumstraditionen. P.69 .

(٢٦) المحاذي للحائط الغربي.

(٢٧) القدس : الوحدة الإسرائيلية للاستيلاء على الأراضي – الشرق الأوسط ١٩٩٨/٤/١٠.

(٢٨) صلاح الصوباني : الأوضاع الديموغرافية في مدينة القدس تحت الاحتلال الإسرائيلي ، مجلة صامد الاقتصادي العدد ٨٥ تموز - أيلول ١٩٩١ ، ص ١٥٦.

(٢٩) خليل التفكجي : الدستور الأردنية ١٩٩٥/٨/٨.

(٣٠) للمزيد راجع ، هنري كتن : القدس الشريف ، مرجع سابق ، ص ١٣٩ - ١٥٤ .

(٣١) خليل التفكجي : الاستيطان في مدينة القدس الأهداف والنتائج ، خالد عايد. الاستيطان في جبل أبو غنيم وما يتجاوز ، مجلة الدراسات الفلسطينية ، صيف ١٩٩٧ عدد ٣١ صفحة ١١٩.

(٣٢) القدس : الوحدة الإسرائيلية للاستيلاء على الأراضي ، الشرق الأوسط ، بتاريخ ١٩٩٨/٤/١٠ .

(٣٣) راجع ، إبراهيم الفني : جدران وأنفاق واستيطان ...إسرائيل تعزل القدس ، مجلة العربي ، عدد ٥٦٣ ، أكتوبر ، ٢٠٠٥ م .

(٣٤) نفسه .

(٣٥) خليل التفكجي : صحيفة الدستور الأردنية ١٩٩٥/٨/٨ ، " السفير " البيروتية ١٩٩٦/١١/١.



(٣٦) راجع ، محمد أحمد صالح : السياسة الصهيونية لتغيير التركيبة الديموغرافية قبل أن تضيع ، مجلة العربي ، عدد ٥٠٥ ، ديسمبر ، ٢٠٠٠ م .
(٣٧) نفسه .
(٣٨) رزق شقير : القدس ، الوضع القانوني والتسوية الدائمة ، صحيفة القدس المقدسية ، ١٩٩٦/١٠/٩ .
(٣٩) راجع ، محمد أحمد صالح : السياسة الصهيونية لتغيير التركيبة الديموغرافية قبل أن تضيع ، مجلة العربي ، عدد ٥٠٥ ، ديسمبر ، ٢٠٠٠ م .
(٤٠) راجع ، جبل أبوغنيم والواقع الديموغرافي ، صحيفة النهار البيروتية ، بتاريخ ١٩٩٧/٣/١١ .
(٤١) المصدر:
أنظر في الإنترنت: http: // www,arij. org/ paleye / abughnam
(٤٢) نشرت هذه البدائل مع التصورات الإسرائيلية على صفحات بعض الصحف العبرية مثل : هآرتس ، ويديعوت أحرونوت . تاريخ ١٩٩٦/٥/٢٣.
(٤٣) راجع ، إبراهيم الفني : مرجع سابق .
(٤٤) نفسه .
(٤٥) راجع الخبر أيضاً في ، صحيفة القدس ، العدد ١٢١٩ ، الاثنين ٢٠٠٠/١١/١٣م ، ص٦ .
(٤٦) راجع ، سليمان إبراهيم العسكري : مرارات ابتلاع القدس ، مجلة العربي ، عدد ٥٨٢ ، مايو ، ٢٠٠٧ م ، ص ١٠.
(٤٧) محمد الخطيب الكسواني وعمران الرشق ، " القدس .. تاريخ من الألم النبيل " - مجلة العربي ، عدد ٥١٨ ، يناير ٢٠٠٢.
(٤٨) للمزيد راجع ، رائف يوسف نجم : الحفريات الأثرية في القدس ، المركز الفلسطيني للإعلام ، palestine-info.info/arabic/alquds/mukhtarat/alhafriat.htm .
والتقرير التوثيقي الاستقرائي الذي يرصد الاعتداءات على المسجد الأقصى في الفترة بين ٢٠٠٦/٨/٢١ إلى ٢٠٠٨/٨/٢١ ، إدارة الإعلام والمعلومات بمؤسسة القدس الدولية ، الإشراف والمراجعة الأكاديمية ، زياد الحسن ، هشام يعقوب ، إعداد المادة العلمية والخرائط ، عبد الله الحسن .
(٤٩) للمزيد راجع ، التقرير التوثيقي لإدارة الإعلام والمعلومات بمؤسسة القدس الدولية ، في الفترة بين ٢٠٠٦/٨/٢١ إلى ٢٠٠٨/٨/٢١ ، الإشراف والمراجعة الأكاديمية ، زياد الحسن ، هشام يعقوب ، إعداد المادة العلمية والخرائط ، عبد الله الحسن .
(٥٠) للمزيد راجع ، التقرير التوثيقي ، مرجع سابق .
(٥١) نفسه.
(٥٢) راجع ، سلمان أبو ستة: استعادة جغرافية فلسطين المغّيبة ، مجلة العربي ، عدد ٥٨٢ ، مايو ، ٢٠٠٧ م ، ص ٣٢ .
(٥٣) راجع ، سليمان إبراهيم العسكري : مرارات ابتلاع القدس ، مرجع سابق ، ص ١٢.
(٥٤) المصدر نفسه.
(٥٥) شبكة المنظمات البيئية الفلسطينية (PENGON)، أوقفوا جدار الفصل العنصري في فلسطين ، حقائق ، شهادات ، تحليل ، ودعوة للعمل ، القدس ، ٢٠٠٣ ، ص ٣٢، ٣٣.
(٥٦) مركز المعلومات الوطني الفلسطيني ، الموقع الإلكتروني.
(٥٧) نقلاً عن موقع القدس نت http://www.qudsnet.com/arabic/news.php?maa=View&id=٤٩٣١٥
(٥٨) هنري كتن : فلسطين في ضوء الحق والعدل ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٣ .
(٥٩) راجع ، إبراهيم الفني : جدران وأنفاق ، مرجع سابق .

الأستاذ أنور محمود زناتي في سطور:

- كاتب وباحث مصري من مواليد القاهرة ١٩٧١.
- حاصل علي جائزة الأستاذ الدكتور عبد الحميد العبادي من الجمعية التاريخية.
- حاصل على جائزة النور للإبداع من مركز النور للإعلام ٢٠٠٨ م .
- تكريم من الدولة في عيد العلم أعوام ١٩٩٦-٢٠٠٤-٢٠٠٥.
- مقرر سمينار التاريخ الإسلامي والوسيط بكلية التربية – جامعة عين شمس.
- مشرف تنفيذي لمشروع تطوير قدرات أعضاء هيئة التدريس بجامعة عين شمس.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وعضو رابطة الكاتب العربي ، وعضو اتحاد المدونين العرب.

من مؤلفاته:

- كتاب زيارة جديدة للاستشراق ، مكتبة الأنجلو المصرية .
- كتاب الطريق إلى صدام الحضارات ، مكتبة الأنجلو المصرية .
- كتاب علم التاريخ واتجاهات تفسيره ، مكتبة الأنجلو المصرية.
- قاموس المصطلحات التاريخية (انكليزي – عربي) مكتبة الأنجلو المصرية .
- موسوعة من خزانة التراث الإسلامي.
- تحقيق مخطوط " خريدة العجائب وفريدة الغرائب " لابن الوردي ، مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠٧ م.
- تحقيق مخطوط تاريخ الأندلس لإبراهيم ابن أمير المؤمنين ٢٠٠٧ م.

البريد في العصر النبوي





أشرف محمد مجاهد
كاتب وباحث في تاريخ البريد
صاحب مدونة حوارات بريدية
مملكة البحرين
ashraf_mojahed63@yahoo.com

فسر الأمام الرازي في مختار الصحاح معني البريد فقال "البريد الشيء المرتب أو الثابت ، يقال حمل فلان على البريد" ، وذكر في القاموس المحيط بأنه الشيء المرتب أو الرسول ، وأطلق كذلك على المسافة بين سكنتين وهي أربعة فراسخ أو أثني عشر ميلاً ، وأضاف العلامة الكتاني بالتراتيب الإدارية بأن العرب أطلقوه على المسافة التي بين محطة وأخري من محطات البريد ، ثم أطلق على حامل الرسائل ، وتوسعوا فيه الآن فأطلقوه على أكياس البريد.

وقد ذكر المقريزي في الخطط أن كلمة بريد أصلها فارسي من "بريد ذنب" لأن الملك "دارا" هو أول من ابتكر نظاماً للبريد ، وأقام له دواباً محذوفة الأذناب والذيول لتميزها عن غيرها من الدواب الأخرى ، ثم عربت وحذف العرب نصفها الأخير واقتصرت على كلمة "بريد" .. ومنها قول امرئ القيس:

على كل مقصوص الذنابي معاود .. بريد السري بالليل من خيل بربرا

وقد كان البريد معروفاً عند العرب في الجاهلية ، حيث استعملوا الخيل والبغال في نقل بريدهم ، فيورد آدم ميتز في كتابه تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري مانصه "إن الروم كانوا يستعملون الخيل والبغال في حمل البريد ، وكذلك كان الحال عند ملوك العرب في الجاهلية" وكان يستخدم في العادة لنقل بريد الدولة والتجسس على أعمال الولاة ونقل الأخبار للملوك والأمراء.

وعلى الرغم من أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من أنشأ الدواوين ومنها ديوان البريد ، وأقام لها دوراً بمختلف الولايات ، كدار البريد بالكوفة التي ورد ذكرها بصحيح الأمام البخاري بأن أبا موسي الأشعري أمير الكوفة صلي بتلك الدار ، وكان أبو موسي أميرا على الكوفة في زمن عمر وعثمان. إلا أن كتب السنة والسيرة تخبرنا كذلك باهتمام النبي صلي الله عليه وسلم بأمور البريد واختيار مسؤوليه وكتابه ووسائل نقله آخذاً بالصفات الشخصية والخلقية لهذه المهمة ، حيث اختار عبد الله بن أبي بكر لهذه المهمة وآخرين ، ذلك أن مهمة البريد كانت آنذاك تعني حمل لرسالة الإسلام للشعوب ونقل الأخبار إلى مركز الدعوة في المدينة.

رسائل الرسول صلي الله عليه وسلم للملوك والأمراء العرب

من أشهر البُرُد في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تلكم الرسائل التي بعث بها إلى الأباطرة والأكاسرة والملوك ، الذين كانوا يعتلون عروش الحكم في الدول المحيطة بالجزيرة ، داعياً إياهم للدخول في دين الله الحنيف ، كما لا يمكن إغفال الرسائل والرسل التي بعث بها صلى الله عليه وسلم إلى القبائل في الجزيرة العربية حاثاً إياها على اعتناق الإسلام ، إذاً يمكن القول بأن عهد الرسول الأمين شهد استخدام البريد الداخلي والبريد الخارجي ، فقد ذكر في صحيح البخاري ، أن النبي صلي الله عليه وسلم كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام ، وبعث بكتاب إليه مع دحية بن خليفة الكلبي ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصري ليدفعه إلى هرقل قيصر الروم ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسري ملك فارس ، وكذلك نجد في سيرة ابن هشام أنه بعث عمرو بن أمية الصمري إلى نجاشي الحبشة ، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية ، وعمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعياذ ابني الجلندي ملكي عمان ، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الشام ، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين (تخريج الدلالات السمعية للأمام التلمساني ، ص ١٨٤).

▪ الاستشهاد المرجعي بالمقال:
أشرف محمد مجاهد ، التاريخ البريدي في العصر النبوي.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس ؛ سبتمبر ٢٠٠٩.
ص ٤٠ - ٤١ .(www.historicalkan.co.nr)



كما ذكر البخاري والترمذي ، أنه لما أراد النبي صلي الله عليه وسلم أن يكتب إلى الروم ، فقيل له: إنهم لن يقدروا كتابك إذا لم يكن مختوماً ، فاتخذ خاتماً من فضه ونقشه "محمد رسول الله" ، وكان لا يستغني عن الختم به على رسائله إلى البلدان وأجوبة العمال وقواد السرايا ، فكان بذلك أول من استخدم ختم الكتاب من قريش وأهل الحجاز (التراتيب الإدارية للأمام الكتاني ، ص ١٧٧).



الاختيار الدقيق للقائمين على البريد والحرص على سلامتهم

فقد كان من صفات رسله صلي الله عليه وسلم أن يكونوا ممن تتوفر فيهم وفور العقل وطلاقة اللسان وقوة الحجة والبيان ، ويدعو لحسن اختيار رجل البريد ، فقد ورد في فيض القدير شرح الجامع الصغير أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال "إذا أبردتم إلي بريداً فاجعلوه حسن الوجه ، حسن الاسم" أي إذا أرسلتم إليّ رسولاً فتخيروا الحسن الشكل والخلق وكذلك الاسم لكي تنجذب إليه القلوب ، ونتفائل بحسن صورته واسمه ، حيث كان صلي الله عليه وسلم يشتد عليه الاسم القبيح ويكرهه.

وفي سنن أبي داود نجد قوله صلي الله عليه وسلم "إنّي لا أخِيسُ بالعَهد ولا أحْبسُ البُرْد" فالبرد جمع بريد وهو الرسول ، أي أنه لا يحبس الرسل الواردين إليه للدلالة على تقدير القائمين على تلك المهنة ، وما يتمتعون به من حصانة تمكنهم من تبليغ رسائلهم.

الاستفادة من المسافات البريدية لمعرفة بعض الأحكام الفقهية

حيث استخدمت المسافة البريدية في الاستدلال على كثير من الأحكام الفقهية ، ففي صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله صلي الله عليه وسلم "لا تسافر امرأة بريداً إلا ومعها ذو محرم" وقوله صلي الله عليه وسلم "لا تقصر الصلاة في أقل من أربعة برد" حيث استدل بمسافة البريد المحددة بأربعة فراسخ أو أثني عشر ميلاً على النهي عن سفر المرأة دون محرم ، وعلى مشروعية القصر في الصلاة للمسافر.

وروي أبو داود في سننه حديث عدي ابن زيد قال "حمي رسول الله صلي الله عليه وسلم كل ناحية من المدينة بريداً بريداً ، لا يخبط شجره ولا يعضد إلا ما يساق به الجمل" أي حدد حرم المدينة من صيد واعتداء وخلافه.

وقد عثر مؤخراً بالمملكة العربية السعودية على عدد من الأحجار الميلية المنقوش عليها المسافة بقياس البريد ، حيث تشير هذه الأحجار للمسافة البريدية التي توضع على رأس كل محطة بريد وتقسم المسافة بين أول وآخر محطة بأثني عشر ميلاً ، والتي استفاد منها الحجاج وغيرهم من المسافرين عبر مئات السنين.

كل هذه الشواهد تدل على أن البريد وأن كان لم يستخدم بما هو معروف لدينا الآن ، إلا أن الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم ، قد عرفه واستخدمه في ألفاظه ومراسلاته لدعوة الملوك وأمراء الجزيرة العربية ، واستخدم عماله وكتابه ووسائل نقله ، وأهتم بحسن اختيار القائمين عليه وتأمين حياتهم وتقدير دورهم.

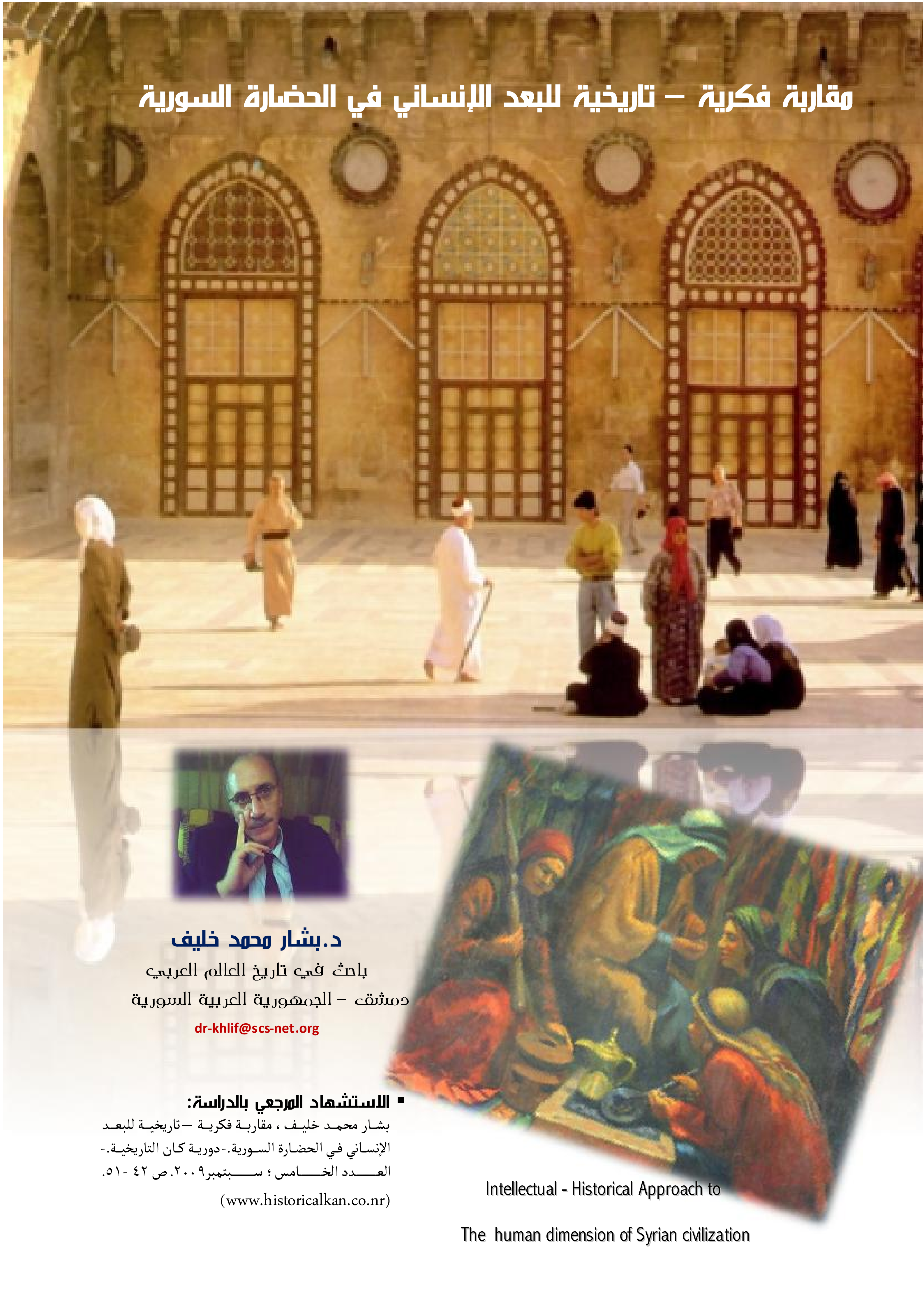
المراجع:

- مختار الصحاح للأمام أبو بكر الرازي
- كتاب التراتيب الإدارية للعلامة الكتاني
- كتاب الخطط للعلامة المقريزي
- كتابة تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز
- فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني
- تخريج الدلالات السمعية للأمام التلسماني
- فيض القدير شرح الجامع الصغير للأمام السيوطي
- كتاب السنن لأبي داود السجستاني
- كتاب الصحيح للحافظ ابن خزيمة



الأستاذ أشرف محمد مجاهد في سطور:

- كاتب وباحث مصري مقيم بدولة البحرين.
- حاصل على بكالوريوس تجارة خارجية (١٩٨٥).
- صاحب مدونة حوارات بريدية.
- له عدد من المقالات في تاريخ البريد منها: (الطوابع السياسية – التاريخ البريدي – البريد في العصر النبوي – الحمام الزاجل رسول الحرب والسلام – تاريخ البريد الجوي المصري – أدب الرسائل البريدية -)



مقاربة فكرية – تاريخية للبعد الإنساني في الحضارة السورية

د.بشار محمد خليف

باحث في تاريخ العالم العربي

دمشق – الجمهورية العربية السورية

dr-khlif@scs-net.org

▪ **الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

بشار محمد خليف ، مقاربة فكرية –تاريخية للبعد الإنساني في الحضارة السورية.-دورية كان التاريخية.-العدد الخامس ؛ سبتمبر٢٠٠٩. ص ٤٢ -٥١.

(www.historicalkan.co.nr)

Intellectual - Historical Approach to

The human dimension of Syrian civilization



«في المشرق القديم أرسيت الأسس التي حددت إلى أمد بعيد المسيرة اللاحقة للتاريخ الإنساني».
كلوتشكوف ـ بونغارد ـ ليفين»[1]

يعنينا في مقاربتنا للبعد الإنساني في حضارة المشرق العربي القديم أن نؤسس لعدة ركائز سوف تشكّل العمود الفقري لبحثنا:

أولها: أن هذه المقاربة لا تعني بحال من الأحوال أن المجتمعات الإنسانية الأخرى لم تكن ذات بعد إنساني، ولكن في تقديرنا أنّ هذا البعد يتسع كما ينغلق تبعاً للخصائص الذاتية والشخصية لمطلق مجتمع، والذي يبدو أن الخصائص المجتمعية تلعب دوراً أساسياً في هذا المجال بالإضافة إلى الظروف الجغرافية والبيئية والموضوعية. وما يعنينا في هذا المجال من بحثنا هو رصد مجمل المنجزات الحضارية للمشرق العربي القديم والتي ساهمت في التطور اللاحق للمجتمعات الإنسانية، ما شكّل نقاط انعطاف حاسمة في مجرى الوجود الإنساني وبالتالي تطوره وما انعكس على تطور الحياة الإنسانية إلى يومنا هذا.

ثانيها: تختلف وسيلة نقل المنجز الحضاري بين المجتمعات، فبين مثلاً أن يأتي أفلوطين إلى مصر والمشرق العربي ويستفيد من أفكار مينوس الأفامي ومن ثم يؤسس مذهبه في الأفلاطونية الحديثة كمنجز فكري في زمن ما، وبين أن يتم اختراع الكتابة مع نهاية الألف الرابع قبل الميلاد في الشرق العربي ثم يبلورها المشرق أيضاً في الأبجدية الكنعانية ومن ثم ينقلها المشرقيون بأنفسهم إلى عالم المتوسط لتصبح كتابة العالم آنذاك بعد تكييف كل مجتمع لها بحسب خصائصه الذاتية الذهنية منها والألسنية وما إلى هنالك. فبين هذا وذاك تتسع الرؤية لتكشف عن حس إنساني عال تبدى لدى مجتمع المشرق العربي القديم بكافة تنوعاته، فلم يكن يتم الاكتفاء بابتكار المنجز، لا بل والسعي لنقله للمجتمعات الأخرى ويشمل هذا مجمل المنجزات الحضارية إن لم يكن كلها.

ثالثها: يتأثر المنجز الحضاري الإنساني بالجغرافيا التاريخية إلى حدّ كبير، وتأسيساً على ذلك فالمنجز الحضاري المشرقي كان يمتلك مجاله الحيوي الممتد من إيران والأناضول وحتى عالم المتوسط وشمال أفريقيا والجزيرة العربية. وعبر انتقال هذا المنجز الإنساني إلى المجتمعات الأخرى، نصبح أمام اكتمال في شرطه الحضاري والوجودي، ولعل هذا الأمر يشكّل خصيصة أساسية من خصائص الحضارة السورية.

رابعها: ثمة اختلاف بين الباحثين في تحديد أسباب أن يكون مجتمع ما ذا خصائص إنسانية ورسولية وإبداعية، في حين أن بعض المجتمعات تكتفي بنفسها ولنفسها. وقد أعاد ابن خلدون هذه المسألة إلى عامل «الهواء»، أي المناخ والبيئة الطبيعية، ويبدو أنه انزلق في طرحه إلى بوادر عرقية من أن ثمة أجناساً متخصصة بالتحضر والتقدم، عنى بذلك سكان الأقاليم المعتدلة، في حين أن هناك أجناساً لا تقدم شيئاً، وبمعنىً آخر فهو ربط بين الخصائص الخلقية (بفتح الخاء) وبين الخصائص الخلقية (بضم الخاء).[2]

ولا نعتقد أن هذا الطرح تؤيده معطيات الاناسة والأثنولوجيا. وباعتقادنا أنه وإن كان للبيئة الطبيعية دورها بما تقدّمه من إمكانات، غير أن للبيئة الاجتماعية المتفاعلة بحدّ ذاتها والمنفتحة على البيئات الاجتماعية الأخرى، الدور الأساسي في ذلك وسوف يؤدي تفاعلها مع البيئة الطبيعية والمجال الحيوي الطبيعي إلى جملة من المنجزات والاختراعات الإنسانية الكبرى.

ويتضح التفاعل عبر التمازج البشري والغنى المختلف والمتنوع والذي يؤدي باطراد إلى تبلور خصائص مجتمعية متقاربة تشكّل شخصية الجماعة أو المجتمع المنفتح على التجارب والخبرات الإنسانية الأخرى. ويتضح هذا في البنية الديمغرافية للمشرق العربي عبر التاريخ وصولاً إلى العصر الحديث، ولعل ما حصل مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، شاهد على ذلك، فقد هاجر مسلمو البلقان وكريت إلى دمشق بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية وأقاموا على سفح جبل قاسيون وسمّي حيّهم بحي المهاجرين، والآن بعد مضي حوالي القرن انصهر هؤلاء في النسيج الاجتماعي الواحد ولم يبق من ذكراهم سوى اسم الحي.

هذا مثال حديث لما كان يحدث عبر مسار التاريخ المشرقي، سواء في تفاعل العموريين مع السومريين أو التفاعل الآشوري ـ الآرامي أوفي التفاعلات العمورية ـ الكنعانية ـ الآرامية ـ العربية في تدمر على سبيل المثال. ولعل هذا الأمر أوحى للمستشرقين بوجود صراعات أثنية أو عرقية بين سكان المشرق العربي القديم، لكن العالم الروسي بونغارد ـ ليفين أوضح ما نريد قوله حيث ورد في كتاب «الجديد حول الشرق القديم»: أن الشرق القديم لم يعرف الموقف العدائي من عادات وتقاليد وثقافات الشعوب المجاورة والبعيدة، ولم يعرف كذلك الخلافات والصراعات القائمة على أساس أثني أو الحقد العرقي والشعور بالتفوق على الشعوب الأخرى[3].

وطبعاً فنحن نذكر ذلك لأننا نرى أنه كي يكون لمجتمع ما بعد إنساني فلابد له أن يمتلك في شخصيته خصائص العدالة والتسامح والانفتاح وقيم الخير والحق والتي هي قيم إنسانية بالمطلق ومجتمعية في آن. بناءً على كل هذا فلابد أن نؤكد على فلسفة التفاعل الاجتماعي والتي هي الضامن للتفاعل الإنساني المنفتح للحياة والكون.

خامسها: لن نقف في بحثنا أمام الإبداعات والمنجزات الحضارية المشرقية التي شكلت بعداً إنسانياً في عصر ما، ولم تستمر إلى العصور الحديثة. بمعنى آخر أن اختراع الكتابة في المشرق العربي القديم هو اختراع حيّ حتى الآن وكذلك ابتكار الأبجدية السورية. وما الوصول إلى المعلوماتية وعصر الاتصالات إلاّ إعادة لاختراع الكتابة وابتكار الأبجدية بزمن آخر ووسيلة أخرى أكثر تطوراً.

في حين أنّ انتشار عبادة إله الشمس الحمصي في العصر الروماني في أصقاع الإمبراطورية الرومانية يعتبر بعداً إنسانياً ابن عصره، ولم يؤد إلى استمرارية استفادت منها الحضارة الإنسانية، ويمكن النظر أيضا، إلى الفلسفة الرواقية ببعدها الإنساني، فصحيح أنها كانت ابنة عصرها ولكن في بعدها الأعمق شكلت الأرضية الفلسفية والفكرية للمسيحية وهذا ما جعلها ذات بعد إنساني أ رحب.

سادسها: لعل تاريخ المشرق العربي كما يدرسه المستشرقون يفهم منه أنه عبارة عن قبائل ومدن مختلفة ومتناحرة ومفككة.. غير أن واقع الأمر هو أن ثمة كتلتان أساسيتان شكلتا تاريخ المشرق العربي القديم هما: السومريون والعموريون ـ الأكاديون.

السومريون: طالما وجدوا على أرض المشرق وتفاعلوا معها ومع البيئة الاجتماعية أصبحوا مشرقيين بغض النظر عما يطرحه بعض الباحثين من الناحية اللغوية أو الأثنية.

العموريون: منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد بدأوا بالتنقل في أجزاء المشرق القديم حيث انطلقوا من منطقة جبل بشري في بادية الشام باتجاه الجناح الشرقي للمشرق العربي القديم وأسسوا مدناً وممالك وكان أهم حكامهم صارغون الأموري «الأكادي» ٢٣٥٠ ق. م الذي سعى لاحتواء الوعي المديني إلى وعي أعمّ عبر تأسيسه لإمبراطورية وصلت حتى البحر المتوسط وكذلك حمورابي وشمشي أدد ونارام سين.

ومع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد صار بإمكاننا النظر إلى المشرق العربي كوحدة اجتماعية متجانسة أساسها العموريين ومن تفاعل مع فاعليتهم التاريخية ـ الاجتماعية.

ويبدو من دراسة حركة التاريخ في المشرق العربي القديم ولا سيما في عصوره التاريخية أن الجناح الغربي للمشرق «بلاد الشام» كان دوماً يطمح بحيويته التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والتجارية أن يضم الجناح الشرقي للمشرق«الرافدين» إلى حركته وإيصاله نحو المتوسط وهذا ما فعله صارغون الأكادي وحمورابي ومحاولات شمشي أدد ، ولا تشذّ زنوبيا عن هذا الأمر.

وبالتدقيق في حركة التاريخ نلاحظ أن الجناح الغربي للمشرق العربي كان الرافعة التاريخية للبعد الإنساني لا سيما عبر الفاعلية الكنعانية ولا سيما البحرية منها ، حيث عرف عن الكنعانيين أنهم تجار العالم القديم مستفيدين من الوجه البحري المشرقي المتجسد في البحر المتوسط.

سابعها: لعبت التجارة عبر التاريخ دوراً أساسياً ومهماً في التفاعل بين الشعوب والأمم ، فإلى جانب التبادل التجاري كان يتم التعرف والتأثر والتأثير بين الثقافات في العالم القديم.

ويبدو أن أغلب مدن المشرق العربي كانت قائمة على خطوط التجارة العالمية مستفيدة من موقعها الاستراتيجي بين شرق العالم القديم وغربه وبين شماله وجنوبه. لذا فإن التجارة لعبت دوراً أساسياً في تحقيق الانتشار الإنساني للمنجز الحضاري.

والجدير ذكره هنا مثلاً أن المسبحة التي نراها في أيدي المشرقيين والعرب والمسلمين أتت عبر التجارة إلى بلاد الشام من التجار البوذيين في حوالي ٥٠٠ ق. م والآن يستخدمها المسلمون والمسيحيون في المشرق «د. حسني حداد ١٩٩٠»[٤] لا بل وتأتي الآن عبر موسم الحج عن طريق الحجاج المسلمين.

البعد الإنساني لحضارة المشرق العربي ٤٠٠٠ ـ ٣٥٠٠ ق. م:

في تقويمه لحضارة المشرق العربي القديم يقول هنري فرانكفورت:

«نحن نتعرف إلى الحضارة في الشرق المتوسطي القديم في الصفة الإنسانية التي تكون ذاتيتها وتعتبر طابعها المميز»[٥]..

إن الأدلة الأثرية أثبتت أن الإنسان في المشرق العربي وجد قبل حوالي المليون سنة «د. سلطان محيسن ١٩٩٠» في حين يعيده الدكتور زيدان كفافي إلى مليون ونصف مليون سنة[٦] ، وإن تطور هذا الإنسان وتفاعله مع البيئة وتطور دماغه أدى كل ذلك إلى ظهور إنسان النياندرتال المشرقي في حدود ١٠٠٠٠٠ سنة والذي شكّل الإنسان العاقل في المشرق وريثه المباشر[٧] وذلك في حوالي ٣٥٠٠٠ سنة.

أما في أوربا فإن النياندرتال الأوروبي لم يتطور إلى الإنسان العاقل الأوربي بل تطور هذا الأخير عن الإنسان المنتصب «الهوموأركتوس»[٨] وقد اعتبر الإنسان العاقل جدنا المباشر ، هو الذي صنع الحضارة الإنسانية بمفهومها البدئي والشامل مستنداً على ما ورثه من سابقه (النياندرتال أوالإنسان المنتصب؟) وهو الذي مازال ينجز حتى الآن.

ويبدو أنه ولأسباب مجهولة ـ ربما بيئية ـ هاجر الإنسان العاقل المشرقي شمالاً إلى أوربا حيث أسس هناك حضارة غنية ومميزة. وهذا يعني أن الإنسان العاقل المشرقي وريث النياندرتال المشرقي قد أمدّ أوربا قبل حوالي ٤٠٠٠٠ عام بأولويات الحضارة على قاعدة أن هذا الإنسان هو جدّنا أولاً وأنه صانع الحضارة الإنسانية ثانياً.. وهذا فيما يعنيه أن أصل الإنسان الأوربي يعود إلى المشرق العربي القديم.

والطريف في الأمر أن بعض العلماء الغربيين ولا سيما الألمان يرفضون هذه النظرية لأسباب عنصرية حيث لا يمكنهم الاقتناع أن أصولهم تعود إلى المشرق العربي ولو أكدت الحقائق العلمية ذلك[٩].

وليس في الأمر غرابة.. حين نعلم أن بعض العلماء الغربيين اكتشفوا أن اللغات اللاتينية واليونانية والفارسية ولغات شمال الهند تتشابه في التركيب والنحو والصرف وهذا ما يعني أنها في مجموعها تعود إلى أصل هندو.. أوربي!! وهذا يعني أيضاً أن الجنس الآري الأصيل هو أصل الحضارة وهذا ما آمن به الألمان حيث حولّوا مصطلح الجنس الهندو ـ أوربي إلى هندو ـ جرماني وبلغ قمة ما وصلوا إليه أن أحد المأخوذين بهم من البريطانيين واسمه هيوستون ستيورات تشمبرلين ألّف كتاباً جعل عنوانه «أسس القرن التاسع عشر» حيث ضمّ فيه دانتي والمسيح إلى الآريين أي الهندو جرمانيين!![١٠].

وبعيداً عن أية تصورات عنصرية آرية أو غير آرية ، فقد أكدت الحقائق العلمية هجرة الإنسان العاقل المشرقي إلى أوروبا وتأسيسه هناك لحضارة مهمة وهذا يؤكد على:

١ـ أن أصل الإنسان الأوروبي يعود إلى المشرق العربي.
٢ـ إن الإنسان العاقل المشرقي ـ جدنا المباشر ومبدع الحضارة الإنسانية ـ امتلك كل الصفات الفيزيولوجية والاجتماعية التي يملكها إنساننا الحالي.

ولعل هذا يشكل النواة الأولى لمكامن البعد الإنساني الشعوري واللاشعوري إن كان في المستوى الفردي أو في المستوى الجمعي للإنسان المشرقي.

ابتكار الزراعة منجز سورية الإنساني الحضاري

يقول العالم غولايف: ان كل الباحثين تقريباً متفقون على المغزى الذي تنطوي عليه ثورة العصر الحجري الحديث التي اتسمت بظهور أهم ثلاثة عناصر في حياة البشر وهي: الزراعة وتربية الماشية والتجمعات المستقرة الدائمة وصناعة الفخار بالنسبة إلى تطور المجتمع البشري.[١١]

فمع مطلع الألف التاسع قبل الميلاد بزغت إلى الوجود «الثورة الزراعية» في المشرق العربي، وقد عثر على أقدم دليل /حتى الآن/ لممارسة الزراعة وتدجين الحيوان في المنطقة الممتدة من حوض الفرات شمالاً مروراً بحوضة دمشق في الوسط وحتى حوض الأردن جنوباً ، وهذه المنطقة تعتبر البؤرة الأقدم في العالم لظهور الزراعة والتدجين.[١٢]

وكما أشرنا في مقدمتنا إلى مجال المشرق العربي الحيوي ، فلابد أن يتم انتقال هذا المنجز إلى مجاله ، ففي حوالي ٧٦٠٠ ـ ٦٠٠٠ ق.م



وصلت الزراعة إلى الأناضول بواسطة السوريين ، ومن ثم سوف ينتقل هذا المنجز إلى مناطق أخرى في العالم وفق ما يلي:

المرحلة الأولى:

من نهاية الألف السابع وبداية الألف السادس ق. م

حيث وصلت الزراعة إلى جنوب أوروبا والبلقان واليونان ، ويعتقد أن تأثيرات هذه المرحلة وصلت شرقاً إلى باكستان وغرباً حتى شمال أفريقيا.

المرحلة الثانية:

من نهاية الألف السادس وبداية الألف الخامس ق. م

حيث تحركت القرى الزراعية على امتداد السواحل ووديان الأنهار الكبرى كالدانوب ، حتى وسط أوروبا وغربها.

المرحلة الثالثة:

منتصف الألف الرابع قبل الميلاد

وفيها وصلت الزراعة إلى شمال أوروبا واسكندينافيا. وبتأثيرات مباشرة من المشرق العربي نشأت الزراعة في وادي النيل في حوالي الألف الخامس قبل الميلاد ، هذا ما أكدته تنقيبات ومكتشفات موقع الفيوم في مصر. [١٣] إذن نحن أمام عدة حقائق تشكّل قيمة إنسانية وبعداً هو أيضاً إنساني:

١ـ أن المشرق العربي شهد أول ظهور للزراعة في العالم.

٢ـ أن ثمة تأثيرات مباشرة عبر نقل هذا المنجز الحضاري الإنساني بواسطة مخترعيه «المشرقيين» مباشرة إلى الأناضول ومصر.

٣ـ أن نقل هذا المنجز سوف يستتبع نشوء معايير جديدة تفرضها الثقافة الزراعية ولاسيما لجهة الاستقرار وتماسك البنى الاجتماعية وظهور المعتقدات وتطور الفنون والعمران والتجارة والاقتصاد ، وهذا ما ينبغي الإشارة إليه في توسيع دائرة الرؤية لمفهوم المنجز الحضاري وتفاعلاته.

صناعة الفخار

شهد المشرق العربي في حوالي ٦٥٠٠ ق. م بداية صناعة الفخار دلّ على ذلك مكتشفات موقع تل أسود في الجزيرة السورية. ومن ثم عمّ هذا الاختراع في منطقة المشرق ، ومع حلول الألف السادس ق. م /مطلعه/ انتقل هذا المنجز إلى الأناضول ويبدو أن ظهوره هناك كان حصيلة مشتركة بين الأصول المحلية الأناضولية والتأثيرات المشرقية بالخاصة. [١٤]

المنجز الحضاري الإنساني المشرقي في العصور التاريخية ٣٥٠٠ ـ ٣٣٣ ق. م

إن ابتكار الزراعة أدى إلى انقلاب شامل في مجمل أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمعتقدية والروحية ، فقد تطور العمران وتطورت المفاهيم الذهنية الاجتماعية وزاد التراص الاجتماعي ، ما أدى إلى نشوء المجتمعات الكبرى المستقرة ، ولسوف يؤدي تراكم هذه المعطيات وباطراد إلى نشوء المدن الكبرى وهو ما عرف بثورة المدن.

وقدتم ذلك في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد ، فقد شهد المشرق العربي آنذاك نشوء مدن أولى مثل أوروك وحبوبة الكبيرة الجنوبية وتل قناص وتل براك وجبل عارودة. ولعل هذا المنجز في تحالفه مع التجارة والنشاط التجاري ، سوف يولّد تبعاً لتطور الحياة الاقتصادية الاجتماعية والذهنية ابتكاراً مفصلياً هاماً يتجلى في اختراع الكتابة في حوالي ٣٢٠٠ ق.م.

وهنا أصبحنا أمام ظاهرة تحول مدن المعبد إلى مدن دول مشكلة بذلك انبثاق السلطة الزمنية إلى جانب السلطة الدينية في قيادة مجتمع مدن الدول ، ومع مطلع الألف الثالث ق. م أصبحنا أمام ظاهرة المدن الكبيرة والمسورة مثل ترقا ـ شوباط انليل ـ تل براك ـ مجيدو ـ خربة الكرك ـ تل الفرح ـ جبيل ـ باب الضهرة ـ كيش ـ نيبور ـ تل فارا ـ أبو صلابيخ.

يقول كلوتشكوف وبونغارد ـ ليفين: في الشرق القديم أرسيت الأسس التي حددت إلى أمد بعيد المسيرة اللاحقة للتاريخ العالمي ، فهناك تمت الاكتشافات الهامة جداً في مجال الحضارة ، ونشأت المدن والمجتمعات وظهرت الكتابة والآداب والعلوم ، وقد كان لحضارة الشرق القديم أعظم التأثير على الحضارة الإغريقية ـ الرومانية والحضارة الإسلامية ، وأثرت أيضاً من خلالهما على الحضارة العالمية في العصور الحديثة. [١٥]

اختراع الكتابة

شكلّ اختراع الكتابة ومن ثم ابتكار الأبجدية في المشرق العربي منعطفاً مفصلياً مهماً لجهة تعميق الوعي الإنساني في المستوى العالمي ، ونظراً لدراستنا لهذا الموضوع في متن هذا الكتاب /راجع الدراسة الثانية/ فسوف نناقش هنا فقط البعد الإنساني لهذا المنجز الهام. فعلى قبر زينون الرواقي الكنعاني ثمة نقش يقول: ألم يأتي قدموس من فينيقيا ومنح اليونان كتبها وعلّمها فن الكتابة ؟.

فأن يتم اختراع الكتابة المسماربة في المشرق العربي ، وأن يصل هذا المشرق لابتكار الأبجدية /التي أصبحت عالمية/ فهذا مفهوم ، ولكن ممكنات النفسية المشرقية الرسولية حتّمت أن يتكفل أبناء هذا المشرق بنقل منجزهم إلى العالم ابتداءً من اليونان ، فهاهو قدموس يتوجه إلى اليونان ويؤسس هناك مدينة طيبة ثم يعلّمهم الأبجدية المشرقية التي سوف تنتقل تباعاً إلى مجتمعات العالم القديم.

يقول فيليب حتي في معرض مناقشته لهذا الأمر: لقد انتقل حرف الهجاء /الكنعاني/ شرقاً إلى الآراميين الذين نقلوه إلى الفرس حيث أصبحت الآرامية لغة رسمية عندهم ومن ثم فقد أخذه العرب ليكتبوا به لغة القرآن ، وبعد ذلك انتقل إلى شعوب آسيوية أخرى.

وقد حصل الفرس والأرمن والهنود على أبجديتهم من مصادر آرامية ، وحروف البهلوية والسنسكريتية هي من أصل آرامي ، وقد حمل الكهنة البوذيون من الهند ، الأبجدية والسنسكريتية إلى قلب الصين وكوريا. وهكذا وصلت الحروف الكنعانية شرقاً بطريق الآرامية إلى الشرق الأقصى وغرباً بطريق اليونانية إلى الأمريكيتين ، مطوقة العالم كله. [١٦]

لقد شكلّ ابتكار الكتابة ومن ثم الأبجدية منجزاً حضارياً إنسانياً سوف تتولد عنه وباستمرار منجزات حضارية على الصعيد العالمي وليس أدلّ على ذلك من المعلوماتية التي تدين بنشوئها إلى منجز المشرق العربي الكتابي والأبجدي.

وعلى هذا يؤكد العالم جاليلو جاليكي: في الأبجدية الكنعانية تحقق تصور لطريقة يمكن بها تأكيد التواصل الفكري بين البشر مهما تباعد المكان وعبر كل زمان ، وهي طريقة تصلح للتحدث إلى الذين لم يولدوا بعد والى من سيولدون بعد ألف أو آلاف السنين. [١٧]

العلوم الرياضية والفلك والموسيقا

يعنينا قبل الخوض في مجال هذا المنجز أن نؤكد على أن مطلق منجز حضاري مشرقي لم يكن إلا انعكاساً للتفاعل المادي الروحي على مدى التاريخ المشرقي، لهذا فالبعد الأخلاقي للمنجز الحضاري شكلّ بعداً إنسانياً. وهذا ما جعل الحضارة المشرقية العربية ضرورة إنسانية. ولو عدنا إلى حوالي ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد، فلسوف يكون بين أيدينا رقيم طيني يحوي مسألة رياضية تدلّ بشكل أكيد على جذور نظرية تالس /طاليس/ التي تؤرخ بحوالي ٦٠٠ ق.م.

يؤكد العالم فريدريك بيلانشون «أن الرياضيات كانت في بابل (١٨٠٠ ـ ١٥٠٠) ق.م ولاسيما في زمن الملك (الأموري) حمورابي، فقد عثر في الألواح الطينية على أدلة تؤكد وجود أسس رياضية في الهندسة وحساب الكميات وحل مسائل من الدرجة الثانية، وحساب الجذر التربيعي».[١٨]

ويحدد هذا الباحث مميزات الريلضيات المشرقية بما يلي:

التجريد: الذي يعبّر عن تقدم في المعارف الرياضية.

حدة ذكاء جبري: حيث استطاع المشرقيون أن يحصلوا بالتحليل الصحيح لأشكال هندسية خاطئة على نتائج صحيحة وعلمية.

ويصل الباحث للقول: لقد دلت الآثار الرياضية البابلية على ثقافة حسابية كونتها علامات متقطعة جاءت من الحساب الرقمي وقياس المساحات والأحجام وعلم الفلك، وبالتالي كان لابد لليونان من ان يأخذوا هذه المعلومات وينسقونها بشكل جذري يربط بينها المنطق والعقل، وكان ذلك في عام ٦٠٠ ق. م حيث أسس تالس أول عملية استنتاجية.[١٩]

وهنا نجد أنفسنا أمام اعادة قراءة لهذا المنجز وفق البعد الشمولي للحضارة السورية، وليس كما بدا للباحث بيلانشون. فالتداخل ضمن المشرق العربي /عبر تاريخه/، الاجتماعي ـ الاقتصادي ـ الروحي، ووحدة الحياة التي أكدتها الكشوفات الأثارية، تجعلنا نقرأ هذا المنجز ضمن اطاره المجتمعي التاريخي، فلا يمكن أن ننظر إليه ضمن الحيّز الذي وضعه فيه بيلانشون، فهو ليس منجز حصل في جزيرة منعزلة اسمها بابل، وبالتالي فثمة سلسلة تاريخية اجتماعية تحكم ظهور وإبداع هذا المنجز، عنيت في ذلك التفاعل الديمغرافي الاجتماعي الحاصل في مسار التاريخ بين الأكاديين والسومريين والعموريين والبابليين والآشوريين والكنعانيين والآراميين، بحيث أدى إلى ظهور هذا المنجز وغيره من المنجزات.

لهذا فنحن أميل للأخذ بمبدأ الشمول في قراءة مطلق منجز مستندين على الواقع الاجتماعي التاريخي.

أيضاً، هناك مسألة مهمة طرحها الباحث وتتعلق بهوية تالس، فحسب بيلانشون أن تالس اليوناني!، هو الذي ربط المعلومات الرياضية البابلية بالمنطق والعقل وأسس أول عملية استنتاجية. لكن الحقائق العلمية التاريخية تدحض اعتبار تالس يونانياً وتعيده إلى هويته المشرقية الكنعانية، فقد ذكر هيرودوس أن تالس هو سوري، فينيقي، وأكّد ذلك فيثاغورس وأرسطو وأريستوكسان، وتؤكد المعطيات التاريخيةأن طاليس ولد في صيدا وهاجر إلى جزيرة ساموس اليونانية، ثم عاد إلى سورية واتصل بمدرسة موخوس في صور واعتزل في أحد الهياكل الكنعانية في فلسطين ثم هاجر إلى مصر وبابل حيث قضى عشر سنوات. وحين كان في ٥٦ من العمر ذهب إلى ساموس وأسس مدرسته هناك.[٢٠]

على كل هذا يمكننا فهم منجزنا الرياضي وفهم كيفية نقله إلى بعده الإنساني دونما تعصب ولكن بعصبية وعلمية، وعلى هذا يقول بيلانشون: «إننا مدينون للبابليين، هؤلاء المفكرون العظام الذين ساهموا في وضع أساسات العلم الرياضي في الحضارة الإنسانية».[٢١]

أما ول ديورانت فيشير إلى بابل في الألف الأول ق. م /وهي استمرارية لبابل في الألف الثاني ق.م / بالقول: «من بابل جاء اليونان الجوالون إلى مدنهم بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضيات والفلك والطب والنحو وفقه اللغة وعلم الآثار والتاريخ والفلسفة، ومن المدن اليونانية انتقلت هذه العلوم إلى روما ومنها إلى الأوروبيين والأمريكيين، وليست الأسماء التي وضعها اليونان للمعادن وأبراج النجوم والموازين والمقاييس والآلات الموسيقية والكثير من العقاقير، ليست هذه كلها إلا تراجم لأسمائها البابلية، بل إنها في بعض الأحيان لا تعدو أن تكون بديلاً لحروفها من الأحرف البابلية إلى اليونانية».

ويعقّب: «لقد انتقلت حضارة أرض النهرين من مهدها وأضحت عنصراً من التراث الثقافي للجنس البشري».[٢٢] وتنبغي الإشارة هنا إلى أن الرياضيات خرجت من معطف التجارة والنشاط التجاري، لا بل أن علم الفلك انبثق من تحالف الرياضيات مع المعتقدات الماورائية.

يشير د. حربي عطيتو في مؤلفه «ملامح الفكر الفلسفي والديني في مدرسة الاسكندرية القديمة» إلى تقدم المشرقيين في الرياضيات، حيث يتحدث عن «تقدم علم الهندسة عندهم، هذا التقدم الكبير لدرجة أنه كان بمقدورهم أن يقدروا المساحات المعقدة ومساحات الأشكال غير المنتظمة، وأدركوا أن الزاوية المرسومة في نصف الدائرة هي زاوية قائمة».

أما عن مدى البعد الإنساني لهذا المنجز فيؤكد على «أن هذه العلوم المشرقية انتقلت إلى اليونان، ونلمس براعة المشرقيين في الجبر عند أرخميدس (القرن الثالث ق. م) وهيرون (القرون الأولى الميلادية) وديوفنتوس في منتصف القرن الثالث الميلادي».[٢٣]

ويؤكد العالم البريطاني غوردون تشايلد أن «أسس علم الرياضيات وضعت في بلاد حوض النهرين، وأكثر الرياضيات الحديثة تطورت عن تلك الأصول عن طريق الرياضيات الهلنستية والعربية». وهو ما يؤكده العالم هنري فان لون من أن معرفتنا العصرية بالفلك والرياضيات تقوم على مبادئ وضعها البابليون.

ويوضح فيليب حتي ماحققه المشرقيون في مجال الرياضيات بقوله: أصبح العدد٦٠ وهو مركب العشرة، والعدد اثنا عشر وهو أحد الأرقام التي ينقسم عليها عدد٦٠، أساسين لنظامين حسابيين يعرف الأول بالنظام الستيني والثاني بالنظام الاثني عشري. ولا يزال النظام الستيني مستعملاً في تقسيم الساعة والدقيقة، وكذلك مركب الستين الذي استعمل في تقسيم الدائرة الـ٣٦٠ درجة.

أما لجهة تواصلية هذا المنجز إنسانياً فيؤكد حتَّى انتقاله إلى العالم: «فالرياضيات عند الشعوب الإسلامية والهندية كانت متصلة الحلقات بالرياضيات في المشرق القديم عبر الكتابات الآرامية والإغريقية».[٢٤] ونحن نعلم أن فاعلية الآراميين الحضارية والتاريخية في الألف الأول قبل الميلاد استمدت أساساتها من الثقافات التي سبقتها من كنعانية وأكادية وغيرها.

أما في مجال فكرة الزمن وعلم الفلك: فقد قدر المشرقيون الزمن بالساعة المائية والمزولة، وقسموا الشهر إلى أربعة أسابيع

كما قسموا أوجه الساعة إلى اثني عشر ساعة والساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية، وكل هذا اتبع في كافة أوجه المعمورة إلى يومنا هذا.

يقول جورج كونتنو: نحن مدينون للشرق القديم بذلك العون الضخم والجبار الذي أمدنا به في كل ما يتعلق بالطب وعلم الفلك والرياضيات.[٢٥]

الجدير ذكره أن المشرقيين قسّموا الزمن إلى سنين، وقسّموا السنة إلى ١٢ شهراً، وكل أسبوع إلى سبعة أيام. ويورد حتّي أن السوريين نقلوا إلى اليونان تقسيم الزمن والساعات الشمسية.. ونظاماً للتنبؤ بالكسوف والخسوف، وأن علامات الأبراج الإثني عشر الموجودة لدينا الآن هي تقريباً العلامات الآشورية نفسها بالإضافة إلى أنظمة الموازين والمقاييس.[٢٦]

ويتفق الباحثون على أن علم الفلك في المشرق العربي كان المصدر الرئيس الذي استقت منه أوروبا فيما بعد.[٢٧]

ولم تكن آلية نقل المنجز في خطوطه العامة، الاّ على يد المشرقيين في الجناح الغربي للمشرق العربي ولاسيما الكنعانيين[٢٨]، وعلى هذا يقول ول ديورانت: «نقل الكنعانيون العلوم والفنون من المشرق القديم ونشروها في اليونان وأفريقيا وإيطالي واسبانيا، وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية وشرعوا ينتشلون أوربا من براثن الهمجية»[٢٩].

وهذا المنجز المشرقي في علم الفلك ولا سيما في علم الأرصاد البابلية استفاد منه العالم عبر نقله، فهذا العالم هبارفوس الفلكي والذي يعتبر واضع علم الفلك الحديث قد استفاد من الأرصاد البابلية التي اعتمد عليها والذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد... ثم بطليموس الذي عاش في الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي والذي ظل نظاماه الجغرافي والفلكي مستعملان حتى القرن السادس عشر الميلادي، ومعلوم مبلغ اعتماده على علوم الفلك المشرقية واستفادته منها.

ولا بأس هنا أن نذكر أنه اكتشف في موقع مدينة نيبور لوحاً فخارياً يعود إلى حوالي ١٥٠٠ ق.م مرسوم عليه مخطط لمدينة نيبور، يبين أهم معالم المدينة ويعتبر هذا اللوح وهذه الخريطة من أقدم الخرائط أو مخططات المدن في تاريخ البشرية.... وهذا ما أكده العالم الروسي غولايف.[٣٠]

والجدير ذكره هنا هو أن التجارة ولاسيما البحرية فرضت إشراطاتها الإبداعية كما فرضت الرياضيات، وهذا ما جعل الكنعانيين يكتشفون نجم القطب الشمالي الذي أدى إلى نشاط التجارة البحرية الليلية وهذا ما دفع الإغريق لإطلاق تسمية «نجم الفينيقيين» على نجم القطب الشمالي.

ومن جهة أخرى فإن تقسيم الأسبوع إلى سبعة أيام عند المشرقيين القدماء كان يتبع ذهنيتهم الروحية وكان اعتقادهم أن ثمة إلهاً يقترن بكل نجم من النجوم السيارة السبعة (الشمس، القمر، المريخ عطارد، المشتري، الزهرة، زحل) وقرنوا أيام الأسبوع بهذه الآلهة فصار هناك يوم لإله الشمس «SUN DAY» ويوم لإله القمر «MOON DAY» ويوم لإله زحل «SATURDAY».

وهذا ما استمر حتى يومنا هذا في أسماء الأيام أو بعضها. واعتماداً على هذا كله صار بإمكاننا أن نتفهم مقولة العالم الفرنسي جورج كونتنو من أن «مدنية الغرب مدينة للشرق القديم بالكثير»[٣١]، ومقولة الباحث روبيرت لاندا أن «الثقافة الكنعانية في شبه الجزيرة الايبرية (الإسبانية) لعبت دوراً عظيماً، فقد عاشت منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد وحتى القرن الأول ومثلت طرازاً مميزاً للحضارة التي انتقلت إلى الأراضي الواقعة إلى الجنوب من جبال البيرينيه»[٣٢].

الموسيقا المشرقية

إذا كان تأريخ أقدم رقيم موسيقي مشرقي يعود إلى حوالي ١٨٠٠ ق.م عبر الفاعلية الأكادية فإن هذا المنجز كي يصل إلى التدوين على الرقيم لا بد أنه قد سبقته تفاعلات ومخاضات أدت إلى تدوينه وربما تعود هذه التفاعلات لألفي سنة سابقة.

ونحن نعتقد أنه مع نشوء المعبد والذهنية المعتقدية كان ثمة نشاط موسيقي مرافق، ومع الألف الثالث قبل الميلاد ونتيجة لانفصال المعبد عن المدينة ونشوء السلطة الزمنية بدأت الموسيقا المعتقدية تأخذ حيزها المعبدي في مقابل ظهور موسيقا مدنية تترافق مع نشاطات وفاعليات الحياة العامة اليومية.

وهذا ما أدى إلى تبلور المعطى الموسيقي الحضاري في تدوينه على الرقيم سواء في ١٨٠٠ ق. م أو بعد ذلك بحوالي ٤٠٠ عام في أوغاريت. يقول الباحث راؤول فيتالي: «عثر في جنوب العراق على عدة لوحات تعطي الكثير من المعلومات عن الموسيقا الأكادية..وأن لوحة /رقيم أوغاريت ليست إلا تطبيقاً لهذه المعلومات./»[٣٣]

وقد توصل هذا الباحث إلى أن الموسيقا الأكادية تشبه موسيقانا كما تشبهها الموسيقا الإغريقية. وقد عثر في أوغاريت على ألواح طينية تحوي قطعاً موسيقية تعود إلى حوالي ١٤٠٠ ق. م وتبين نتيجة الدراسة أن هذه الألواح هي الأساس في علم الموسيقا الغربي الذي أقامه فيثاغورس عام ٥٠٠ ق.م. وقد أثبتت العالمة كيلمر أن موسيقا أوغاريت التي تقوم على السلم السباعي الدياتوني هي أساس الموسيقا الغربية.[٣٤]

ويصل الباحث فيتالي إلى أن سلم فيثاغورس الإغريقي وسلم صفي الدين العربي ما هما إلا عبارة عن خلف للسلم الموسيقي الأكادي.[٣٥]

وقد أمدتنا اللقى الأثرية والمدونات بمعلومات عن آلات موسيقية كانت تستعمل في المشرق العربي القديم مثل الناي والقانون ومزامير القرب والطبول وقرون ومزامير وأبواب وصنوج.

وتخبرنا الرقم من عدة مواقع مشرقية عن وجود فرق موسيقية وانتقالها بين مدن المشرق العربي وعن وجود مغنيين يعزفون ويغنون في الهياكل والقصور والبيوت.

الجدير ذكره هنا أن خط التواصل الإنساني والذي مارسه الكنعانيون ومن ثم الآراميون والسريان أدى إلى تطور الموسيقا مع العصور وانتقالها إلى المجال الحيوي المتوسطي الأوربي.

ويشير المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي إلى أن الأسلوب البيزنطي في الموسيقا والشعر الابتهالي الذي أصبح الملك المشترك لجميع الشعوب الشرقية الأرثوذكسية وضعه سوري مسيحي (خلقدوني) هو رومانس (٤٨٠ ـ ٥٥٠) م وقد كتب رومانس أشعاره بالكويني الاتيكية القديمة لكن تفاعيله وأناشيده كانت سوريّة، ويشير توينبي إلى أن هذه الخطوة بالنسبة إلى الموسيقا والشعر اليونانيين كانت منطلقاً جديداً منعشاً[٣٦].





المنجز الحضاري الإنساني المشرقي
في العصر الهلنستي ٣٣٣ ـ ٦٩ ق. م

مع تأسيس سلوقس نيكاتور للدولة السلوقية في المشرق العربي، أصبحنا أمام حالة من التمازج الإنساني والفكري بين عالم المشرق العربي وعالم المتوسط ولا سيما الغرب اليوناني.

ويؤكد فيليب حتي أن سورية كانت العمود الفقري للامبراطورية السلوقية فأنطاكية كانت رأسها السياسي أما مدينة سلوقية فكانت عاصمتها التجارية في حين كانت أفاميا مقرها الحربي[٣٧].

وفي هذا العصر نحن أمام ظاهرة أصيلة في مجتمعنا، فالمعلوم أن السلوقيين أسسوا مدناً في سورية لم تكن من قبل أو ربما كانت بلدات صغيرة جرى تأسيسها من جديد وفق المنظور السلوقي السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وعلى هذا تم تشييد مدن مثل اللاذقية (لاوديكية) وأنطاكية وأفاميا /أباميا/. وهذه المدن حافظت على أسمائها بعد زوال الحكم اليوناني مع تحريفها باللفظ العربي.

ولكن اليونان كانوا قد أجروا تبديلاً على أسماء المدن السورية الأصلية وأطلقوا عليها تسميات يونانية حيث أنه وبزوال الاحتلال اليوناني عادت المدن إلى أسمائها الحقيقية والأصلية، فعكّا مثلاً أصبحت بتوليماس، وعمّان فيلادلفيا وبيسان سكثيوبوليس وبيروت لاوديسه وحماه أبيفانيه[٣٨].

الرواقية: منجز فلسفي إنساني للمشرق العربي

إذا كنا نوافق على أن كل مذهب فلسفي هو ابن عصره، فإن المذهب الرواقي يشكل بامتياز ابناً شرعياً للعصر الهلنستي ومن ثم الروماني وصولاً إلى المسيحية. وقد حمل هذا المذهب بعداً إنسانياً ورؤيا إنسانية يستظل بها جميع البشر وأساسها التسامح والعدالة. وقد أسس هذا المذهب زينون الرواقي الكنعاني (٣٣٣ ـ ٢٦١) ق. م وهو من مواليد مدينة كيتوم في قبرص.

ويبدو أن العصر الهلنستي قد شهد دعوات متمايزة بين تفوق مجتمعات على أخرى، بالإضافة إلى ازدهار العبودية وتجارتها، ما أدى إلى بلبلة فكرية وسياسية واجتماعية أدت إلى تنازع بين المذاهب الفلسفية والاجتماعية. وهذا ما دفع زينون الرواقي /ابن المشرق العربي/ إلى أن يحاول الاسهام في وضع أساسات لفكر إنساني جديد أساسه التسامح والمساواة والعدل. وبذا يكون زينون المعبرّ عن شخصية مجتمعه وخصائصه الإنسانية.

فقد تأسست الفلسفة أو المذهب الرواقي على وحدة الجنس البشري والمساواة بين الناس وعدالة الدولة والمساواة بين الرجال والنساء واحترام حقوق الزوجة والتسامح والإحسان إلى الآخرين، والشعور الإنساني في حالات الضرورة القصوى للمعاقبة[٣٩].

ولتبيان أهمية هذه الفلسفة /برأينا/ ينبغي دراستها وفق عصرها أولاً وضمن دراسات مقارنة مع ما قبلها وما بعدها من مذاهب وفلسفات.

عام ٣٠٢ ق. م بدأ زينون يعلم مذهبه في أثينا، وقد أبانت فلسفته عن صلة مباشرة بالروحية المشرقية العربية ولا سيما في نظرتها الشمولية والإنسانية للأخوة البشرية، ويبدو أنّ زينون كان المبشر الأول لظهور المسيحية. وقد علّم مذهبه باللغة اليونانية /لغة العصر آنذاك/ وكان له أتباع من اليونانيين والرومان. وقد كتب أحد شعراء اليونان على شاهدة قبره:

«إذا كانت بلادك الأصلية هي فينيقية
فهل يجب أن يضيرك هذا بشيء..؟؟
ألم يأت قدموس من هناك
الذي أعطى لليونان كتبها وكتابها؟؟»

وامتد تأثير الفلسفة الرواقية حتى ظهور المسيحية، وقد أشار حتيّ إلى أن أول وسيط بين المسيحية والفلسفة الرواقية، كان بولص الرسول. وأن كثيراً من مضامين رسائله والأسلوب الذي يعبر به عن ذلك المضمون هو تفكير رواقي إلى حد بعيد، ولا سيما رسائله إلى أهل كورنثه ورومية وكولوسي وكورنثوس[٤٠].

حتى أنه في زمن الإمبراطورية الرومانية شهد عرش روما أباطرة آمنوا بالمذهب الرواقي حيث كان يأخذ بعداً دينياً ولا سيما عند الإمبراطور ماركوس أوريليوس /توفي في ١٨٠ م/ حيث كان رواقياً. ويبدو أنه بداية القرن الثالث الميلادي نجحت المسيحية في التوفيق بين الرواقية وبينها، حسب فيليب حتي[٤١].

وما يعنينا في هذا المجال هو أن الفلسفة الرواقية انتمت بقوة إلى الخط الفكري المشرقي العربي، الذي نجد بواكيره في الأساطير المشرقية في العصور التاريخية ثم تالياً في العصور اللاحقة وصولاً إلى المسيحية والتي تؤكد على البعد الإنساني لا بل في نشر القيم الإنسانية عبر الرسل وتلاميذ المسيح إلى العالم.

وكما أسلفنا فإن هذا يعتبر خصيصة من خصائص النفسية المشرقية العربية. وعلى كل هذا ولطبيعة التواصل بين بواكير الفكر في المشرق عبر الأساطير الأولى وصولاً إلى الرواقية فالمسيحية، فإن هذا يثبت أن المسيح مشرقي وينتمي إلى مجتمعه المشرقي وليس يهودياً كما توحي الدوائر اليهودية الصهيبونية والمتهودة في الغرب المسيحي.

وفي سياق البعد الإنساني المشرقي العربي تنبغي الإشارة إلى الدور المشرقي في ردف وتوسيع قاعدة الرسالة الإسلامية، لا بل إن المؤرخ أرنولد توينبي يتحدث على أنه: «قبل أيام محمد بنحو ألفي سنة أصبحت الجزيرة العربية مما يمكن اجتيازه من مكان إلى آخر. وقد أخذت الآراء والتنظيمات تتغلغل إلى شبه الجزيرة من الهلال الخصيب الذي يحاذيها في الشمال. وهذا التغلغل كان أثره تراكمياً وفي عصر النبي كانت الشحنة الروحية المتراكمة في الجزيرة العربية على وشك الإنفجار. وجاءت رسالة محمد في الوقت المناسب إذ تلقّى هذه الشحنة فأحسن استعمالها وذلك برؤيته النيرة وتصميمه وحكمته»[٤٢].

وبرأينا فإن انتشار الرسالة الإسلامية إلى سورية والمشرق بعامة كان يدخل ضمن الإطار الطبيعي للبعد الإنساني المشرقي لا بل إن دمشق أصبحت عاصمة للإمبراطورية الأموية.

المنجز الإنساني المشرقي
في العصر الروماني ٦٤ ق. م:

مع دخول الرومان إلى سورية سوف تتغير بعض المعطيات على صعيد الجغرافيا التاريخية والسياسية. وقبل ذلك تنبغي الإشارة إلى أن الاحتلال الروماني لسورية /بلاد الشام/ كان تعبيراً عن وجود فائض حيوي عسكري لا أكثر لدى روما.. وهذا في الأساس هو الدافع الحقيقي للصراع المشرقي مع روما ناهيك عن معاني الاحتلال والاستعمار.

لهذا ومع كل جبروت روما وطغيانها فإن كاتباً رومياً (جوفنال) في القرن الثاني الميلادي يضع يده على الجرح الروماني بقوله: «منذ زمن بعيد ونهر العاصي السوري يصب ماءه في نهر التيبر جالباً معه لغته وعاداته وعوده وقيثارته بأوتارها المائلة».

فقد كانت سورية /الموغلة في القدم/ تجاه روما التي لم يمض عليها سوى ٨٠٠ عام هي الأصالة مقابل القوة الفارغة الرأس، ناهيك على أن نهر الفرات في عصور ما قبل الرومان لم يكن يشكّل حاجزاً طبيعياً بين جناحي المشرق العربي القديم، أما الآن فبتنا أمام حاجز يفصل الجناح الغربي /بلاد الشام/ عن الجناح الشرقي /الرافدين/ حيث قبعت حدود الإمبراطورية الرومانية في الشرق عند نهر الفرات.

ويبدو أن ما فعلته زنوبيا (بت زبّاي) في ضمها للعراق آنذاك إلى إمبراطوريتها هو محاولة إعادة الجناح إلى أخيه بعيداً عن الصراعات الرومانية ـ الفارسية. ولعل أهم التأثيرات المشرقية في العالم خلال العصر الروماني تتوضح ضمن جملة من المنجزات الإنسانية:

في التشريع والحقوق

مع مطلع القرن الثالث الميلادي سوف تصبح بيروت مركزاً لمدرسة الحقوق والتي بقيت حتى منتصف القرن السادس أشهر مدرسة من مدارس الولايات في الامبراطورية الرومانية. ويشير الباحثون إلى أن مؤسس هذه المدرسة هو الإمبراطور سبتيم سفير ١٩٣ ـ ٢١١ م ثم تعهدها خلفاؤه السوريون من بعده. ونتيجة لريادة هذه المدرسة المشرقية أطلق الإمبراطور جوستنيان على بيروت اسم «أم القوانين ومرضعتها».[٤٣]

وطبعاً، نحن هنا ليس أمام منجز حضاري لزمن معين وعصر معين.. ولا بد أن ننظر بشكل شمولي ضمن دائرة الحقوق حيث أن المشرق العربي شهد أولى الشرائع والقوانين.. من لبت عشتار إلى أور نمو إلى حمورابي إلى القوانين الآشورية وصولاً إلى مدرسة بيروت للحقوق التي كانت نواة الفكر القانوني.

يقول بول كولينيت: «في بيروت كان يتم إعداد الحقوق الرومانية الجديدة.. وإلى جماعة من الفنيقيين السوريين هم عائلة سبتموس سفيروس ومستشاروه، لا تزال الحقوق الرومانية الجديدة مدينة ببلوغها أوج الكمال».[٤٤]

ففي فترة حكم السلالة السورية لعرش روما (١٩٣ ـ ٢٣٥ م) يبدو أنه تم تطوير الشرع الروماني ونقله من الطور الابتدائي إلى مرحلة متقدمة عبر مؤلفات الفقهاء السوريين الخمسة والذي أحاط بعضهم بالامبراطور سبتيم سفير كمستشارين له مثل بابنيان وألبيان. وبالإضافة إلى هذين الفقيهين كان هناك غايوس وبولس وموديستنوس. والجدير ذكره هنا هو أنهم كتبوا مؤلفاتهم الحقوقية باللاتينية وهذا ما جعل بعض المؤرخين يطلق عليهم اسم الفقهاء الرومانيين، وهذا ما انسحب على التشريع الذي وضعوه فأطلق عليه اسم التشريع الروماني.

تبين الأبحاث أن ما قدمه هؤلاء الفقهاء السوريين للتشريع الروماني يتعدى الـ ٨٠ % منه، وهذا ما دفع بعض الباحثين للقول: في القرن الثالث الميلادي كانت سورية تعكس على العالم تقاليدها الحقوقية التي تعد مصدر الحقوق الرومانية وأصلها.[٤٥] ويمكننا استعراض مؤلفات هؤلاء الفقهاء:

الفقيه غايوس: ١٣٠ ـ ١٨٠ م

اعتبرت مؤلفاته مرجعاً يلتزم به القضاة، بنتيجة الموقف الايجابي للامبراطور فالنتين منها، وهذا ما أضفى عليها صفة رسمية. وقد اعتبر المؤرخون الرومان مؤلفاته القانونية، مصدراً أساسياً لمدونات الامبراطور جوستنيان.

وتشمل مؤلفات غايوس على أربعة أجزاء تبحث في الأصول والأشكال وحقوق الأسرة والميراث والملكية. والجدير ذكره هنا هو أن هذه المدونات اعتمدت /لأهميتها/ كمادة تدريبية في المعاهد والجامعات الأوروبية.[٤٦]

الفقيه بابنيان: ١٤٠ م

لقّب بأمير الفقهاء، عمل مستشاراً للإمبراطور سبتيم سيفير، ودرّس مؤلفه «الأسئلة والأجوبة» في مدارس الحقوق الرومانية. ومن الأحداث التي تؤكد إنسانيته وتصالحه مع نفسه وأصالته، انه بعد مقتل جيتا على يد كركلا أخيه، غضب الرأي العام ومجلس الشيوخ على كركلا القاتل من أجل العرش، فما كان من الإمبراطور القاتل /كركلا/ الا أن يطلب من بابنيان الفقيه أن يوجد له مخرجاً وتبرئة من فعلته بقتل أخيه، غير أن بابنيان يرفض ويقول لكركلا: إن ارتكاب جريمة القتل أيسر من تبرئة المجرم منها، واتهام البريء القتيل بعد مقتله هو قتل آخر وجرم ثان.

وهذا الموقف أدى إلى أن يدفع بابنيان حياته ثمناً له، بأمر من كركلا. علماً أن الأخير تتلمذ في يفاعته على يد بابنيان. والجدير ذكره في هذا المجال أن الإمبراطور اسكندر سفيروس /آخر أباطرة السلالة السورية في روما/ (٢٢٢ ـ ٢٣٥)م أحاط نفسه بالفقهاء السوريين ألبيان، موديستينوس، وبولس، وفي عهده بنيت أول كنيسة وأعاد الحجر الأسود المقدس إلى حمص، وأقام بدلاً منه ثلاثة تماثيل نصفية لزارادشت وابراهيم والمسيح.

ولتبيان أهمية ما قدمه الفقهاء السوريين للتشريع الروماني تنبغي الاشارة إلى أن الإمبراطور تيودور الثاني، أصدر مرسوماً بتاريخ ٤٢٦م، عرف بقانون المرافعات حيث صنّف الفقهاء إلى صنفين وحظر على القضاة اعتماد سواهم في جميع الأحكام التي يصدرونها:

الصنف الأول:

ويشمل الفقهاء السوريين الخمسة.

الصنف الثاني:

ويشمل الفقهاء الذين أعتمدهم الفقهاء السوريين الخمسة.

وقد جاء في المرسوم الإمبراطوري أنه إذا اختلف القضاة على رأي ولم يجمعوا عليه فعلى القاضي أن يأخذ برأي الأكثرية، وإذا تساوت الآراء فعليه أن يأخذ برأي الجانب الذي فيه بابنيان. كما أن ما يسمى بمدونات جوستنيان في القانون، استمدت موادها بشكل رئيسي من مواد الفقهاء السوريين الخمسة، ومدرسة بيروت الحقوقية بحيث تشكّل نسبة ثمانين بالمئة منها[٤٧]

علماً أن ما يسمى بمدونات جوستنيان في القانون تتألف من خمسين كتاباً، وقد تضمنت حوالي ٢٤٦٢ فقرة قانونية أخذت من الفقيه ألبيان لوحده. وشكلت اكتمال الشرع الروماني. وتعتبر هذه المجموعة أساس الحقوق الشرعية في القرون الوسطى والعصور الحديثة، وقد أصبحت هذه المجموعة المصدر الرئيس الذي استمدت منه الدول الأوروبية الحديثة قوانينها، ولاسيما، فرنسا، ألمانيا، ايطاليا، اسبانيا.

ويعتقد أن الفقهاء الخمسة كانوا رواقيين، وهذا ما يبعث على الاعتقاد من أن روحيتهم المشرقية الرواقية ساهمت في تخليص التشريع الروماني من القسوة والفظاظة.



في الأدب

حفل العصر الروماني بأدباء ومفكرين مشرقيين ساهموا عبر نتاجاتهم، في تخصيب حقول المعرفة الإنسانية وأثروا إلى حد بعيد في مجاري الفكر الإنساني.. ويستوقفنا في هذا المجال الكاتب الساخر لوقيان السميساطي (١٢٥)م، الذي كتب باليونانية آنذاك /لغة العصر/ وكان يتكلم الآرامية. وقد ألّف ما يتعدى ثمانين كتاباً، وقد اثّر اسلوبه الأدبي الساخر على العديد من الأدباء والكتاب في العالم، منهم: سويفت الايرلندي وتوماس مور البريطاني وسيرانو دو برجراك ورابليه وفولتير وريتان وأناتول فرانس وبرناردشو.

في العمران والعمارة

كما ركزنا سابقاً على الناحية التراكمية ـ النوعية للمنجز الحضاري الإنساني للمشرق العربي، فلابد أن نؤكد من جديد على أن العمران والعملرة المشرقية في العصر الروماني، لم تكن وليدة وقتها فقط ومعلوم أن نشوء المدن الأولى كان سمة حضارية من سمات المشرق العربي، وبالتالي فعمارته في العصر الروماني تستند بالحقيقة على ارث نوعي وتراكمي، موغل في القدم.[٤٨]

ولا نعتقد أنه يمكننا العبور في العصر الروماني لجهة العمارة والعمران، دون أن نعرّج على مبدع مشرقي دمشقي عبّر بمنجزه العمراني والمعماري عن خصائص العمارة المشرقية وروحيتها، وهو أبولودور الدمشقي.

وبداءة، يتحدث تاريخ كمبردج عن أن سورية كانت متقدمة على روما في مجال العمارة، لا بل كانت بالنسبة لها النموذج الذي احتذته، ويتابع المرجع المذكور فيضيف: لقد تفوقت سورية على روما بعبقريتها المبدعة وفي معارفها التقنية وفي مهارة عمالها.

أما أبولودور الدمشقي (٦٠ ـ ١٢٥)م، فقد كان قريباً من الإمبراطور الروماني تراجان، وقد أوكلت له مهمات عمرانية وإنشائية وفنية، قدم من خلالها جلّ عبقريته المجتمعية والفردية. فقد أنشأ الميدان التراجاني في روما، ويعتقد العالم بيانكي بانديللي في كتابه «أبولودور الدمشقي» أن الفكرة المعمارية لهذا الميدان، ولاسيما لجهة ساحته مستمدة مما كان حول معبد جوبيتير في دمشق ويؤكد على أن هذه الفكرة المعمارية هي فكرة شرقية أكثر مما هي رومانية.

وثمة منجز لأبولودور أخذ بعداً إنسانياً تمثّل في العمود التراجاني الذي حوى تحت قاعه قبر الإمبراطور تراجان، حيث شيّد العمود بارتفاع ٣٣ متراً، يلتفّ حول جذعه شريط حلزوني منحوت وملون سشمل تسجيلاً فنياً لمنجزات الإمبراطور وفي داخل العمود درج دوار.

ويتفق الباحثون على أن أسلوب هذا العمود فنياً، يحاكي أسلوب المنحوتات الآشورية المشرقية. وقد أثرّ هذا العمل لأزمان لاحقة في التصاميم التذكارية في عدة بلدان أوروبية، ويؤكد د. عدنان البني أن هذا العمود أثر تأثيراً عميقاً على العمارة حتى العصر الحديث، ففي عام ٤٠٨ م بني عمود مماثل في عهد الإمبراطور أركاديوس في مدينة القسطنطينية. وفي ألمانيا عام ١٠٢٢ م، شيد عمود من البرونز يحاكي عمود تراجان وذلك في كاتدرائية هيلدسهايم في مدينة هانوفر.

وعام ١٨٠٦ ـ ١٨١٠ م انشئ في فرنسا عمود الفاندوم تخليداً لحروب نابوليون، وكان ثمة تشابه كبير بين نقوشه البارزة ونقوش عمود أبولودور.[٤٩]

يقول جيروم كاركوبينو في كتابه «الحياة اليومية في روما في أوج الإمبراطورية»: إن ميدان تراجان وسوقه هما قمة من قمم الفن، يتلاقى فيها خيرة بنائي أفضل العصور ويسمون إليها تلامذة متحمسين أو مقلدّين، مثل ميكيل أنجيلو، الذي ينقل شيئاً من هذا التنسيق المتقشف والقوي إلى واجهة قصر فارنيزة، ومعماريو نابوليون الذين يذوّبون مدافع أوسترليتز ليضعوا عمود فاندوم.

أيضاً لابد أن نشير إلى ابداع تدمري، تجلى في التاج الكورنثي التدمري والذي شاع في العالم آنذاك انطلاقاً من ابتكاره الأول في تدمر، عبر إنشاءه في معبد بل.[٥٠]

إسهام السريان المشرقيون في الحضارة الإنسانية

يقول توينبي: «منذ أن بدأ اعتناق سكان المشرق التدريجي للمسيحية، كانت المدنية السريانية تؤثر في المدنية اليونانية، ولم يحس الناطقون باليونانية من المسيحيين أنهم أكثر ثقافة من المسيحيين الناطقين بالسريانية، والواضح أن أولئك قد أفادوا نفحات حضارية دائمة من هؤلاء».[٥١]

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد ساهم السريان بعد الفتح الإسلامي للمشرق العربي، في دفع العرب نحو نهضة علمية، بلاغية، فكرية. ولاسيما في العصر العباسي، حيث استفاد العرب من القاع الثقافية للمشرق العربي والتي تضرب جذورها عميقاً في التاريخ.

وقد استطاع السريان عبر ترجماتهم للمؤلفات اليونانية، أن يمدوا المسلمين بعون معرفي كبير، سوف يكون له أبلغ التأثير في مساق الحضارة الإنسانية. ولعل من أهم الترجمات التي قاموا بها: مؤلفات أرسطو، وشروح أفلوطين، ومؤلفات أبقراط وجالينوس الطبية، وكتب اقليدس الرياضية، وأعمال بطليموس الجغرافية، إلى ما هنالك من كثير الترجمات.

ولا يمكن في هذا المجال من تجاهل ما قام به صائبة حران الذين يعتبروا الوارثين للعلوم البابلية والمطلعين على العلوم والأفكار اليونانية، في مد العرب بوسائل المعرفة النظرية والعلمية.

تقول الباحثة نينا بيغوليفسكايا في كتابها «ثقافة السريان في القرون الوسطى»:[٥٢] لقد استوعب العرب عن طريق السريان، العلوم اليونانية والأساليب الدقيقة للترجمة، مستفيدين بمهارة عالية من المعارف القيمة في مجالات الفلسفة والطب والكيمياء والفلك وجغرافية الأرض التي استطاعوا أن يطلعوا عليها، بفضل استفادتهم من الترجمات السريانية الأقرب إليهم من الأصول اليونانية. وتضيف: إن الثقافة السريانية في القرون الوسطى حصلت على انتشار عريض وأظهرت تأثيراً كبيراً في تطور الثقافة العالمية.

إذن نحن أمام الثقافة السربانية في منحيين:

المنحى الأول: أنها استمدت في الأساس خصائصها من العمق الحضاري التاريخي ـ الاجتماعي للمشرق العربي بإنجازاته واختراعاته.

المنحى الثاني: المثاقفة والتفاعل الفكري مع العالم اليوناني، ما أدى إلى ليس النظر للسريان كناقلين عن الآخرين، لا بل وقد أسهموا في مناحي الفكر والفلسفة والعلوم.

على كل هذا نشير لقول العالمة بيغو ليفسكايا: «إنّ عدداً كبيراً من العلماء العرب كانت أسماؤهم وتآليفهم حتى القرن الثالث عشر ميلادي، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعلوم السريان، ولم يقتصر كثير منهم على قراءة المؤلفات السريانية فقط وإنما كتبوا وألفوا باللغتين السريانية والعربية في آن واحد».



وتصل للقول: «إن العلوم اليونانية عبرت من خلال السريان أولاً، فتلاقت مع الفكر العربي وامتزجت فيه. ومن أيدي العرب تسلّم الغرب اللاتيني الثروة العلمية التي تراكمت على مدى قرون طويلة».

وأخيراً.. إن الإشارة إلى البعد الإنساني في الشخصية المشرقية العربية، يمنحنا فرصة أن نعرف أو نعي التاريخ... فوعي تاريخنا سوف يؤدي إلى وعي حقيقة من نحن.. التي تعني بشكل رئيسي أننا ضرورة إنسانية.. دلّ على ذلك ما ذكرناه.. ولا سيما أن البعد الإنساني الحقيقي يجب أن يستند على خصائص مجتمعية أخلاقية. وهذا هو سر المشرق العربي. ألم يقل العالم الفرنسي بيير روسي:

لقد آن الأوان الذي ينبغي للعالم الشرقي أن يبدأ فيه اكتشاف حقيقة تاريخه وثقافته، اللتين لولاهما لغدا الغرب فارغاً. (٥٣)

الهوامش

(١) الجديد حول الشرق القديم ـ مجموعة باحثين ـ دار التقدم ـ موسكو ـ ١٩٨٨.

(٢) ابن خلدون ـ المقدّمة ـ المقدمة الثالثة، في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم.

(٣) الجديد حول الشرق القديم ـ مرجع سابق.

(٤) مجلة البناء اللبنانية ـ ١٦/٧١٤ ـ ١٩٨٩/٢ ـ من حوار أجريناه مع د. حسني حداد.

(٥) هنري فرانكفورت ـ فجر الحضارة في الشرق الأدنى القديم ـ ت: ميخائيل خوري ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

(٦) الوحدة الحضارية للوطن العربي من خلال المكتشفات الأثرية ـ وزارة الثقافة السورية ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ ٢٠٠٠.

(٧) د. سلطان محيسن ـ الصيادون الأوائل ـ دار الأبجدية ـ ١٩٨٩ ـ دمشق.

(٨) المرجع السابق.

(٩) المرجع السابق.

(١٠) د. حسين مؤنس ـ الحضارة ـ عالم المعرفة ـ الكويت ـ ٢٣٧ ـ ١٩٩٨.

(١١) غولايف ـ المدن الأولى ـ دار التقدم ـ موسكو ـ ١٩٨٩.

(١٢) د. سلطان محيسن ـ المزارعون الأوائل ـ دار الأبجدية ـ دمشق ـ ١٩٩٤.

(١٣) المرجع السابق.

(١٤) المرجع السابق.

(١٥) الجديد حول الشرق القديم ـ مرجع سابق.

(١٦) فيليب حتي ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٨٣. وكتابه: خمسة آلاف عام من تاريخ الشرق الأدنى ـ بيروت ـ ١٩٨٢.

(١٧) د. محمد حرب فرزات ـ مجلة المعرفة السورية ـ ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(١٨) مجلة البناء اللبنانية ـ ٧٢٩ ـ ٧٣٤ ـ محاضرات الرياضيات في حوض المتوسط، ١٩٩٠/٣/٣١ ـ ١٩٩٠/٥/٥.

(١٩) المرجع السابق.

(٢٠) المرجع السابق.

(٢١) المرجع السابق.

(٢٢) ول ديورانت ـ قصة الحضارة ـ ١٩٦٥ ـ ج١+ج٢ ـ الجامعة العربية.

(٢٣) د. حربي عطيتو ـ ملامح الفكر الفلسفي والديني في مدرسة الإسكندرية القديمة. دار العلوم ـ بيروت ١٩٩٢.

(٢٤) فيليب حتي ـ مرجع سابق.

(٢٥) جورج كونتنو ـ المدنيات القديمة في الشرق الأدنى ـ ت: متري شماس ـ سلسلة QUESAIS - JE

(٢٦) المرجع السابق.

(٢٧) يمكن الرجوع للمزيد حول هذا الموضوع، لكتاب فيليب حتي المذكور أعلاه، بالاضافة لكتاب قصة الحضارة. ول ديورانت.

(٢٨) كون أن للكنعانيين الباع الطويل والأول في ركوب البحار واستكشاف العالم.

(٢٩) ديورانت ـ مرجع سابق.

(٣٠) غولايف ـ مرجع سابق.

(٣١) كونتنو. مرجع سابق.

(٣٢) الثقافة العربية ـ الاسبانية عبر التاريخ. مجموعة باحثين ـ وزارة الثقافة ـ سورية ـ ١٩٩١.

(٣٣) الحوليات الأثرية السورية. مجلد٢٩ ـ ٣٠ ـ ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠.

(٣٤) المرجع السابق.

(٣٥) المرجع السابق.

(٣٦) أرنولد توينبي. تاريخ البشرية. ت: نقولا زيادة ـ الأهلية للنشر ـ بيروت ـ ١٩٨١.

(٣٧) فيليب حتي. مرجع سابق.

(٣٨) فيليب حتي. مرجع سابق.

(٣٩) جان بران. الفلسفة الرواقية. ت: جورج أبو كسم ـ دار الأبجدية ـ دمشق ـ ١٩٩٠.

(٤٠) فيليب حتي. مرجع سابق.

(٤١) المرجع السابق.

(٤٢) أرنولد توينبي. مرجع سابق.

(٤٣) فيليب حتي. مرجع سابق.

(٤٤) عيسى يازجي. مآثر سوريّة من العصر الروماني ـ دار فكر ـ بيروت ـ ١٩٩٠

(٤٥) المرجع السابق.

(٤٦) المرجع السابق.

(٤٧) المرجع السابق.

(٤٨) كثيراً مايرد في معرض البحوث التي تعنى بتاريخ وعمارة العصر الروماني، تعبير العمارة الرومانية في سورية. والحقيقة أن هذا التعبير يخالف الأسس العلمية والتاريخية، ونقترح أن يصبح العمارة السورية في العصر الروماني.

(٤٩) د. عدنان البني. أبولودور الدمشقي. وزارة الثقافة ـ سورية. ١٩٩٠.

(٥٠) المرجع السابق.

(٥١) أرنولد توينبي. مرجع سابق.

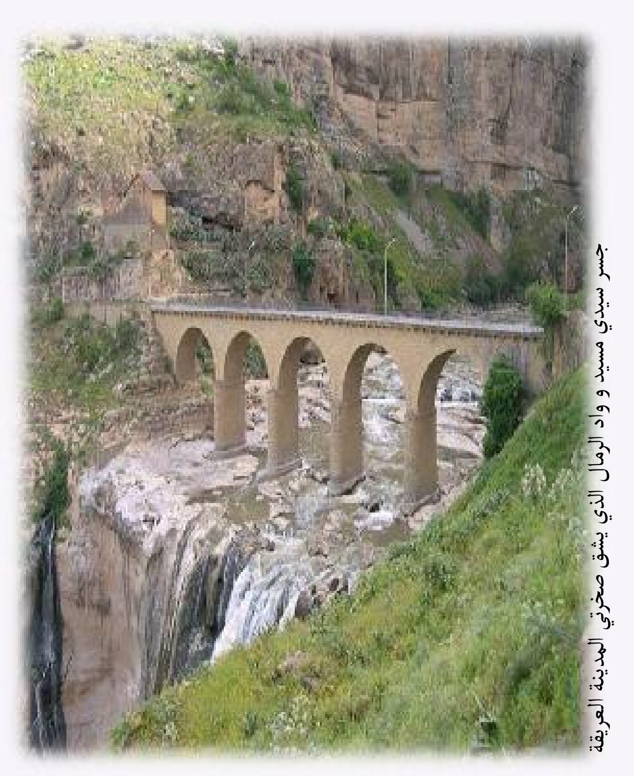
(٥٢) نينا بيغوليفسكايا ـ ثقافة السريان في القرون الوسطى. ت: د. خلف الجراد. دار الحصاد. ١٩٩٠. دمشق.

(٥٣) بيير روسي. التاريخ الحقيقي للعرب. ت: فريد جحا. وزارة التعليم. سورية.

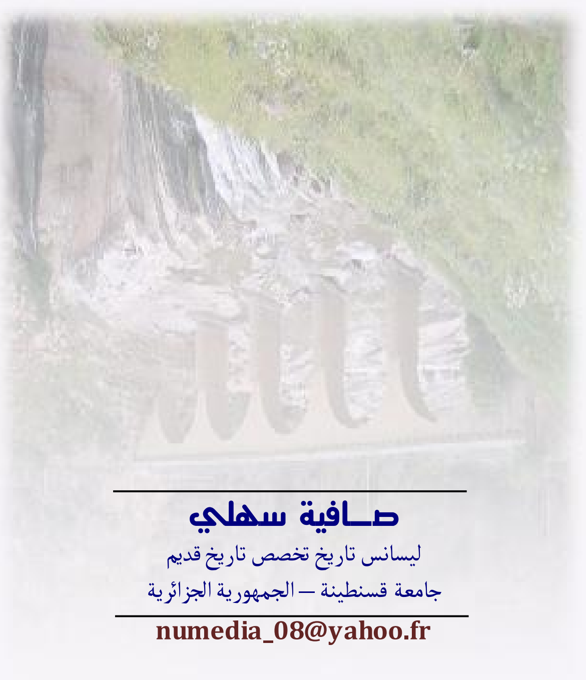
مراجع أخرى

- أندريه بارو. سومر. ت: د. عيسى سلمان ـ سليم التكريتي. بغداد ـ ١٩٧٩.
- نقولا زيادة. المسيحية والعرب. دار قدمس. دمشق. ٢٠٠٠.
- الحوليات الأثرية السورية. مجلد ٣٣ ـ ج٢ ـ ١٩٨٣.
- هورست كلينغل. آثار سورية القديمة. ت. قاسم طوير. وزارة الثقافة. سورية١٩٨٥.
- د. علي أبو عساف. آثار الممالك القديمة في سورية. وزارة الثقافة ـ ١٩٨٨.

جوانب من الحياة اليومية في سيرتا في القرن الثالث قبل الميلاد



جسر سيدي مسيد و واد الرمال الذي يشق صخرتي المدينة العريقة



صافية سهلي

ليسانس تاريخ تخصص تاريخ قديم

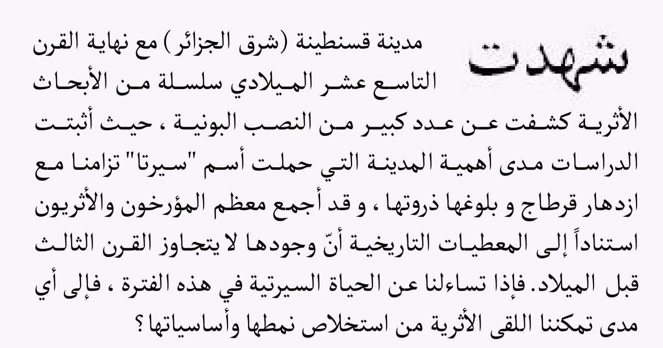
جامعة قسنطينة – الجمهورية الجزائرية

numedia_08@yahoo.fr

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

صافية سهلي ، جوانب من الحياة اليومية في سيرتا في القرن الثالث قبل الميلاد.-دورية كان التاريخية.-العدد الخامس ؛ سبتمبر٢٠٠٩. ص ٥٢ -٥٣.

(www.historicalkan.co.nr)



شهدت مدينة قسنطينة (شرق الجزائر) مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي سلسلة من الأبحاث الأثرية كشفت عن عدد كبير من النصب البونية ، حيث أثبتت الدراسات مدى أهمية المدينة التي حملت أسم "سيرتا" تزامنا مع ازدهار قرطاج و بلوغها ذروتها ، و قد أجمع معظم المؤرخون والأثريون استناداً إلى المعطيات التاريخية أنّ وجودها لا يتجاوز القرن الثالث قبل الميلاد. فإذا تساءلنا عن الحياة السيرتية في هذه الفترة ، فإلى أي مدى تمكننا اللقى الأثرية من استخلاص نمطها وأساسياتها؟

إن النقوش التي عثر عليها من خلال النصب البونية المكتشفة في المدينة تدلنا على النظام الإداري والاجتماعي والعقائدي[١] الذي لا يختلف عنه في قرطاج ، إذ يؤكد أندريه برتييه أن العادات الجنائزية ومختلف الطقوس الدينية كانت نفسها في سيرتا [٢] ، ولعلّ هذا التشابه أو التطابق جعل فريق من المؤرخين يؤكدون أنها لم تكن سوى مستعمرة فينيقية وامتداداً للقوة القرطاجية.

يعد معبد الحفرة من أهم وأقدم النصب الوارد ذكرها ، وقد صنف أندريه برتييه ، ورينيه شارلييه النقوش الثلاث مئة إلى بونيقية (punique) وبونيقية جديدة (néo-punique) ، أما فيما يخص تاريخ بناء المعبد فيفترض أن يكون حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، فإذا كان أقدم نص في المعبد (56 pun) يعود إلى ١٦٢ ق.م هذا لا يعني أنه تاريخ وضع الأسس الأولى لمعبد الحفرة [٣] لكنه استنتاج توصل إليه برتييه وزميله من خلال معادلة نسبية غير فاصلة في هذا الموضوع.

إذا أخذنا بعين الاعتبار البعد البونيقي في البناء الإجتماعي لسيرتا وهذا ما أشارت إليه معظم المصادر الأثرية ، فإن الحياة الدينية أخلصت للعقيدة الفينيقية بما فيها من طقوس وعادات قديمة مجتمعة في تقرب روحي للإله بعل أمون في كل زاوية من المدن النوميدية من بينها سيرتا[٤].

وإذا عدنا إلى نصوص الحفرة ، فقد أثبتت النقوش٢٧ الأولى رأي غابريال كامبس فيما يخص عبادة الإله بعل أمون ، إضافة إلى ذكر الإلهة تانيت في النقش(pun 2)[٥] ، وكانت الدلائل على استتباب الديانة الفينيقية في سيرتا كثيرة لاسيما تلك النقوش التي وجدت على صخر منحدر المنظر الجميل والكدية إذ ارتبط فيها اسم بعل أمون بتانيت ، كما كشف النقش (68pun) عن وجود مذبح للإله ملقرت[٦].

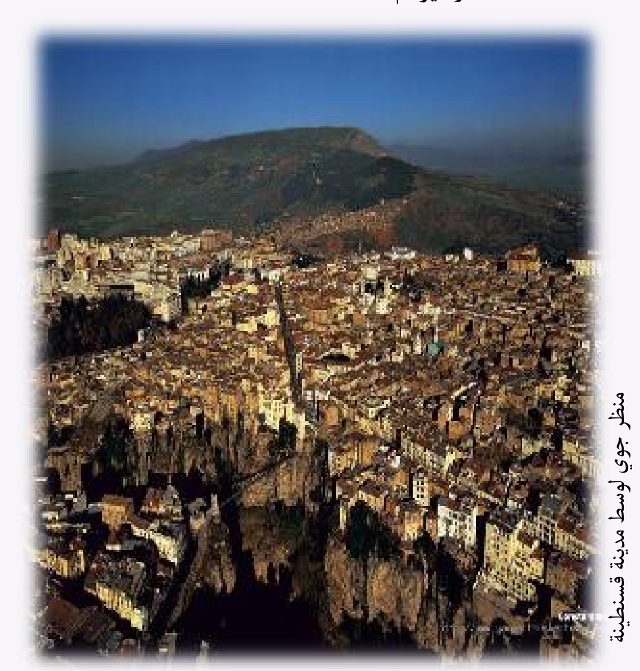
تجدر بنا الإشارة إلى ؛ بعض الغموض الذي يتخلل طقسا من الطقوس الممارسة في سيرتا وهو الذي يخص قرابين الأطفال ، إذ يعتقد برتييه أنه يمكن أن تكون حقيقية أو رمزية ، و ممّا لا شك فيه هو أن هذه الطقوس وأخرى هي ذاتها في اللقى الأثرية القرطاجية ، لكن البربر لم يفضلوا هذا النوع من الأضاحي ولا العادات الجنائزية التي يتم خلالها حرق الجثث[٧].

أحكم تنظيم مدينة سيرتا إدارياً وعسكرياً ومدنياً إلى حد التكامل المطلق بين القادة العسكريون والإداريون المقتدرون (scribes) ، يخضعون لسلطة عليا على رأسها شفطين (قاضيين) ينتخبان كل سنة [٨] ، وتم استنتاج ذلك من خلال ترجمة برتييه وشارلييه لعبارة تعني (deux suffètes)[٩].

وبحكم الحقبة التاريخية التي نحن بصدد دراستها ، تستوقفنا بعض التفاصيل في أهم جانب من جوانب الحياة آنذاك خاصة إذا صادفتنا في بعض المصادر التاريخية كلمة "Mishtar" و تعني القائد العسكري ، كما لم تخلو النصب البونية في سيرتا من إهداءات للآلهة ومناجاتها للنصر في المعارك ، فكان معظم هؤلاء القادة يحملون أسماء بونية: أريس(Aris) ، أريسام (Arisam) ، بدملقرت (Bodmalqart) ، حملقو (Hamilco)[١٠].

وقد كشف النص (pun 74) من نصوص الحفرة عن استخدام الأسلحة البونية في سيرتا[١١]: الرمح ، الترس البيضوي الشكل ، الخوذة المدببة ، القوس وخاصة السيف القصير ، وفي هذا الوصف يؤكد كامبس أنه لم يصادف عدّة القتال هذه لا في النصب القرطاجية ولا حتى في الشرق ، و إنما تشبه إلى حد كبير عدّة النوميد أو المور[١٢]. وهذا ضرورة حتمية لأخذ بعين الاعتبار البعد البربري في الكرونولوجيا الفينيقية.

على الرغم من تبجيل المجتمع السيرتي لحياته العسكرية والدينية ، لم يمنع نفسه من تطوير حياته الاقتصادية التي لم تخلو من مختلف أنواع الحرف والأنشطة البسيطة والمعقدة ، فماغون (Magon) ابن أدنبعل كان زعيما للتجار ، و عدربعل (Aderbaal) ابن عبد ملقرت قصابا ، وعبد ملقرت ابن أدونيبعل (Adonibaal) بناءاً ، و لم تكن التجارة صعبة على كل من بعل ياتون (Baalyaton) وعبد ملقرت (Abdmalkart) و غيرهم[١٣].


منظر جوي لوسط مدينة قسنطينة

لم تخلو اللقى الأثرية من الحلي المصنوعة من مختلف أنواع المعادن ، الزجاج الملون ، العملات البرونزية و الجرار(amhores) التي اختلفت الآراء حول محليتها ، فيفترض M.Cintas أن أغلب الجرار التي عثر عليها بالقرب من منطقة الخروب رودسية (من جزيرة رودس)[١٤] ، لأن رودس مثلت بين القرنين ٣ و٢ ق.م عاصمة اقتصاد العالم القديم و اشتهرت بصناعة الجرار ذات القبضتين لحفظ النبيذ وكانت تصدرها إلى مختلف المقاطعات من بينها سيرتا[١٥].

وقد مكنتنا المصادر الأثرية إلى حد ما معرفة بعض المظاهر الحياتية لمدينة سيرتا أو كرتن منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، حتى وإن كانت المقاطعة امتداداً اقتصادياً ، أو إدارياً لقرطاج ، فإن التاريخ لا يمكنه تجاهل مجتمع محكم التنظيم ، صنع مجداً و أرخ له في كل حرف بوني نقش على صخر.

الهوامش:

(1) André BERTHIER : La Numidie (Rome et le Maghreb) Paris 1981 , p 167
(2) A.BERTHIER : ibid. , p 176
(3) André BERTHIER et L'Abbé René CHARLIER : Le sanctuaire punique d'El Hofra à Constantine (Textes) , Paris 1955 , p 231
(4) G.CAMPS : aux origines de la Berberie , Massinissa ou les debuts de l'histoire . Alger 1961 , pp 259 ,260.
(5) A.BERTHIER et L CHARLIER : op-cit , pp 12,13.
(6) " " : ibid. , p236.
(7) A.BERTHIER : La Numidie , p 168
(8) A.BERTHIER : ibid , p 176
(9) A.B et L.CH : Le sanctuaire punique d'El Hofra , p 23
(10) A.BERTHIER : La Numidie ,p 168
(11) A.B : ibid. , p 171
(12) G.CAMPS : Massinissa ou les débuts de l'histoire , p 263
(13) A.BERTHIER : La Numidie , p168
(14) A.B et L CH : op-cit ,pp 231/232
(15) STEPHANE GSELL : Histoire ancienne de l'Afrique du nord .Tome IV . paris 1920 , pp 153 - 154.



أبو جعفر المنصور

"المؤسس الحقيقي للدولة العباسية"



عمـــــاد البحراني

عضو هيئة التحرير

كاتب وباحث - سلطنة عمان

imad-80@hotmail.com

- التعريف بأبي جعفر المنصور
- الأوضاع الداخلية والخارجية في عهده
- بـناء المنصور مدينة بغـداد
- صفـات المنصور
- ولايته العهد لابنه المهدي
- وفـاة المنصور

▪ الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عماد البحراني ، أبو جعفر المنصور "المؤسس الحقيقي للدولة العباسية".-دورية كان التاريخية.-العدد الخامس ؛ سبتمبر٢٠٠٩. ص ٥٤ -٥٨.

(www.historicalkan.co.nr)

Abu Jaafar Al-Mansour
The real founder of the Abbasid Empire



يتناول هذا البحث سيرة خليفة من أبرز خلفاء الدولة العباسية بشكل خاص وخلفاء المسلمين بشكل عام ألا وهو الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس والذي يعتبر المؤسس الدقيقي للدولة العباسية وذلك لما تميز به المنصور من شخصية فريدة وصفات مميزة وكذلك بسبب الانجازات الكبيرة التي استطاع أن يحققها أثناء فترة خلافته، حيث استطاع أن يوطد دعائم الدولة العباسية والتي أخذت بفضله طابعها المميز طيلة العصر العباسي الأول بعد أن قام بإزاحة أهم المعارضين لحكمه من الأسرة العباسية ومن خارجها.

أبوجعفر المنصور: هو عبدالله بن محمد بن علي العباسي ، أبو جعفر المنصور. ولد بالحميمة سنة ٩٥ هـ وأمه أم ولد اسمها سلامة. ترعرع في وسط المجتمع الهاشمي . وطلب العلم وهو شاب من مظانه وتفقه في الدين، ونال قسطا من علم الحديث ، فنشأ أديبا فصيحا ، ملما بسير الملوك .[١]

وحين انتقل أخيه أبو العباس السفاح من الحميمة إلى الكوفة كان معه . ولما أفضت الخلافة إلى بني العباس كان المنصور عضده الأقوى وساعده الأشد في تدبير الخلافة وفي سنة ١٣٦ هـ وهي السنة التي توفي فيها أبو العباس السفاح عقد هذا الأخير لأخيه أبوجعفر المنصور بالخلافة من بعده وجعله ولي عهد المسلمين وكان اذ ذاك أميرا على الحج ثم توفي السفاح وأبوجعفر في الحجاز فأخذ ابن أخيه عيسى بن موسى البيعة له بالأنبار وكتب إليه يعلمه بوفاة أبو العباس السفاح والبيعة له .

وقد تمت البيعة له يوم ٨ يونيو سنة ٧٥٤م واستمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد السابع من ذي الحجة سنة ١٥٨هـ الموافق ٨ أكتوبر سنة ٧٧٥م فكانت مدة خلافته ٢٢ سنة هلالية إلا ستة أيام .[٢]

الأوضاع الداخلية في عهده

تولى المنصور الخلافة وكانت الدولة لا تزال مضطربة ولم تتوطد أركانها بعد وكان الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات. وهذه الجهات هي: الأولى: منا فسة عمه عبدالله بن علي له في الخلافة وذلك بسبب مكانته المتميزة بين بني العباس ولأنه كان يدبر أمر جيوش الدولة من أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة ، وقد قام عبدالله بن علي بالخروج عن طاعة المنصور وبايع لنفسه بالخلافة في مدينة حران بالجزيرة معتمدا على الجيش الذي تحت قيادته والذي أعد لغزو الدولة البيزنطية .

وهكذا استخدم عبدالله بن علي هذا الجيش الذي أعد أساسا لغزو البيزنطيين لتحقيق أطماعه في الخلافة مدعيا أن السفاح أقامه وليا لعهده حينما أرسله لقتل مروان الثاني آخر خلفاء بن أمية.[٣] وبدأت الحرب بأن خرج أبو مسلم الخرساني من العراق متظاهرا بأنه يريد الشام وأرسل خطابا إلى عبدالله بن علي يخبره فيه أن المنصور قد ولاه على الشام وأنه لم يأمره بقتاله لكن هذه الحيلة لم تدخل على عبدالله بن علي الذي كان متحصنا بمدينة نصبين شمال العراق.[٤]

ودامت الحرب بين عبدالله بن علي وأبي مسلم حوالي ستة أشهر ،تمكن فيها أبي مسلم من هزيمة عبدالله بن علي سنة ١٣٧هـ . ففر عبدالله إلى أخيه سليمان والي البصرة فأخفاه عنده ثم سلمه إلى أبي جعفر في سنة ١٣٩هـ بعد أن حصل على الأمان له فسجنه المنصور ثم قتله بعد تسع سنين في سنة ١٤٧ هـ.[٥]

الثانية : نفوذ أبي مسلم الخرساني مؤسس الدولة العباسية فقد تمتع بتأييد الفرس فخشي المنصور من خطره لاسيما عندما أعلن عزمه العودة إلى خراسان بعد القضاء على ثورة عبدالله بن علي وربما كان يهدف إلى الاستقلال بخراسان ثم السيطرة على الخلافة ، كما كانت هناك أسباب أخرى جعلت المنصور يقدم على التخلص منه وهي :

١- تمادي أبومسلم في زهوه واسرافه بقتل الأبرياء .
٢- تقدمه على المنصور في طريق الحج وعدم انتظاره إياه في طريق العودة عندما بلغه نبأ وفاة السفاح .
٣- بعد وفاة السفاح أرسل أبومسلم رسالة إلى المنصور يعزيه دون أن يهنأه بالخلافة .
٤- تجرأه على قتل سليمان بن كثير الخزاعي أحد شيوخ الدعوة العباسية دون استشارة المنصور .
٥- تحديه لأمر المنصور عندما صرفه عن ولاية خراسان وولاه الشام ومصر وقوله :"هو يوليني الشام ومصر وخراسان لي".[٦]
٦- تقدمه لأسمه أعلى اسم الخليفة في رسائله وانتسابه إلى سليط ابن عبدالله بن عباس .[٧]

وقد لجأ المنصور إلى سياسة اللين وأساليب الدهاء فأخذ يؤمنه ويستمليه ويسترضيه وأرسل إليه من يخوفه من مغبة معصيته وواصل المنصور سياسة الترغيب والتهديد حتى انخدع أبومسلم وذهب للقائه بمدينة المدائن فأحسن المنصور استقباله أول الأمر ثم واجهه بالتهم المنسوبة إليه وبعد أن أنهى المنصور من مواجهة خصمه بالتهم المنسوبة إليه أمر رجاله المسلحين بقتله في مجلسه سنة ١٣٧هـ فتخلص بذلك من أكبر خطر مباشر على الدولة باعتراف المنصور نفسه ، إذ يروي أنه قال لابن أخيه عيسى بن موسى حينما أبدى احتجاجا على الطريقة التي قتل بها أبو مسلم :" والله ليس لك على وجه الأرض عدو أعدى منه وهل كان لكم ملك في حياته" .[٨]

وقد قامت عدة حركات كردة فعل على مقتل أبومسلم كان أشهرها حركة سنباذ وحركة الراوندية , لكن المنصور حاربها دون هوادة حتى نجح في القضاء عليها.

الثالثة: خوفه من بن عمه آل علي بن أبي طالب الذين لا يزال لهم في قلوب الناس مكان مكين وأخصهم محمد بن عبدالله بن الحسن ابن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية والملقب بالمهدي ، حيث كان محمد ذو النفس الزكية يرى أنه أحق بالخلافة من بني العباس استنادا إلى حقه الشرعي بصفته حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب واستنادا إلى مبايعة الهاشميين له بالخلافة أواخر الدولة الأموية .





وقد اتفق محمد ذو النفس الزكية المتواجد في المدينة المنورة مع أخيه إبراهيم الموجود في البصرة أن يعلنا الثورة في الوقت نفسه ولكن حدث أن مرض إبراهيم بالجدري فتأخرت ثورته مدة شهرين مما أتاح الفرصة للمنصور كي يقضي على الأخوين واحدا بعد الأخر.[٩]

فانفرد المنصور بمحمد ذو النفس الزكية وسير جيشا كبيرا بقيادة ولي عهده عيسى بن موسى وحميد بن قحطبة فاشتبك هذا الجيش مع أنصار محمد ذو النفس الزكية بالقرب من المدينة فقتل حميد بن قحطبة محمد ذو النفس الزكية واحتز رأسه وحمله للمنصور سنة ١٤٥هـ.

أما أخوه ابراهيم فقد أعلن الثورة في البصرة واستولى عليها فأرسل المنصور إليه جيشا بقيادة عيسى بن موسى وسعيد بن مسلم واشتبك إبراهيم مع الجيش العباسي في الموضع المعروف باسم باخمرى القريب من الكوفة فانهزم وقتل هناك في نفس العام وحزوا رأسه واتوا به عيسى بن موسى.[١٠]

وبعد القضاء على ثورة العلويين شعر المنصور سنة ١٤٥هـ وهي السنة التي انتصر فيها على جميع الثورات أنه صار خليفة حقا بدون منازع لذلك عمد إلى تخليد هذا الانتصار فلقب نفسه بالمنصور في تلك السنة.[١١]

الأوضاع الخارجية في عهده

في عهد المنصور هرب عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان إلى بلاد الأندلس وأسس بها الدولة الأموية هناك وقد لقب بالداخل بسبب دخوله الأندلس وقد استطاع بمساعدة القبائل اليمنية أن ينتصر على المضرية ويستقل بحكم الأندلس فكانت هذه أول بلد اقتطعت من الخلافة الإسلامية الكبرى بالمشرق.

وقد أراد المنصور أن يقضي على سلطان عبدالرحمن الأموي فبعث العلاء بن مغيث الجذامي إلى الأندلس لمحاربة عبدالرحمن ولكن الأمير تمكن من إيقاع الهزيمة بالعباسيين في قرمونه.

كما قامت في المغرب أثناء عهد المنصور دولتان خارجيتان احدهما تدين بالمذهب الصفري نسبة إلى زياد بن محمد الأصفر وهم يعرفون أيضا بالزيادية وهي دولة بني مدرار أو بني واسول الصفرية التي قامت في منطقة سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى سنة ١٤٠ هـ /٧٥٧م ومؤسسها يدعى عيسى بن يزيد المكناس الصفري.

والدولة الثانية هي الدولة الرستمية الأباضية التي قامت في المغرب الأوسط سنة ١٤٤هـ/٧٦١م ومؤسسها هو عبدالرحمن بن رستم وهو فارسي الأصل وكانت عاصمة هذه الدولة هي مدينة تاهرت.

أما مملكة الروم التي كانت تحاد الخلافة الإسلامية من الشمال فقد انتهزت فرصة انشغال العباسيين بمشاكلهم وثوراتهم الداخلية فقد أغاروا سنة ١٣٨هـ على ملطية فدخلوها عنوة وقهروا أهلها فقام المنصور بتحصين هذه المناطق ومنحهم الإقطاعات والمزارع ووضع لهم نظاما يسيرون عليه في غاراتهم على الأراضي البيزنطية وهو نظام الصائف والشواتي. وهكذا استطاع المنصور أن يضع حدا لمطامع البيزنطيين وعدوانهم بفضل هذا النظام الثغري.[١٢]



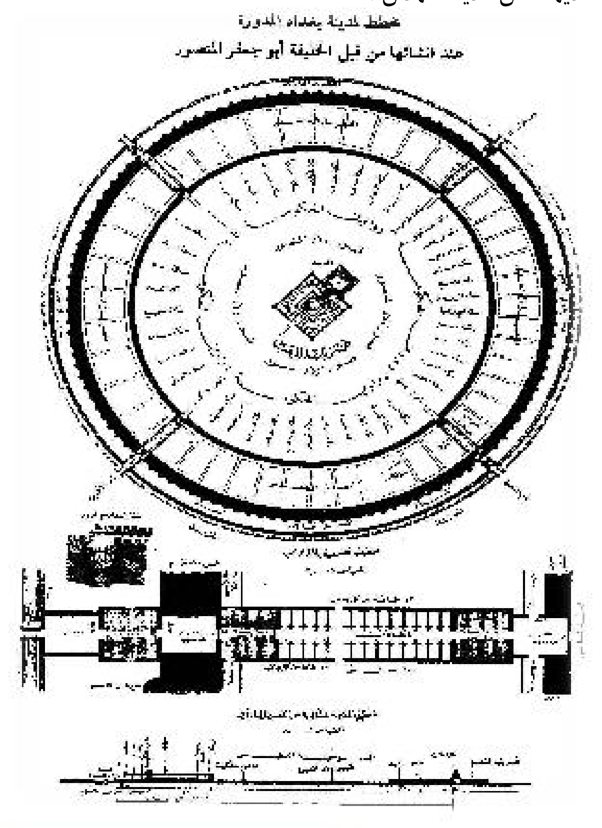
بناء المنصور مدينة بغداد

يقترن اسم أبوجعفر المنصور بمدينة بغداد التي شيدها في سنة ١٤٥هـ ويرجع سبب بنائه لها على حد قول ابن الأثير إلى أنه لما ثارت الراوندية في الهاشمية الواقعة بنواحي الكوفة كره سكانها لذلك ولجوار أهل الكوفة أيا فاته كان لا يأمن أهلها على نفسه وكانوا قد أفسدوا جنده فخرج بنفسه يرتاد له موضعا يسكنه هو وجنده فانحدر إلى جرجرايا ثم أصعد إلى الوصل وسار نحو الجبل في طلب منزل يبنى له حتى اهتدى إلى موضع بغداد.[١٣]

إن اسم بغداد مشتق على الأرجح من صيغة فارسية مركبة من كلمتين هما باغ وداد وتعني عطية الله. وذكر المؤرخون والجغرافيون العرب عدة اشتقاقات لهذا الاسم وسماها المنصور مدينة السلام تيمنا بجنة الخلد أو لأن وادي دجلة كان يقال له وادي السلام وكان هذا الاسم هو الاسم الرسمي الذي يذكر في الوثائق وعلى المسكوكات والأوزان.[١٤]

وقد استغرق بناء بغداد أربعة عوام تقريبا من ١٤٥ إلى ١٤٩ هـ /٧٦٢ – ٧٦٦م وقبل التخطيط احضر المنصور المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والمساحة وتقسيم الأرض كما جلب إليها الصناع والفعلة من الشام والموصل والبصرة والكوفة وإيران. ويروي المسعودي أنه اشتغل في بناء المدينة ٥٠ ألف عامل يوميا وأنه أنفق عليها ثمانية عشر مليونا من الدينارات وقد جعل المنصور على العمال عددا من المراقبين كان أحدهم الإمام أبا حنيفة النعمان الذي عهد إليه بعد الطوب اللبن والأجر فابتكر طلايقة لعدة بالقصبة توفيرا للجهد والوقت فاستفاد الناس من ذلك.[١٥]

ولقد بنيت بغداد على شكل دائري وهو اتجاه جديد في فن بناء المدن الإسلامية لأن معظم المدن الإسلامية كانت إما مستطيلة كالفسطاط أو مربعة كالقاهرة أو بيضاوية كصنعاء، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن المنصور قد تأثر بهندسة بعض العواصم الفارسية القديمة مثل مدينة همذان.[١٦]





صفات المنصور

كان المنصور من أعظم رجال بني العباس فقد كان في خلقه الجد والصرامة والبعد عن اللهو والترف . فقد اتصف بالشدة والبأس واليقظة والحزم والصلاح والاهتمام بمصالح الرعية وعرف بالثبات عند الشدائد ولاشك بأن هذه الصفة كانت من بين أبرز الصفات التي كفلت له النجاح في حكم الدولة العباسية .

وذكر عن حماد التركي أنه قال :" كنت واقفا على رأس المنصور فسمع جلبة في الدار فقال ما هذا يا حماد أنظر فذهبت فإذا خادم له قد جلس بين الجواري وهو يضرب بالطنبور وهن يضحكن فجئت فأخبرته فقال وأي شيء الطنبور فوصفته له فقال له أصبت صفته فما يدؤيك أنت ما الطنبور فقال رأيته بخراسان ثم قام حتى أشرف عليهم فلما بصروا به تفرقوا فأخذ الضارب وكسر الطنبور على رأسه وأخرجه من قصره .(١٧)

وقد عرف عن المنصور ميله إلى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت بالأموال خزائنه ، ولم يكن المنصور يعطي الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف وإنما كانت أعطياته أرزاق العمال أيام المنصور ٣٠٠ درهم ولم يزل الأمر على ذلك إلى أيام المأمون فكان أول من سن زيادة الأرزاق هو الفضل بن سهل .(١٨)

هذه السياسة في مجموعها وان كانت تبدو في مظهرها بخلا إلا أنها في الحقيقة سياسة اقتصادية حكيمة مكنته من الإنفاق على مرافق الدولة الهامة مثل الإنفاق على الجيوش وعلى الحروب التي كان لا بد منها للقضاء على الثورات التي هددت الدولة من كل جانب ومثل بناء عاصمة جديدة للدولة وقد استطاع المنصور في النهاية أن ينتصر على خصومه وأن يبني مدينة بغداد بفضل حرصه على ادخار الأموال واستعداد لأي كارثة قد تصيب الدولة .

ويروي الطبري أن المنصور أوصى ابنه المهدي بقوله : "وأنظر إلى هذه المدينة أي بغداد فإنها بيتك وعزك قد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك فيها كفاية الأرزاق والجند والنفقات وعطاء الذرية (أي الأسرة العباسية) ومصلحة الثغور فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزا مادام بيت مالك عامرا ".(١٩)

ولاية العهد لابنه المهدي

كانت ولاية العهد في خلافة المنصور لابن أخيه عبسى بن موسى وليس لابنه المهدي ولهذا فقد اخذ المنصور يستعمل مع ابن أخيه وسائل الترهيب والترغيب حتى أجابه إلى طلبه وخلع نفسه منها سنة ١٤٧هـ فصارت ولاية العهد للمهدي أولا ثم لعيسى بن موسى بعده . بالرغم من أن عيسى بن موسى كان قد أنقذ له ملكه أكثر من مرة .ويبدو أن الخليفة فكر في خلع ابن أخيه في بداية عهده.

فيذكر الطبري أنه أوفد عيسيى بن موسى لمحاربة العلويين وفي نيته أن يتخلص أما من ولي عهده ليحول الخلافة إلى ابنه المهدي أو من محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم وقال: "لا أبالي أيهما قتل صاحبه".(٢٠)

وفاة المنصور

في سنة ١٥٨هـ حج المنصور وفي أثناء عودته من الحج مرض وتوفي ليلة السبت ٦ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ ولم يحضر عند وفاته إلا الربيع الحاجب فكتم موته ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ثم أصبح فحضر أهل بيت الخلافة وجلسوا مجالسهم فأخذ الربيع بيعتهم للمهدي ولعيس بن موسى من بعده ثم دعا بالقواد فبايعوا وتوجع العباس بن محمد بن عب ومحمد بن سليمان بن علي إلى مكة ليلبيعوا الناس فبايعوا للمهدي بين الركن والمقام .(٢١)

وصية أبو جعفر المنصور

قال المنصور لولده وولي عهده المهدي: "ولدت في ذى الحجة ، ووليت في ذى الحجة ، وقد هجس في نفسى أنى أموت في ذى الحجة من هذه السنة ، وإنما حدانى على الحج ذلك ، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدي ، يجعل لك في كربك وحزنك فرجًا ومخرجًا ، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب. يا بنى: أحفظ محمدًا في أمته ، يحفظك الله ، ويحفظ عليك أمورك ، وإياك والدم الحرام ، فإنه حوبٌ (إثم) عند الله عظيم ، وعار في الدنيا لازم مقيم ، والزم الحدود ، فإن فيها خلاصك في الآجل ، وصلاحك في العاجل ، ولا تعتد فيها فتبور ، فإن الله تعالى لو علم شيءًا أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمرٍ به في كتابه. واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه، أنه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فسادًا ، مع ما ادّخر له عنده من العذاب العظيم ، فقال: (إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) سورة المائدة ، آية ٣٣. فالسلطان يا بنى حبل الله المتين ، وعروته الوثقى ، ودينه القيم ، فاحفظه وحصنه ، وذُبَّ عنه، وأوقع بالملحدين فيه ، وأقمع المارقين منه ، واقتل الخارجين عنه بالعقاب، ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن ، واحكم بالعدل ولا تشطط ؛ فإن ذلك أقطع للشغب ، وأحسم للعدو ، وأنجع في الدواء ، وعفّ عن الفيء ، فليس بك إليه حاجة مع ما خلفه الله لك ، وافتتح عملك بصلة الرحم وبر القرابة ، وإياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية، واشحن الثغور ، واضبط الأطراف ، وأمّن السبل ، وسكن العامة، وأدخل المرافق عليهم ، وادفع المطاردة عنهم ، وأعد الأموال واخزنها ، وإياك والتبذير ، فإن النوائب غير مأمونة ، وهي من شيم الزمان ، وأعد الكراع والرجال والجند ما استطعت ، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى الغد ، فتتدارك عليك الأمور وتضيع ، جد في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولا فأولا ، واجتهد وشمر فيها ، وأعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وباشر الأمور بنفسك ، ولا تضجر ولا تكسل ، واستعمل حسن الظن بربك ، وأ ىء الظن بعمالك وكتَّابك ، وخذ نفسك بالتيقظ ، وتفقد من تثبت على بابك ، وسهّل إذنك للناس ، وانظر في أمر النزاع إليك ، ووكل بهم عينًا غير نائمة ، ونفسًا غير لاهية ، ولا تنم ، وإياك ، فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ، ولا دخل عينه النوم إلا وقلبه مستيقظ. يا بنى: لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح الرعية إلا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل ، هذه وصيتى إليك ، والله خليفتى عليك".

تناولنا في بحثنا هذا سيرة الخليفة العباسي أبوجعفر المنصور بدءا من تولية منصب الخلافة بعد وفاة أخيه أبو العباس السفاح سنة ١٣٦هـ/٧٥٤م مرورا بالحروب التي خاضها ضدأبرز خصومه والمنافسين له على منصب الخلافة كعمه عبدالله بن علي وأبومسلم الخرساني ومحمد ذو النفس الزكية وحركتي سنباذ والرواندية وكيف استطاع أن يتغلب عليهم ويحكم سيطرته على شؤون الدولة ويوطد دعائمها ، وتناولنا كذلك الأوضاع الخارجية في عهده والدول التي استطاعت الانفصال عن الخلافة العباسية في المشرق وأهمها الدولة الأموية في الأندلس والصفرية في المغرب والرستمية في المغرب الأوسط ، ثم تطرقنا إلى أسباب وطريقة بناءه لمدينة بغداد وهو العمل الذي اقترن دوما باسمه ولا تكاد تذكر بغداد حتى يذكر معها اسم المنصور وبفضله خلد اسمه في التاريخ ، ثم تطرقنا بعد ذلك إلى ولايته العهد لابنه المهدي بعد أن خلع ابن أخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد وانتهاءً بوفاته سنة ١٥٨هـ/٧٧٥م .

الهوامش

(١) ابن كثير – البداية والنهاية في التاريخ ج١ ص١٢٢، ١٢١.
(٢) الشيخ محمد الخضري بك- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية "الدولة العباسة" ص٨١.
(٣) المسعودي – ج٣ ص٢٨٩.
(٤) الشيخ محمد الخضري بك – مرجع سبق ذكره - ص٨٥.
(٥) المسعودي - ج٣ ص٣٠٥.
(٦) اليعقوبي - ج٢ ص٣٦٥، ٣٦٦ .
(٧) الدوري - العصر العباسي الأول ص٢٥.
(٨) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٣٨ .
(٩) د. أحمد مختار العبادي – في التاريخ العباسي والفاطمي ص٥٢.
(١٠) ابن الأثير - ج٥ ص ٥٧٠ .
(١١) د.أحمد مختار العبادي – مرجع سبق ذكره- ص٥٣ ، ٥٤ .
(١٢) د.أحمد مختار العبادي – مرجع سابق - ص٦١.
(١٣) د. محمد سهيل طقوش - تاريخ الدولة العباسية ص٧١
(١٤) ابن الأثير - ج٥ ص٥٥٨ .
(١٥) الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد ج١ ص٧١.
(١٦) د.أحمد مختار العبادي – مرجع سابق - ص٥٦
(١٧) الشيخ محمد الخضري بك –مرجع سبق ذكره - ص٨١.
(١٨) المرجع نفسه - ص٨٤ ، ٨٥.
(١٩) د.أحمد مختار العبادي – مرجع سابق - ص٦٦.
(٢٠) الطبري – مرجع سبق ذكره - ج٧ ص٥٧٧ .
(٢١) الشيخ محمد الخضري بك –مرجع سبق ذكره - ص٨٥.

المصادر:

١- الطبري ، أبوجعفر محمد جرير - تاريخ الرسل والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .
٢- الخطيب البغدادي ، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي – تاريخ بغداد . دار الكتب العلمية ، بيروت .
٣- ابن كثير الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي – البداية والنهاية في التاريخ. دار المعارف بيرون ط ٢، ٩٧٧ م.
٤- البلاذري ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر –فتوح البلدان . تحقيق عبدالله وعمر أنيس الطباع. دار النشر للجامعيين ،١٩٥٧م .
٥- ابن الأثير (عز الدين) – الكامل في التاريخ ، القاهرة ،١٣٤٨هـ .
٦- المسعودي ، أبوالحسن علي بن الحسن – مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار الأندلس بيروت .
٧- اليعقوبي . أحمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح – تاريخ اليعقوبي . تحقيق عبد الأمير مهنا ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات .

المراجع:

٨- العبادي ، د.أحمد مختار – في التاريخ العباسي والفاطمي ، دار النهضة العربية . بيروت ١٩٧٢م.
٩- الدوري ، عبد العزيز – العصر العباسي الأول . دار النهضة بيروت . ط٢ ، ١٩٨٨م .
١٠- الخضري ، الشيخ محمد – محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة العباسية. المكتبة التجارية الكبرى ، ط ١٠ ، القاهرة .
١١- سالم ، د.السيد عبد العزيز ، دراسات في تاريخ العرب ج٣، العصر العباسي الأول . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية.
١٢- طقوش ، د. محمد سهيل – تاريخ الدولة العباسية ، دار النفائس بيروت ، ط٣ ، ٢٠٠١م.



من مقالات ودراسات الأستاذ عماد البحراني:

- نكسة يونيو ١٩٦٧م " أسبابها ونتائجها"
- موحد عمان "قابوس بن سعيد".
- فتح القسطنطينية في عهد السلطان محمد الفاتح ١٤٥٣م.
- دولة الأدارسة في المغرب الأقصى (١٧٢ – ٣١١ هـ)
- حربظفار (١٩٦٥-١٩٧٥م).
- جمال عبد الناصر من الثورة إلى النكسة (١٩٥٢-١٩٦٧م).
- أبو جعفر المنصور " المؤسس الحقيقي للدولة العباسية"

عندما تبوح "النقود" بأسرار التاريخ





يسري عبد الغني عبد الله
باحث ومحاضر
في الدراسات العربية والإسلامية والتاريخية
القاهرة –جمهورية مصر العربية
ayusri_a@hotmail.com

■ الاستشهاد المرجعي بالمقال:
يسري عبد الغني عبد الله ، عندما تبوح النقود بأسرار التاريخ.-دورية كان التاريخية.-العدد الخامس ؛ سبتمبر٢٠٠٩. ص٥٩ – ٦١.
(www.historicalkan.co.nr)

يعتبر علم المسكوكات (النوميات) أو دراسة النقود من العلوم التي لا غنى عنها للباحث التاريخي أو الأثري ، كذلك من المهم أن يلم به المثقف المهتم بالعلوم الإنسانية ، لأن النقود هي عماد دراسة الاقتصاد القديم ، ومرآة النشاط التجاري والتعاملات بين شعوب العالم.

والمسكوكات دليل تاريخي واضح لما تحمله من تاريخ ضربها ، واسم الملك أو الإمبراطور وشعار الدولة سواء كان رمزيًا أو دينيًا ، كما أن الملوك والقادة في العصر القديم استخدموا النقود لنشر أفكار معينة بين الناس لأنها أسرع تداولا من أي شيء آخر ، ودراسة الشعارات المصورة على العملة لا تزيد معرفتنا بقادة وآلهة الشعوب القديمة فحسب ، بل تحيطنا علمًا بالأفكار والإحساسات التي ترمز لها الشعارات والصور .

والعملة لا تحدد تاريخها فقط ، بل العثور عليها في مكان معين يساعدنا أيضًا على تحديد تاريخ المكان ، فلو أننا عثرنا على عملة داخل بيت قديم مثلا نستطيع أن نقارن بين عمر الدار وتاريخ العملة ، أما إذا عثرنا مثلا على عملة في أساس بيت فلا بد أن تكون العملة أقدم من البيت نفسه ، فهو إذًا وسيلة مهمة لتحديد التواريخ.

إن العملة القديمة مرآة الاقتصاد ، لأن فكرة العملة ظهرت بهدف تسهيل النشاط التجاري ، فالتجار قبل ابتكار العملة كانوا يتعاملون بقطع المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة ، ثم لجئوا إلى وضع أختامهم عليها لضمان نقاوة معادنها ووزنها ، وقد ظهر هذا التطور في بلدان أسيا الصغرى خلال القرن التاسع قبل الميلاد.

كان المعدن المفضل لسك العملة آنذاك هو خليط من سبيكة الذهب والفضة بنسب معينة ، ويسمى الخليط الإلكترون ، وتسمى العملة المسكوكة من الإلكترون بالبيليون.

ولما بدأت فكرة الدولة تزداد وضوحًا وأصبحت أجهزتها تشرف على حركة التجارة نظرًا لشدة التنافس عليها بين المدن المختلفة تدخلت حكومة الدويلات لوضع ضمان على هذه القطع المعدنية بأن الدولة تتعهد بضمان قيمة وزنها ونقاء معادنها.

ويعتقد علماء المسكوكات أن أول دولة توصلت إلى ذلك هي مملكة ليديا في أسيا الصغرى ، وسرعان ما أعجب هذا التصرف المدن الإغريقية التجارية التي كانت تنتشر على طول ساحل أسيا الصغرى وفي بحر إيجة ، وهي مدن كان عملها الأول بل والوحيد التجارة بين شعوب هذه المنطقة.

وعليه فقد وجدت حكومات المدن الإغريقية أن في ضمان الدولة لقطع المعادن المستخدمة لتبادل قيمة الأشياء المباعة ضمان كبير لاستقرار التجارة الخارجية وضمانها ولذلك لجئوا إلى إتباع هذا النظام. وقد ناسب وضع الشعار الخاص بكل مدينة على قطع المعدن اتجاه دويلات المدن الإغريقية التي كانت تحرص على توكيد شخصيتها واستقلالها.

ومنذ عام ٧٠٠ ق.م بدأت النقود الإغريقية تظهر في مناطق واسعة من حوض البحر الأبيض المتوسط ، في مصر وسوريا وشمال أفريقيا مما يعكس حجم التجارة بين مصر والمدن الإغريقية في أسيا الصغرى أو في بحر إيجة ، بل أنها الدليل الوحيد على قيام هذه التجارة ، والمعروف تاريخيًا أن مصر كانت بلدًا مكتفيًا اقتصاديًا في العصور القديمة إلا من خشب الأرز و الفضة لأنها كانت معدنًا نادرًا بعكس الذهب الذي كان متوافرًا بشكل كبير في مصر .

ومن أجل هذا حرصت المدن الإغريقية على سك نقودها من الفضة كي تقدمها إلى المصريين في مقابل القمح الذي كان فائضًا عن حاجة مصر حيث تنتجه حقولها بوفرة ، ولهذا يجد الدارس لتاريخ العلاقات التجارية لمصر والبلاد المجاورة لها ، يجد أمامه مجموعة كبيرة من النقود الفضية لعدد كبير من المدن الإغريقية ، ومن ثم يستطيع أن يحدد نسبة التعامل مع كل منها والتطور الذي يطرأ على هذا التعامل نتيجة لتغير الأحوال السياسية في العالم ، وتسابق المدن فيما بينها لاحتكار سوق التجارة الدولية مع مصر .

والعملة ترتبط بقوة الاقتصاد المحلي لأن ذلك ينعكس على مركزها الدولي ، وقد كانت مدينة قورينه (قوريني) الإغريقية في ليبيا مشهورة بتصدير نبات السلفيوم الطبي الذي كان الطلب عليه شديدًا في العالم الخارجي ، ولقد وضعت مدينة قورينه رسمًا لهذا النبات على عملتها كرمز وشعار للمدينة ، ومن ثم نجد هذه العملة منتشرة في بقاع واسعة من مصر وبلاد اليونان وإيطاليا وأسيا الصغرى .

ولما حاولت روما أن تفرض سيادتها سياسيًا على بلدان البحر المتوسط عقب هزيمة هانيبال في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد لجأت إلى دعم الدينار الروماني كي يصبح عملة لها احترامها بين بلدان البحر المتوسط بل أن مصر البطلمية خفضت عملتها آنذاك حتى تصبح مساوية لقيمة الدينار الروماني ، وحذا حذو مصر سائر الممالك الهيلستينية ، وكان ذلك بداية السيطرة الفعلية للرومان على اقتصاديات بلدان البحر المتوسط.

وكما أن النقود هي المقياس الدقيق للتجارة والسيطرة ، فإن الدولة هي أيضًا مقياس لحالة الاقتصاد الداخلي أو القومي ، فقديمًا كانت الدولة الغنية تحرص على وزن العملة ونقاوة معدنها سواء كان سبكها من الذهب أو الفضة ، وفي حالة إفلاس الاقتصاد أو تعرض الدولة لمتاعب اقتصادية فإنها تلجأ إلى تخفيض وزن العملة ، أو تقليل نسبة المعدن الثمينة فيها ، وتخلطها بمعادن رخيصة مثل البرونز أو القصدير .

وقد لجأت الإمبراطورية الرومانية عدة مرات إلى تخفيض عملتها على أمل في إعادة تنشيط اقتصادها ، وفي مصر مثلا ينعكس الخراب الاقتصادي للبلاد خلال حكم الرومان في القرن الثالث الميلادي بإخفاء العملة الفضية التي كنا نراها في بداية الحكم الروماني وتحولها إلى شبه برونزية أطلق عليها الرومان العملة الأهلية أو المحلية ، بينما بقيت العملة الفضية رمزًا غير موجود في الواقع تحسب على أساسة الضرائب المقررة .

ومن مقاييس الازدهار في بلاد العالم القديم تنوع فئات العملة إلى درجات متدرجة ، وكلما كان أصغر فئة موجودة فمعنى هذا أنها مطلوبة في التعامل ، ومعنى ذلك أن نجد الفلس أو المليم أو السنت ، متواجدًا بكثرة في الأسواق وبالتالي نعرف أن هناك رواجًا تعامليًا ، ورخاء اقتصاديًا ، أما إذا اختفت هذه الفئات الصغيرة أصبح الثقل مركزًا على العملات الكبيرة ، وكان هذا أكبر دليل اقتصادي على ارتفاع الأسعار وازدياد حجم التضخم .

ويستطيع الباحث في التاريخ أن يدرس ذلك عن طريق دراسة شاملة للعملة ، وبالطبع يجب أن يكون لديه خلفية في علم الاقتصاد حتى يستطيع أن يتفهم ويتبين مثل هذه الأمور وبالتالي يصبح حكمه سليمًا.

إن دراسة العملة علم وفن وتاريخ ، علم لأنه أصول وقواعد يجب أن تعرف وتتبع ، وفن لأن العملة مجال دراسة فنية وتصويرية ، وتاريخ لأنه يسهل تصنيفها زمنيًا وحسب الأماكن التي ضربت فيها ، فضلا عن النقوش والتواريخ التي تحملها العملة.

ولهذا ساهم علم دراسة النقود أو العملات مساهمة كبيرة في إثراء المعرفة التاريخية ببلدان العالم القديم والحديث خاصّة عندما تصمت الوثائق أو تعجز عن البوح أو التعبير ، أو تكون نادرة ، فعلى سبيل المثال : في خلال القرن الثالث الميلادي ، والذي يعتبر أفقر عصور الإمبراطورية الرومانية تاريخًا ، إذ لا يوجد كتابات ذات أصالة يمكن أن تفيد الباحث أو الدارس ، والنقوش نادرة ، ووثائق البردي لا توجد سوى في مصر ، وكلها موضوعات محلية واجتماعية ، هنا لا يوجد أمام الباحث سوى دراسة العملة كي يتعرف على شخصيات الأباطرة والحكام ، والتطور الاقتصادي والسياسي في تلك الفترة.

فللعملة وجهان : الوجه والظهر ، على الوجه نجد عادة صورة الإمبراطور أو الملك و كذلك اسمه ولقبه وتاريخ توليته مقاليد الحكم ، وعلى الظهر نشاهد رمز المدينة أو شعارها أو رمز مناسبة تاريخية معينة مثل : ضم مملكة أو قيام دولة جديدة ، وكل ذلك دلائل تاريخية معتبرة يجب أن توضع في الحسبان.

كما أن العملة تكشف عن هوية كثير من الجماعات السياسية التي كان لها كيان خاص مكنها من سك عملة كرمز لسيادتها ووجودها السياسي الفاعل. وعلى ظهر العملة عادة ما يوضع رمز المدينة أو الدولة ، وغالبًا ما يعبر عن أسطورة معينة لها علاقة بالدولة أو عن مناسبة معينة مثل النقود التذكارية ، وهذا يجعل دراسة النقود مصدرًا مهمًا لتاريخ الأساطير والتقاليد والفنون بوجه عام.

كما أن دراسة النقود توضح لنا مدى ازدهار التجارة أو فتورها وعلاقات الدول والمقاطعات بعضها ببعض مثلما الحال في أوربا إبان العصور الوسيطة ، كما أن انتشار العملة في مناطق خارج البلاد التي سكت فيها تبين مدى النشاط السياسي والتجاري لبعض الدول ، مثل العملة الصينية والهندية التي عثر عليها في شرق القارة الإفريقية ، وكذلك العملة العربية التي عثر عليها في شمال غرب أوربا ، وآثار العملات الإيطالية في المشرق العربي ، والفلورن الفلورنسي في أنحاء أوربا عند عصر النهضة ، ومن كل ذلك نستطيع أن نستخرج الأدلة التاريخية في ميدان دراسة التاريخ رغم صحة الوثائق والنصوص.

إن الأساطير والرموز الدينية والشعارات السياسية والتذكارات التاريخية كانت الدول تستخدمها لنشر أفكار معينة ، وذلك لأن العملة سريعة التنقل بين الناس خاصة أن الصورة كانت أكثر تعبيرا وأثراً من الكتابة إذا وضعنا في الاعتبار نسبة الأمية عالية الارتفاع بين الشعوب في تلك الآونة .

والكثير من الشعارات كانت تستخدم لخدمة الجيوش والصراعات الحربية خاصة لأنها كانت تسك لدفع رواتب الجند في الدرجة الأولى ، فمثلا الإمبراطور أغسطس في غداة فتحه لمصر سك عملة تذكارية عليها صورة التمساح وهو إحدى المعبودات الشائعة العبادة في مصر الفرعونية ، وتحمل عبارة مقتضبة هي : " لقد فتحت مصر" ، وكانت أبلغ شعار وأوجز كلمات أراد الإمبراطور نشرها بين الناس ، وكان ذلك في زمن لم يعرف وسائل الإعلام بسطوتها الرهيبة والتي حولت عالمنا أجمع إلى قرية صغيرة .

وقد يكون هناك صعوبة في تفسير الرموز الدينية التي نراها على النقود القديمة لقلة معرفتنا بها ، ولندرة المصادر التي تستطيع أن تفسر لنا معناها ودلالتها ، ولكن في أوربا خلال العصور الوسيطة لدينا مصادر أدبية مصورة تشرح لنا معاني هذه الرموز ، فمثلا نقرأ : أن رمز القسطنطينية في القرن السادس الميلادي هو رمز ربة الجمال الإغريقية (إفروديت) ولما جاء الإمبراطور طيبريوس وغير هذا الرمز إلى الصليب عرفنا أن الإمبراطور جيستين الثاني صاحب فكرة إفروديت كان يعتنق الوثنية سرًا ! .

لقد كانت الرسومات التي توضع على ظهر العملة أشبه برسومات طوابع البريد في أيامنا هذه ، أي أنها كانت وسيلة للدعاية أي للفت النظر إلى الأحداث المهمة التي تحدث في الدولة ، أو إلى زعمائها ، أو إلى آثارها ، أو إلى أعلامها ، أو إلى تفوقها في مضمار معين ، كل هذا يكشف لنا بجلاء ووضوح جوانب من تاريخ الدول القومي ، في نفس الوقت الذي نطالب فيه بتحكيم عقلية الحذر لأن المبالغة والتهويل كان صفة عامة في الدعاية القديمة مما يجافي الحقائق التي توضحها الأدلة والبراهين التاريخية.

كما تلقي النقود أحيانًا الضوء الساطع على بعض القضايا الدستورية التي تصمت الوثائق وكذلك أهل التأريخ عن الحديث عنها ، فمثلاً تكشف عن مدى استقلال الدويلات والمقاطعات حتى تمتلك عملة خاصة بها أو لنفسها ، ولماذا يسمح الأباطرة لبعض الدويلات بسك عملة مستقلة داخل الإمبراطورية ، ويرفضون هذا الحق بالنسبة لآخرين ؟ ، وقد يكشف هذا مسائل دستورية وقانونية معقدة تحتاج إلى البحث والدراسة ، وهذا يجعلنا نسأل : هل كان سك العملة حق من حقوق الإمبراطور أو سلطة السيناتو والشعب الروماني ، أو من سلطة حكام الولايات ؟ ، ومتى يجوز ومتى لا يجوز سك العملة المحلية ؟.

والقارئ في تاريخ الاقتصاد والنظم الاقتصادية سوف يجد أدلة أخرى مهمة تساعده في هذا المضمار ، مثلا ذلك القرار الذي أصدره الآثينيون في صدر إمبراطوريتهم بفرض العملة الآثينية كعملة رسمية في جميع أرجاء الإمبراطورية ، وهذا القرار يعتمد على قواعد دستورية ، كما يوجد هناك عدة قرارات تنظيمية بخصوص تنظيم التعامل بعملات نقدية مختلفة في المدينة أو الدويلة الواحدة ، والاعتراف بعملة معينة للتعامل بها داخليًا وخارجيًا .

وهناك خطاب مثير أرسله أحد المسئولين الماليين إلى (أبوللونيسيس) وزير مالية بطليموس الثاني يستفسر فيه عن نظام النقد الرسمي الجديد الذي كانت الحكومة بصدد إصداره ، وعن مصير العملات الأجنبية القديمة ، وهل يجوز إعادة ضربها نقودًا بطلمية بعد صهرها حتى يمكن استخدامها في مصر ، لأن الدولة حرمت التعامل بالنقد الأجنبي .

ويقترح المسئول المالي أن تستورد الدولة كميات كبيرة من الذهب لضربه كعملة مصرية حتى يكون النقد المصري آنذاك جديدًا أو قويًا أو مغريًا للتعامل به خارج الحدود المصرية حيث كانت التجارة المصرية مزدهرة تسيطر على أسيا الصغرى وجزر بحر إيجا في تلك الآونة .

لقد فعل البطالمة ذلك كجزء من مخطط سياستهم التوسعية التجارية فقد كانوا يجمعون النقود الذهبية الأجنبية ويعيدون ضربها أو سكها في مصر بعد وضع شعار البطالمة عليه. ولكن المسئول المالي الذي أرسل الخطاب إلى وزير المالية وجه سؤالا مهمًا للوزير وهو : أليس من الأرخص أن نستورد كميات من الذهب ونسك عملات باسم مصر ، بدلا من جمع النقود الأجنبية لإعادة ضربها في مصر ، وجعلها بطلمية ؟ !

على كل حال فالتاريخ يقول لنا أنه كلما حاولت دولة ما بناء إمبراطورية كلما سعت إلى فرض عملتها جنبًا إلى جنب مع قوانينها والأجزاء التي تطمع فيها ، والشواهد على ذلك واضحة للعيان في زمننا الراهن. نعود لنقول : إن الآثينيين أعلنوا في صبيحة قيام الإمبراطورية الآثينية أنهم على استعداد تام لاستبدال العملات القديمة التي كانت تصدرها المدن الإغريقية قبل إدماجها في الإمبراطورية الآثينية ، بعملة أثينا الجديدة أو الدولة المتحدة التي تحمل اسمها وشعارها.

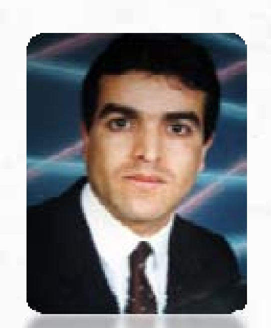
وعندما قام الاتحاد الآثيني في القرن الثالث قبل الميلاد ، أعلنوا .كما يقول بوليبيوس .أنهم اتفقوا على موازين ومعايير وعملة واحدة يتداولها الأعضاء كرمز لقيام الاتحاد ، مع السماح بوضع اسم كل مدينة على العملة ذات المستوى العام للاتحاد ، إذ لم يكن هناك خزانة واحدة ، بل لكل مدينة الحق في إصدار عملة محلية بشرط أن تذكر أنها عملة للاتحاد وتم ضربها في مدينة كذا ، وعليه فحركات الاتحاديات أو الكيانات الدستورية والسياسية تنعكس في دراسة العملة والتي هي .دون شك .مرآة لتاريخ الاقتصاد السياسي.

ويتم العثور على النقود القديمة في الأماكن الأثرية ، وخاصة في المنازل والديار التي تكشف عنها الحفائر الأثرية المنظمة ، وأحيانًا توجد فرادى أو مخبأة في شكل خبيئات ، قد تشمل الخبيئة الواحدة بضع آلاف من القطع (النقود) ، وهنا يمكن لنا أن نستخلص معلومات تاريخية مفيدة عن المكان ، وعن تسلسل العملة والتطور الذي مرت به مقارنين ذلك بتطور الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

ففي قرى مصر في العصر الروماني مثلا لاحظنا أنه كلما تدهورت الأوضاع السياسية للإمبراطورية الرومانية ازداد التدهور الاقتصادي للبلاد ، عندئذ يلجأ الفلاحون أو السكان المحليون إلى جمع الخبيئات في منازلهم ، أو في مكان لا يعرفه أحد سواهم ، وذلك انعكاس واضح لعدم الإحساس بالأمان الاجتماعي.

كذلك نستطيع أن نقيس حجم الرواج العمراني والتجاري والعسكري بحجم العملات التي تصدر في عهد معين ، لأن الحكومات كانت تصدر النقود لدفع رواتب الجند وللإنفاق على المشروعات العمرانية والخدمات العامة ، وكذلك دفع رواتب الموظفين العموميين ، إذًا فالنقود هي خير مرآة للنشاط العام للحكومات التي تصدرها. وقد ترتبط النقود ارتباطًا عاطفيًا ببعض الشعوب والبلاد فتبقى مستخدمة فيها اسمًا وفعلا والمثل على ذلك واضح من (الماريا تريزا) وهي عملة الإمبراطورية النمساوية التي كانت لا تزال مستخدمة أو مقلدة في بلاد الحبشة واليمن إلى وقت قريب.

وختامًا نقول : إننا نستطيع أن نقدر حجم التجارة بين الإمبراطورية الرومانية وشبه الجزيرة الهندية مثلا عن طريق كميات النقود الرومانية التي عثر عليها هناك ، وعليه تكون الهند قد صدرت بضائع بقدر قيمة هذه النقود إن لم تكن تزيد عنها ، لأن ميزان التعامل لم يكن في صالح الإمبراطورية الرومانية مما أدى إلى انهيار اقتصادها ، وبالتالي انهيارها كلية.



د.عبد العزيز غوردو
باحث وكاتب
دكتوراه في الآداب تخصص: تاريخ الإسلام والحضارة
المملكة المغربية
ghourdou.abdelaziz@voila.fr

افتراس اللحوم الآدمية

زيارة إلى التاريخ المقارن

وجدة: منشورات جسور، ٢٠٠٤. (١٣٩ صفحة)

الجزء الثاني

الفصل الثالث:

افتراس اللحوم الادمية بداعي الثأر

- في معنى الثأر.
- الرمز المؤطر: داعي "الثأر".
- محطات معاصرة في جغرافيا الافتراس الآدمي
- الافتراس ثأرا: الجذور والامتدادات.

في معنى الثأر

يا لسورة الغضب التي يوقظها الثأر من مرقدها، هيبوثلاموسها الساهر على الأدرينالين والكورتيزول بالعين التي لا تنام إلا لتحلم بمهيّج مثير يحفز غدتها الأدرينالية، ومن عساه يكون هذا المحفز الهصور غير الثأر المستفرس المتوعد.

الرمز المؤطر: داعي "الثأر"

ألمعنا في مناسبتين أو ثلاث، عند حديثنا عن اللذة، إلى افتراس اللحوم الآدمية بدافع الانتقام. وهو افتراس يقرن في نفس الآن بين شعورين متنابذين، مبدئيا، هما "اللذة" و"الألم"، وبالتالي أفلا يمكن اعتماد "الثأر" رمزا سلطويا آخر يدفع لسلوك الافتراس؟ وإذا كان ذلك كذلك، فالتساؤل حول الرافد الذي يستند إليه (مرجعيا ونزعاتيا) يبدو أمرا مشروعا وملحا أيضا؟

الثأر (أو الانتقام) شكل من أشكال الأذى والعقاب، لكن كيف يكون إلحاق الأذى بالغير رأبا لصدع أو تعويضا عن خسارة؟ (Nietzsche, La généalogie de la morale, trad. Henri Albert, Edit. Gallimard,1964, p.60)

إن التقطيع لهو المتعة المفضلة للبشرية البدائية، حيث تحل "الفظاعة" محل التوابل والمقبلات، لكن بطريقة تصور الفظاعة "حاجة" ساذجة أو بريئة، نوعا من "الخبث المنزه"، أو بعبارة "سبينوزا" "اللطافة المؤذية" (La sympathia malvolen) التي تفسح "للضمير" مساحة واسعة مريحة ليمارسها بكل جرأة، دون أن يخجل من ارتكابها، ودون أن يشعر بالعار أو الوخز بعد ذلك، لأنه اهتدى إلى "الحيلة" التي تقدم تبريرا لمنزع "الشر" الكامن فيه، بل، على العكس من ذلك، له الحق أن يتلذذ بكمّ الفظاعة المتفجرة عن فعل و ممارسة الثأر، بل إن هذه الممارسة هي وحدها الكفيلة بطرد الألم الخفي المستتر، الذي كان يعذب ويرهق، يلهب ويؤرق، الذات من الداخل في زمن غابر، عند حصول الاعتداء "الأول". الثأر هو المتعة والراحة التي ما كان لها أن تتحقق دون استطياب للفظاعة، حيث يصبح الجلاد صديقا "للخير" ومعبرا عنه وممثله أيضا، فلا ينظر لفعله على أنه انحطاط مَرضي للأخلاق، ولا يحمر خجلا من سلوك الفظاعة والقسوة والشر، بل إنه كلما أمعن في ارتكابه إلا وكان ألذ نكهة. وله بعد ذلك أن ينقلب إلى أهله وهو يتمطّى، يحكي للآخرين في استعلاء، وبأسلوب مبهج ومثير، ما أنجزه في "الأعداء" من بطولات، حتى تنسحب اللذة على الجميع، وتنتقل هستيريا التلذذ من الشخص المفرد إلى المجتمع المتكثر الذي يُنوّه بالثأر ويباركه ويعتز به.

الثأر أيضا – وكما الضمير – "دَيْن"، لكن لكل مجالاته وأشكاله التعبيرية النفسانية والاجتماعية المعقدة. شعور المدين بأن في ذمته دينا لا يمكن تسديده إلا بالثأر وعبره: "الهامة" في الفكر "الجاهلي" القديم مثلا تعبر عن "الآلة" التي ابتكرتها منظومة هذا الفكر، من أجل استخلاص الدَّين بواسطة تسوية من التسويات التي تم حولها الوفاق، وهذه التسوية ليست أكثر من "الثأر".

هكذا فعلاقة الجماعة بأعضائها، في خطوطها العامة، هي علاقة الدائن بالمدين (جينيالوجيا، ص.٦٥...)، فهو يعيش على ما توفره له، يتمتع بمنافعها. نظريا، لا تخفر له ذمة ولا تنتهك كرامة، ناعما بالسلام والطمأنينة "داخل" جماعته، بعيدا عن الآفات والشرور التي يظل إنسان "الخارج" عرضة لها... ولأجل كل ما تحققه الجماعة وتضمنه، فهو ملزم أمامها، مدين لها بألا يخون الوعود التي قطعها على نفسه تجاهها و إلا يكون قد أذنب في حقها.

المذنب هو الذي لا يسدد ديونه ويهاجم دائنيه، وعليه، يجرد مذ ذاك من كل المنافع التي كانت تضمنها الجماعة، ويطرد "خارجها" – حتى لو ظل داخلها – إلى الحالة البرية، يعاقب وفق العدالة والقانون، يُثأر منه، كما لو أنه عدو مبغوض، حتى لو كان أعزل خائر القوى، لأنه فاقد لكل حق، بما في ذلك حق الشفقة.

الثأر إذن شأن "داخلي" و"خارجي" في نفس الآن، يهم الجماعة في علاقتها مع أفرادها، كما يهمها في علاقتها مع الأعداء. لكنه يكرس دائما تحت اسم "العدالة"، كشكل من أشكال التكفير عن ذنب ارتكب أو حق اغتصب، إذ لا ينبغي ترك المتسبب في الضرر دون عقاب في النهاية.

يعني ذلك أن المتسبب في الضرر قد أثار زوابع عنيفة من الكره والغيظ والضغينة والبغضاء... وكلها مشاعر مميتة تستوجب الانتقام،

وهذا الانتقام – كما هو معروف – يحمل اسم "الثأر" عندما يأخذ المرء حقه بيده، واسم "العقاب" عندما تتكفل إحدى مؤسسات المجتمع المنظم بذلك، رغم أن التاريخ البشري الطويل، بما في ذلك المعاصر، يثبت حالات عديدة من "الثأر" حتى داخل مجتمعات تدعي لنفسها أنها منظمة المؤسسات، ناهيك عن الحالات العدائية بين مجتمعين متنابذين متحاربين.

الثأر يكشف لنا عن الإنسان العدواني العنيف، إذ نعرف من الناحية التاريخية الصرف، وقائع ثأر لم يكن فيها الثائر يأخذ الثأر لنفسه حتى يتصالح معها، أي أنه لم يكن ضحية اعتداء مسبق أصابه لشخصه، بل تصدى للثأر نيابة عن "آخرين" وأعلن حربا على أعداء ليسوا أعداءه المباشرين، تحول إلى آلة تدميرية في صراع ناشب بين أنظمة قوى وهياكل صراع خارجة عنه. لكن حتى في هذه الحالة التي ينصّب فيها البعض أنفسهم آلات "للقصاص" بمعناه الثأري المبتذل العدمي، فإن هذا الإنسان/المقصلة قد تقمص فعليا شعور الضحية الأصلي وعايش قدرته النفسية المدمرة كما لو أنه "صاحب ثأر" حقيقي، وأي فرض بعكس ذلك يخرجه من خانة "الثأر" ويدخله خانة "الارتزاق" بأشكاله النمطية المعروفة (غوردو، الارتزاق بالدولة المركزية المغربية الوسيطية، ٢٠٠٢م).

ما يضحى به على سبيل الترضية في المنظومة الثأرية – حيث لا ينكره داخلها أحد غالبا – هو "الكتلة البشرية" البالغة التعقيد، تتم مصادرتها ماديا وروحيا، من أجل فكرة "ثقافوية"، ظاهريا، هي "راحة الضحية عبر الثأر"، أي كتلة بشرية حية صير إلى إتلافها من أجل فكرة عبثية مدمرة؟ الواقع غير ذلك تماما في العمق، أو على الأقل يراد له غير ذلك. فما يضحى به يراد من ورائه في النهاية راحة الضحية: راحة القتيل في قبره؟ إطلاقا، بل راحة المطالب بأخذ الثأر، من عبء نفسي واجتماعي يرهقه وينهك كاهله، يعد عليه أنفاسه ويكبله في كل سلوكاته، حركاته وسكناته... هذا هو المحتوى الحقيقي الذي تخفيه فكرة "الراحة"، أي أن ما يضحى به من "كتلة حياتية" يراد به في النهاية إنقاذ "كتلة حياتية" مقابلة، لكن إرادة الفكرة شيء وما ينتهي إليه تطبيقها في الواقع شيء آخر، وهكذا – مثلا وفي المعظم الأعم – عوض أن ننتهي إلى "الراحة" شكلا ومضمونا، تتدخل حيثيات يصعب حتى حصرها: الإمعان في قتل الأعداء، أو التمثيل بهم، أو المبالغة في إذلالهم، أو تفجيعهم... أي الدفع بالثأر إلى حدوده القصوى، فتنتهي المصفوفة إلى "دوامة الثأر"، ولهذا السبب بالذات تم تنصيب "العقاب" الذي تستخلصه مؤسسات المجتمع المنظم، عوضا عن الثأر. فرغم أنهما معا – الثأر والعقاب – يتضمنان الفكرة ذاتها وهي "تخليص الذمة"، إلا أن الأهداف متباينة، حيث يقدم الثاني (العقاب) نفسه على أنه نهاية السلسلة، في حين يبدو الأول (الثأر) حلقة في سلسلة ممتدة إلى ما لا نهاية. وهكذا يفترض في العقاب وضع حد للجرائم، بينما يجنح الثأر إلى فتح منافذ جديدة لها. المجتمعات التي تؤمن بالثأر توضع دائما في سلم أدنى من تلك التي تزعزعت قناعاتها الإيمانية بفائدته الجوهرية وقدرته على إيجاد "الحل" فعوضته بالعقاب، دون أن نثير سؤالا مزعجا حول إمكانية العقاب نفسه على إيجاد الحل.

عدوك قد سلبك غصبا واحدا، أو أكثر، من حقوقك التي تضمنها الطبيعة والثقافة. زرع حديقتك ألما وشوكا، فليس أقل من أن تجرعه من نفس الكأس، أن تفجعه في حقوقه، بما في ذلك حق الحياة. أن تبطش، في استعلاء، بكل ما يمسه من قريب أو بعيد. وكلما تعاظم بطشك وصلفك، زدت رفعة وسموا في مجتمعك الحاضن، لأنك حررته من دين كان يثقله قبل أن يثقلك، وألقيت به، بكل أحجار الطواحين، على كاهل العدو، فكبلته بدين أشد فظاعة لا يكسره إلا "ثأر" مقابل أفظع.

يتقن الثأر إثارة مشاعر العداء المسمومة، والحقد الدفين، وتحفيز الذاكرة، والانتظار، فطالب الثأر ما عليه أن ينسى، يجب أن يبقى متيقظا حذرا متربصا لحظة الانتقام المثلى الموجعة، والأكثر إيلاما للعدو. الثأر يحوله إلى نفس مريبة حقود معذبة، لكنها لا تتقوقع على عذابها كما يفعل صاحب الضمير، فهي المضمرة للشر المستعدة لتفجيره، تستهدي بالإساءة والكراهية للوصول إلى راحتها وارتوائها. الثأر – عكس الضمير – لا يحسن التقوقع والانزواء، فهو الوحش المنفلت من عقاله. أرضه البكر التي يتنفس فيها ملء رئتيه: فريسة وحريق ومذبحة... لا يرتوي إلا عبر سلسلة من المجازر والاغتصابات "الهوميرية" الرهيبة: قاس، بارد، وفظيع... هكذا ينبغي له أن يكون، وهكذا ينبغي أن يقدم نفسه في مواسم "عكاظ" الشعرية: أولم يقتلع علة شقائه وألمه من جذورها؟ حُقّ له إذن أن يفخر، هو المقاتل المؤزّر بالنصر الذي قضى على أساطين الشر من الأعداء وسقاهم من مُرّه، جعلهم ينطرحون أرضا، يرتجفون جزعا، يلعقون حذاءه... يتخطفه أنينهم عبر بحر من الدماء يخوضه حتى الركب إلى عالم من النشوة واللذة والافتتان. تستيقظ الذات الحقيقية من سبات، تنتصب ممشوقة مدوية في المهانة والانحطاط، تنبعث من رمادها كمثل العنقاء، فقد جاءها "الخلاص".

الثأر: محطات معاصرة في جغرافيا الافتراس الآدمي

في الثورة الثقافية التي أعلنها ماو تسي تونغ (ربيع ١٩٦٦م) أكل الثوار الماويون العديد من "أعداء الثورة". يحكي زينغ يي Zheng Yi (شيوعي قديم. كان واحدا من الحرس الأحمر أيام الثورة، تحول سنة ١٩٧٨م إلى واحد من أكثر منتقدي الهذيان "الماوي") قصة حمى الافتراس الآدمي التي هبت على إحدى المدارس: "في المطابخ كان يطهى اللحم الآدمي، في إقامة الأساتذة كان يطهى اللحم الآدمي، في داخليات البنات كان يطهى اللحم الآدمي، في ساحة المدرسة كان يشوى اللحم الآدمي، في كل مكان كنت ترى شوايات من صنع منزلي. في وكسوان Wuxuan - ١٨ يونيو ١٩٦٨م - أرغم المدير والمدرسون على تمزيق وأكل أحد زملائهم (أستاذ للجغرافيا)، صرخ فيهم "فو بينكون Fu Bingkun" (وهو تلميذ من الثانية ثانوي) بعد أن ألقى إليهم بسكين مطبخ قريبا من الجثة: "جواسيس، اقطعوا اللحم، لنأكله هذه الليلة. إياكم أن تفسدوا المصران أثناء التقطيع. إذا فعلتم ذلك سألقي بكم في النهر. أريدكم أن تحفظوا أيضا القلب والكبد". ويحكي مدير المؤسسة: "بعد القلب والكبد، جاء دور الأرداف. البعض ملأ الأكياس باللحم، وآخرون علقوا قطع اللحم على فوهات البنادق".

في مطبخ الإعدادية، كان سبعون تلميذا يلتهمون امرأة شويت على مدفآت المؤسسة. لم يتم أكل الأساتذة فقط، بل كان البحث جاريا عن جميع "أعداء الماوية". في قرية شنغنيان Shangnian، تم عرض الشاب زانغ فوشين Zhang Fuchen على لجنة ماوية، تقدم فتى من الحرس الأحمر عمره (١٢سنة) وقتله بطعنة خنجر، ثم انتزع قلبه وكبده وأعضاءه الجنسية، قبل أن يتهافت باقي أعضاء اللجنة على الجثة، ويمتشوا ما بها من لحم.

حدث هذا أثناء الهذيان الشيوعي الماوي في ستينيات القرن الماضي، تحت اسم "الثورة الثقافية"، لكنه حدث أيضا في مناطق مختلفة من العالم، تحت مسميات مختلفة من أشهرها ما حدث أثناء الصراعات "الإثنية" جنوب شرق آسيا. ففي مارس ١٩٩٩م في "كاليمانتان Kalimantan" (بالمنطقة الأندونيسية من بورنيو)، عاد "الافتراس الآدمي" بداعي الثأر ليظهر بين قبائل "داياك Dayaks". فالكراهية الإثنية والثقافية، كانت تؤجج حربا منذ ثلاثين سنة بين الداياك (١.٥ مليون نسمة) والمهاجرين "Madurais" (١٠٠ألف نسمة) الذين جاؤوا من جزيرة "مادورا Madura" (جزيرة فقيرة شمال شرق جاوة): "خلال ثلاثة أيام حملنا ٧٥ من رؤوس المادوريين وحرقنا مائتي منزل." يقول أحد الداياك. كانت الحكومة الأندونيسية تتكتم عما كان يجري من مجازر وحرائق وافتراسات آدمية بين المجموعتين العرقيتين، فيما وقف الإعلام الغربي مشدوها أمام مشاهد "قطاع الرؤوس" من بورنيو. كان الداياك يذبحون أعداءهم ويجمعون الدم في دن كبير يتناوبون الشرب منه. ثم يقومون بشق الجثث من الظهر وانتزاع القلوب، لكن ليس كل جثث المادورين: فقط أولئك الذين أظهروا بسالة خارقة أثناء المعارك، فقط هؤلاء يجب استخلاص أرواحهم وتملكها. كانت الرؤوس تجمع ويتم نقلها إلى القرية للاحتفال، أما القلوب والأكباد فتشوى وتؤكل بينما يلقى بباقي الجثث في النار لحرقها. أكل من ذلك جميع أهالي الداياك بما في ذلك النساء والأطفال خلال أربعة أشهر. اعترفت السلطات الرسمية بجاكرطا بحوالي ٥٠٠ ضحية، بينما قدرت الإحصاءات غير الرسمية العدد في حوالي ٤ آلاف.

من أغرب ما وقع من افتراس آدمي (جنوب شرق آسيا أيضا) ما وقع في بورما في نهاية القرن الماضي. تفاصيل الأحداث انطلقت من فرنسا يوم ١٨ يناير ١٩٩٦م، عندما كان عامل مختبر للتصوير في باريز (Forum des Halles) منكبا على مراقبة فيلم (Pellicule) قدم له لتحميضه، لكنه لم يصدق ما كان يمر أمامه على "الكليشيه" إلى درجة أصابته بالغثيان. ففي الصور التي كانت تتلاحق أمامه كانت تمر مجزرة بشعة وافتراس آدمي أبشع.

في الصورة الأولى كان يظهر شخصان (آسيويان) مكبلان بإحكام في وضع القرفصاء. ثم ظهرا ميتين في الصورة الثانية، وعلى "الكليشيه" الموالي تم بقر بطنيهما، وفي الصورة الموالية تم استخراج الأحشاء وعزل الكبد والقلب عن الباقي، وكان صاحب الفيلم يبدو على إحدى هذه الصور وقد وضع رجله على عنق أحد الضحايا لتثبيت الجثة.

هاتف صاحب المختبر الشرطة التي حضرت وراقبت الموقف، وفي حدود الساعة السادسة مساء حضر شاب في الخامسة والعشرين من العمر يطالب باستعادة فيلمه فتم ضبطه وتقديمه لمركز الشرطة. أثناء التحقيق تبين أنه مرتزق كان قد عمل مع بوب دينار Bob Dinard في انقلاب بجزر القمر — بعد أن عمل بالجيش الفرنسي وطرد بسبب السرقة — كما عمل مع الميليشيا الكرواتية في بوسنيا، قبل أن يتم تجنيده من طرف ثوار "كارنز Karens" في برمانيا. أما الضحيتان على الفيلم فهما من جنود النظام العسكري في "رانغون Rangoon". وعن الصور قال المرتزق: "نعم لقد أكلنا كبديهما، لكها عادة ثأرية محلية، وهي شائعة هناك، فذلك يجعلك أقوى، وأنا أردت أن أجرب الأمر وأريه لأصدقائي. قطعا لم يكونوا ليصدقوني من دون الصور..."

افتراس آدمي ثأري يقع جنوب شرق آسيا (بورما) ويتم اكتشافه في قلب أوربا (باريز)، فهل هذا يعني تنزيه القارة العجوز عن مثل هذه الممارسات؟

هذا ما ينفيه الملاحظون الألمان الذين يؤكدون أن أحداثا مماثلة من التهام آدمي شوهدت في البوسنة خلال المجازر الصربية في تسعينيات القرن ٢٠م، كانت حمى الثأر والانتقام تجثم وراءها. وليتأكد مرة أخرى أن الأوربي لا يحتاج دائما إلى الرحيل إلى الآخر (المتخلف) من أجل تقديم الدليل على "التوحش" و"الهمجية".

الافتراس ثأرا: الجذور والامتدادات

كان من الممكن أن نقف على "دوامة الثأر" بمنحاها الأنتربولوجي أو التاريخي الاجتماعي الصرف. فالثار بصيغته التركيبية المتشعبة الجوانب يمكنه أن يستوعب عدة دراسات — وقد أنجزت حوله فعلا عدة دراسات — بالمعنى الأنتربولوجي/التاريخي الذي نريد أن نصرف عنه النظر هنا.

رغم ذلك، يمكن للقارئ (ولمزيد من الاطلاع) متابعة أشكال كثيرة من الثأر والانتقام الجسدي والنفسي عند:

Louis Cardaillac, Morisques et Chrétiens-Un affrontement polémique (1492-1620), Edit. Klinsieck, Paris, 1977.

وهو كتاب غني بالوثائق لمن أراد المتابعة التاريخية للقضية خلال العصور الحديثة (مثال الأندلس وأمريكا).

أما من يريد متابعة الحالة في التاريخ الوسيط، فما عليه إلا أن يرجع للأمثلة التي قدمها كفين رايلي Kevin Reilly في الفصل السابع تحت عنوان: "العنف والانتقام" ضمن الباب الثالث "العالم التقليدي ٥٠٠-١٥٠٠م" من كتابه:

The West and the world-Atopical history of civilisation, Harper and Row,1980.

ومن يريد أن يراجع حالة العنف والثأر، نماذج من خلال الحروب، بنظرة الأنتربولوجي، فمن أهم الدراسات في هذا الشأن ما قدمه بيار كلاستر في نهاية السبعينات:

Pierre Claster, L'archéologie de la violence dans les sociétés primitives : La guerre, in Revue Libre, Edit. Payot, Paris,N 1er, 1977.

مع التنبيه إلى أن هذه الأبحاث والدراسات لا تعرض لموضوع "الافتراس الآدمي" - من قريب أو بعيد - بل هي مجرد أبحاث عرضت لموضوع الثأر، جملة أو تفصيلا، بأشكاله النمطية المعروفة.

نحن إذن لا ننوي متابعة أشكال الثأر، بنظرة تاريخية أو أنتروبولوجية كلاسيكية، رغم أننا سنلجأ لدراسة موضوعنا (الافتراس الآدمي) - في هذا الفصل - اعتمادا على نصوص من التاريخ والإناسة. إلا أن القارئ سيلحظ من دون شك الفرق بين متابعتنا هنا للثأر والمتابعات التاريخية/الإناسية له. ذلك أننا عمدنا أولا إلى نحت المفهوم ليصير "رمز سلطة" قادر على دفع الحدث واستيلاده، ثم قمنا، ثانيا، بتوكيد رمزيته عبر شهادات معاصرة تزكي طرحنا لموضوع الافتراس، والآن سنحاول أن نختم فصلنا بمقاربة تركيبية لمبحث الثأر والافتراس.

تتفق الكثير من الشهادات على أن مجازر الافتراس الآدمي بداعي الثأر كانت شائعة في العديد من المناطق الأفريقية في فترات مختلفة من تاريخها. من بين هذه الشهادات شهادة ممثل الشركة الملكية لأفريقيا (سنيلغراف W.Snelgrave) الذي حضر إحدى هذه المجازر (في مطلع القرن ١٨م) ووصفها وصفا دقيقا، حيث ذكر بأنه يتم اقتياد الضحايا وتجميعهم في مكان معين، حيث تفصل رؤوسهم عن أجسادهم. بعضهم كان يناهز الستين من العمر، يقتاد مكبل اليدين، ثم يفصل الجلاد رأسه بضربة سيف واحدة، تحت نظر إعجاب العشيرة بقوته الخارقة. بعد المجزرة يكون الدم من نصيب الدكاكير Fétiches والآلهة، والرؤوس من نصيب الملك، بينما الأجساد هي حظ الجمهور. (Snelgrave, p. 50).

نفس الفظاعة والوحشية، يقصها علينا شاهد عيان آخر (نخاس إنجليزي من القرن ١٨م) هو "روبير نوريس Robert Norris" الذي حضر العادات الاحتفالية لآخر أيام السنة بمملكة الداهومي، والتي يترأسها الملك وحاشيته، حيث يختتم الاحتفال بإلقاء عدد من البشر (الأضاحي) إلى التماسيح المفترسة لتمزيقهم والتهامهم، لكن الأكثر فظاعة هو أن الأهالي ينافسون التماسيح على افتراس رؤوس الضحايا. (Robert Norris, Memoirs of the reign of Bossa-Ahadee : with an account of ajourney to Abomey, in 1772,londres,1789) (Trad. Paris,1790) ...

وفي غرب أفريقيا السوداء، يذكر شاهد عيان آخر، أنه كان من عادة "أكادجا Agadja ملك" تقديم القرابين البشرية من الأعداء في المناسبات، لكنه لا يأكل من لحومها، بل يترك مهمة الافتراس لأهالي المنطقة. (W.Snelgrave, A full account of somepart of Guiea and the slave trade)(Voyage sur la cote du Dahomey en 1727); Trad. Amstrdam, 1785, p. 29... وهي عادة طبقها أيضا ملك بنين Bénin الذي كان يقتل ما بين ٤٠٠ و ٥٠٠ من أعدائه عند حلول مناسبة اعتلائه العرش، أي بمعدل ٢٣ فردا في اليوم. انظر: O.Dapper, Description de l'Afrique: Complication géographique. Trad. Amstrdam,1686, p.110-112.

هذه نماذج فقط عن شعوب أفريقية مارست الافتراس الآدمي، شعوب كان الأنتروبولوجي فريزر ينعتها بالهمجية، ويستهجن أن تعقد بينها وبين أوربا "المتحضرة" أدنى مقارنة، بل إن مجرد التفكير في هذه المقارنة "مقلق وخطير" (انظر مفهوم الافتراس" من هذه الدراسة). والواقع أن أكل اللحوم البشرية، لداعي الثأر أو لغيره، ليس حكرا على شعوب دون أخرى، ليس هناك شعوب "متحضرة" وأخرى "همجية" بالمعنى الذي قصده فريزر. كل الشعوب "همجية"، وأوربا في مقدمتها، إذا كان الدليل على هذه الهمجية هو "الافتراس الآدمي". وليست النصوص هي ما يعوزنا لتوكيد هذه الدعوى، ولتكن أولى الأمثلة عن أوربا "المتحضرة":

كونت بينا مارشال أنكر Le comte de la Pena Ancre، والوزير الأول للملكية الفرنسية المعروف بكونتشيني Concini كان محميا من طرف ماري دي ميديتشي Marie de Médicis، رغم بغض الجميع له: (النبلاء والعامة). أمر لويس Louis XIII قائد حرسه فيتري Vitry بقتله، لكن قتله لم يشف غليل المنتقمين الذين قاموا باستخراج جثته وانتزاع القلب منها وشوائه ثم تقطيعه وأكله.

أحداث افتراس مماثلة وقعت خلال الأيلوليات Septembrisades (مذابح ٢-٦شتنبر ١٧٩٢م) عندما قام الثوار بذبح ألف شخص من الأرستقراطيين وأنصار الملكية، ثم افترسوا قلوبهم وأكبادهم وغمسوا الخبز في دمائهم.

من أشهر ما سجلته النصوص في هذا الصدد (الأيلوليات) قصة ماري تيريز لويز Marie-Thérèse Louise de Savoie Carignan، أميرة لامبال Lambale، التي قتلت بضربة من مطرقة قبل أن يقطع رأسها بسكين جزار، كما قطعت أعضاؤها الجنسية ونهداها، بالإضافة لقلبها الذي تم نهشه بوحشية.

وفي ثورة ١٨٤٨م بإيطاليا: يحكي دي ماريكورت DE Maricourt بأنه رأى رجلين من صقلية ينهشان قلب أحد سكان نابلي، كما يذكر Briene Boismond أن أحد الجرحى من البييمونت لم يكف عن طلب قطعة لحم أحد الحرس الوطني المدرج في دمائه.

الافتراس من أجل رأب صدع، رفع ظلم، مسح إهانة... قد ينظر له داخل بعض المجموعات، أحيانا، نظرة سلبية، لكنها ليست قدحية أبدا. بل كثيرا ما نجدها محبذة تشجع عليها الثقافة الاجتماعية نفسها، فالأمر ليس مخجلا بتاتا. الافتراس ثأرا غالبا ما كان يمارس بأوربا الكلاسيكية بانتزاع القلب وأكله (تضاف له أحيانا الأعضاء التناسلية) باعتباره محركا للحياة، ورمز الرغبات الإنسانية. ابتلاع القلب يعني إذن التدمير التام للعدو، محوه من الذاكرة نهائيا.

الافتراس ثأرا تعبير عن غضب، جماعي أو فردي، بهدف تحقيق أكبر قدر من الإحراج للعدو بتحويله إلى حالة "اللحم": "سأسحقك سحقا وألتهمك نيا" عبارة قالها آشيل Achille لهطور Hector بأوربا الكلاسيكية وكررها بعد ثلاثة آلاف سنة أحد الزعماء الكونغوليين للمستكشف بروناش Brunache: "إنه لأمر ممتع أن يتلذذ المرء بلحم شخص يكرهه." فهاهنا تستوي أوربا "المتحضرة" بباقي الشعوب "البدائية": ففي أفريقيا كما في أوربا، وفي آسيا كما في أمريكا، يستوي الجميع، تاريخيا، أمام شواهد "الافتراس الآدمي".

قبائل "تيبينامبا Tupinamba" البرازيلية التي درسها طوبلا "أ. ميترو A. Metraux" لاحظ أن أسلوب حياتها يعتمد على الحرب، وأنها غالبا ما تحارب من أجل أسر أعدائها، أكثر منها من أجل قتلهم: أي عدو يقتل في المعركة كان يتم أكله حالا، أما الأسرى فيصبحون في ملك من يأسرهم، قبل أن يتم "إدماجهم" ضمن القبيلة. الكبار في السن –من الأسرى– ينبغي ألا تطول مدة إقامتهم، إذ ينبغي التعجيل بأكلهم، فيما يترك الفتيان والشباب لمدة قد تصل ٢٠ سنة إلى جانب زوجاتهم. يفسر "التيبينامبا" سلوكهم بأن الثأر لا يكتمل ويصبح ناجزا من دون هذه الإجراءات، إنهم لا يأكلون بعضهم بعضا أبدا، وينعتون الأسرى "بالأصهار"، حتى يميزوا بين الأشخاص الذين تربطهم بهم روابط دموية، وبين الغرباء أضاحي المستقبل. يرتبط الثأر أيضا، لديهم، بالتعاليم الدينية لأجل راحة موتاهم، فالذي يقتل الضحية عليه أن يخضع لعملية تطهير حتى يتم حمايته من الغضب الذي قد تنزله به الروح المنفلتة منها، ويتضمن طقس التطهير تغيير الاسم، تماما كما نجد عند هنود "كواياكي".

بأمريكا الشمالية هنود "ألكونكين Algonquins" و"هيرون Huerons" و"كري Crees" و"إيروكوا Iroquois" كلها قبائل عرفت الافتراس الآدمي الخارجي Exocannibalisme، لكنها لا تأكل إلا

الأعداء الذين يقتلون في ساحة المعركة، أما الأسرى فيدمجون ضمن هذه القبائل. هكذا يتم الانتقام للقتلى ويتم تعويضهم لتكثير الجماعة.

لدى "الأزتيك Aztèques" كان "الافتراس الآدمي" يشحن بحمولة دينية، حيث يقدم آلاف الأعداء للتضحية بهم عند أقدام الآلهة، ثم يقوم الأهالي بالتهامهم ظنا منهم أن ذلك يقربهم من الآلهة.

في العالم الإسلامي أيضا وقعت أحداث افتراس آدمي بداعي الثأر، منها ما حدث في فتنة قرطبة، التي دارت رحاها سنة ٤٠١هـ - زمن هشام المؤيد بالله - عندما حاصر البربر المدينة حصارا شديدا "حتى أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم وأكلوا الميتة... وكان قوم في السجن فمات منهم رجل فأكلوه. ومع هذه المحق فشرب الخمر ظاهر والزنا مباح واللواط غير مستور ولا ترى إلا مجاهرا بمعصية." (ابن عذاري، ج. ص.١٠٧)

لا شك أن أكل اللحم البشري هنا مرتبط بضائقة هؤلاء المساجين، فمن يلتفت إليهم والمجاعة والنهب عمّا شوارع قرطبة وأزقتها، وسط قوم لا يميزون بين حلال أو حرام، بين مقدس أو مدنس، حتى جامع الزهراء أحرقوه ونهبوا "ما بقي من قناديله وصفائح أبوابه ومنبره وحصره." (نفسه، ص.١٠٧) فالمجاعة قد تبرر كل سلوك، لكن ما رأينا في جملة فرسان قرطبة الذين اغتنموا غفلة من بعض البربر فأصابوا أحد قادتهم - حباسة بن ماكسن - وأخذوه أسيرا "فلما عرفوه (أي مكانته) قتلوه وقطعوه وتهادوا لحمه فأكلوه." (نفسه، ص.١١٢)

تبدو العناصر المؤطرة لرمز الثأر، مبدئيا من خلال النصوص التي عرضناها، تزاوج بين النفساني والاجتماعي في نفس الآن، دون أن يفهم من قولنا أننا نوافق على تعريفات R.Dahl للضابط السيكوسوسيولوجي (انظر: The concept of power, Paris, 1957).

فمشروعنا في الحديث عن رمز "الثأر" يسعى فقط إلى ملامسة "الرمز" من الخارج باعتباره ظاهرة مشدودة للواقع البراني أو الثقافة أولا، وثانيا محاولة الانجذاب إلى الداخل، للتعرف على نفس "الرمز" لكن من خلال تفاعلات الجواني أو الحالة النفسانية للفرد/المجتمع. هذا كل ما قصدناه من إثارتنا للضابط السيكوسوسيولوجي، حتى لا نتيه في نقاش أدبي أو فلسفي هذا ليس محله.

على أن هذا الاحتياط المبدئي لا يمنعنا من الانطلاق من عبارتين أدبيتين/فلسفيتين ترددان كثيرا عند الحديث عن رمز "الثأر" هما: "راحة الانتقام" و"عذاب الانتقام"، فكيف تساكن "الراحة" و"العذاب" في نفس الكيان؟ أفلا يكون ذلك مجرد سهو أدبي أو انتقائية فلسفية لشعور واحد يصعب تحديده بسبب اعتمال مشاعر مضطربة أغفل تحديدها بداهة في القراءات الأدبية – الفلسفية؟

ربما، لكن لنذكر أننا هنا لا نحلل متعة النوم أو لذة الجنس... ولا ألم الفراق أو مرارة الهزيمة... نحن نحلل موضوعا على درجة عالية من الحساسية هو "افتراس اللحم الآدمي"، لذلك فإن المشاعر هنا – رغم تنابذها – قد تمتاز بنوع من التطرف: ليس الألم هو نفس الألم، ولا اللذة هي ذاتها في جميع الحالات. أكيد أن هناك مستويات في الشعور، يصعب – وربما يستحيل – قياسها وضبطها رياضيا أو إحصائيا أو حتى سريريا، لكننا نؤمن بصورة قطعية بتفاوت مستويات الشعور: أن يصل بك الحقد، أو الغل، أو الكراهية... حد قتل العدو، فهذا مستوى، وأن يصل بك حد التمثيل به ، فهذا مستوى آخر، أما أن يصل الشعور حد القتل وتوزيع اللحم وأكله وتهاديه، فهذا مستوى ثالث يفوق التصور؟

تفكيك مستويات هذا الشعور المزدوج (اللذة/الألم) يحتم علينا مبدئيا التذكير بمدلول "الثأر" باعتباره القوة النابذة المؤدية لفعل "الافتراس" في حالتنا هنا.

كم هو سهل هذا التذكير في مستواه اللغوي أو حتى الإيتيمولوجي، كم هو صعب في دلالته النفسانية والاجتماعية (راجع ما سجلناه بخصوص رصد المفهوم). فابن منظور الذي اقترح علينا مصدر ثأر وثؤرة: بمعنى الطلب بالدم وغيره...(لسان العرب، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢، ج.٤، ص.٩٧...) يتيه بعد ذلك فيكتب أكثر من صفحتين لرصد الشعور. هذا رجل لغة ولا ينبغي إزعاجه بما لم يؤته، حول موضوع تحير فيه أنتربولوجي متمرس مثل جلنر. (Gelner, Ernest, Pouvoir politique et fonction religieuse dans l'islame marocain, Annales, E.S.C, Mai – Juillet 1970, pp.706-707).

الثأر ناتج، أو متولد، عن شعور عميق يمزج بين الغضب والألم. إنه عملية جراحية نفسانية رهيبة لإزاحة "ورم خبيث" هو "الألم" وزراعة "ورم حميد" هو "اللذة": الألم يرتبط بالعذاب النفسي الداخلي المتواصل المرتبط بدوره بسلوك عدواني (مادي أو معنوي) مسبق تجاه من ارتكب في حقه السلوك العدواني. لذلك يظل الألم الداخلي يعتصره، ينهش بعضه بعضا، إلى أن تحين لحظة الثأر ليتحول الألم إلى لذة عبر ممارسة انتقامية (مادية أو معنوية أيضا) فيتحول العذاب إلى راحة. وكما يمكن أن يكون هذا الشعور حالة خاصة متفردة (تخص الفرد) يمكن أن يكون ظاهرة عامة متكثرة (تهم كل الجماعة).

هذا فيما يتعلق بفحوى "الثأر" باختصار شديد، أما فيما يتعلق بما أسميناه "مستويات الشعور" المتصلة به (راحة أو عذابا)، فالظاهر، من خلال موضوع الافتراس الآدمي، أننا أمام أشد الهويات تطرفا كما سبق أن ألمحنا. يشهد على ذلك أن اللوحات التي عرضتها علينا المصادر، في هذا الباب، تتقاطع فيما بينها في التشديد على الجو المشحون، والمريع، لظرفية الافتراس كعامل نفساني/جماعي مؤسس للفعل. كما تتقاطع أيضا في التنصيص، ضمنيا، على السند الثقافي للجماعة المفترسة – أي الثأر كسلوك اجتماعي يقع حوله نوع من الإجماع أو شبه الإجماع على الأقل – وشاهدنا على ذلك هنا أن الآدمي/الفريسة، كان يقتل، في جميع الشهادات التي ذكرناها، قبل أن يتم افتراس لحمه.

لكن كيف يتأتى تساكن "العذاب" و"الراحة" في ذات واحدة؟

من يتفرس في الجزئيات المرتبطة بطالب الثأر، يتوقف ولا شك عند محطتين أساسيتين فيه، أي الإطار الموطّن لمشاعر "العذاب" و"الراحة". إذ أن مراقبة هذا الإطار، فيما نعتقد، تجعلنا نتبين أن صيغة السؤال كما طرحناها أولا، وأعدنا طرحها هنا، فيها نوع من التضليل الكلامي، أو المغالطة بأسلوب المناطقة، وهو أمر لم ننتبه إليه عندما عنّ لنا التساؤل أول مرة. إذ أن لفظ "التساكن" هنا هو في غير محله، والذي دلنا على ذلك محطتان أساسيتان في موضوع "الثأر". لأن الألم/التوتر، واللذة/الراحة في واقع الحال ليسا متزامنين حتى يتم مفعول التساكن، بل متعاقبين متواليين. أي ليست هناك مجابهة مكشوفة بين شعورين متناقضين، في نفس الآن، داخل نفس "الذات". ذلك أن النهاية الفعلية للشعور الأول (الألم) تمثل البداية الحقيقية للشعور الثاني (اللذة)، والذي حقق هذه النقلة البينة بين الشعورين في موضوعنا هو فعل الافتراس.

إذا أمكننا استيعاب هذا التصور، سهل علينا إدراك أن بداية النهاية لشعور الألم تحددت مع بداية لحظة تحقق فعل الثأر/الافتراس، لأنه يفترض بعد ذلك أن تستسلم ذات "المفترِس" لمفعول اللذة وبالتالي الراحة، حتى وإن ظلت بعض المشاعر القديمة (الألم/التوتر) قابعة في الأعماق.

لكن إذا كان افتراس اللحوم الآدمية ينسجم مع ثقافة العديد من الشعوب التي تناولناها بالتحليل، كحالة القبائل الأفريقية والأمريكية بل وبعض النماذج المقدمة عن المثال الأوربي أيضا، أي أن المنظومة الثقافية لهذه الشعوب لا تتناقض مع سلوك الافتراس لديها، فإنه يتعذر علينا، عمليا، فهم حالة البربري حباسة بن ماكسن، عن النموذج الإسلامي. فالرجل هنا ليس كافرا حربيا ولا مسلما مرتدا ولا زانيا محصنا (وهي الحالات التي يبيح فيها الشارع الإسلامي أكل اللحم البشري عند الضرورة)، أي أن قتله، فضلا عن أكله، لا يستقيم مع المنظومة الثقافية الإسلامية بل مناف لها لأنها تحرم مثل هذا السلوك حتى في حالة الضرورة القصوى وهي حالة المجاعة. أكثر من ذلك فالفرسان الذين افترسوا لحمه، هم "فرسان" أي مقاتلون على ظهور الخيل، بمعنى آخر ما زال عندهم بعض ما يأكلون، لأن الخيل - إن كنت لا تدري - أولى من أكل الآدمي. لا يبقى أمامنا إذن إلا استنتاج واحد ووحيد هو أن هذه الحالة تعبر عن مستوى متطرف في الشعور بالكراهية والإمعان في الانتقام، نود مقارنتها بحادثة مشابهة - على مستوى الشعور - ذكرتها كتب السيرة (ابن هشام وصحبه) وهي نازلة هند بنت عتبة (يوم أحد) التي شقت صدر حمزة بن عبد المطلب (عم النبي) وانتزعت كبده ومضغتها فلم تستسغها فلفظتها (انتقاما مما كان قد فعله بعائلتها يوم بدر): فوراء حادثة قرطبة الإسلامية تتراءى حادثة قريش الجاهلية، والرمز الدافع في الحادثتين معا هو "الثأر" مع ما ترتب عنه من اختيار متجرد صاف لا يداخله أي رمز آخر. مع التنصيص هنا على أن موقف هند موقف شخصي متفرد لاكت الكبد ثم لفظتها، وحتى القاتل "وحشي" أشاح بوجهه عنها استهجانا، بينما موقف سكان قرطبة موقف جماعي متكثر متفاحش: قتلوا الرجل، ثم وزعوا لحمه وافترسوه: فهل نعتبر أهل قرطبة، والحالة هاته، أكثر جاهلية من هند بنت عتبة؟

ملاحق

- في يناير ١٩٦٢م، في كونغولو Kongolo، شمال كاتنغا Katanga (بالزايير) هاجم عدد من الأهالي ١٩ مبشرا وأكلوهم لأنهم سمموا أفكار شبابهم.
- وفي يناير ١٩٥٦م، قام المدعو ندجومبو N'Djombo المقيم بكينشاسا بأكل ابن أخيه عقابا له على إغواء زوجته.
- في أبريل ١٩٦٠م، وبمدينة القاهرة قام منير مهني بقتل أخته الصغرى التي فرطت في شرفها، طعنها بسكين ثم شرب دمها ليطهر شرف العائلة.
- في مونتريال Montréal (مارس ١٩٥٢م) قام صاحب مخبزة بإعداد وجبة خاصة ضحيتها موزع الخبز العامل عنده الذي ضبطه وهو يغازل زوجته على الهاتف.

وهناك شواهد تثبت أن الافتراس بداعي الثأر استمر إلى غاية ١٨٨٨م بجزر "المركيز Marquises". وفي سنة ١٩٠٧م أكلت قبيلة "تاكو كان Takou Kan" أسيرا يابانيا لديها.

أحداث كثيرة مماثلة كانت تقع في أماكن مختلفة من العالم، وإلى وقت قريب جدا (ق.٢٠م): ففي بعض أنحاء نيجيريا، كثيرا ما كان المضحى به يقلى في زيت ساخنة جدا، قبل أكله. ولدى قبائل "باتا Battas" بسومطرة، كان المحكوم عليهم يؤكلون أحياء وبالتدريج. وفي أوقيانيا كان يتم انتزاع لسان المحكوم عليه، ثم يشوى الضحية وهو مازال حيا على "سرير" من الصخور الملتهبة، بينما كان يحتفظ — في "ببوازيا Papouasie" — بالضحايا أحياء، وينتزع اللحم شيئا فشيئا إمعانا في الانتقام.

الفصل الرابع:

عندما تضغط المجاعة باتجاه الافتراس الآدمي

- المجاعة.
- ضغط الحاجة (حالة الجوع).
- افتراس الآدمي بداعي المجاعة (شهادات من حولنا).
- الافتراس الآدمي: التفاتة إلى زمن مضى.

المجاعة

المجاعة: نقص حاد في المواد الغذائية ناتج أساسا عن ظروف طبيعية أو بشرية (كالجفاف والحروب...)، وينتج عنه حالات من السقام Cachexie والتنادر Kwashiorkor واللاحيمينية Avitaminose. وهو (الجوع) إن طال يؤدي إلى الوفاة.
(Petit Larousse de la médecine, 1994).

ضغط الحاجة: حالة الجوع

ما الذي تعنيه "الحاجة" بالنسبة لظاهرة معقدة (بتضاريسها الفيزيولوجية / النفسانية / الاجتماعية) كالظاهرة "البشرية"؟

صياغة جواب مقنع بالتعريف "الحدي" المتداول عند المناطقة يبدو بعيد المنال، أو عسير الملامسة على الأقل، فهذه الظاهرة المعقدة — الإنسان — ولأنها معقدة بالذات تستدعي استحضار آليات عديدة متراصة مركبة، من البيولوجية إلى النفسانية، من أجل تحديد قسمات هذا المبهم الماسي. إذ أي تفسير يمكن أن نقدمه لإقناع أنفسنا قبل أن نقنع الآخرين حول "ضروري" يبدو لفرط ضرورته فائضا عن كل تفسير، محتاجا لكل تفسير، في نفس الآن؟

ما يبدو "حاجة" عند البعض، يصبح "فائضا عن الحاجة" لدى بعض آخر، فكيف يزاوج الشيء بين معناه ونقيضه؟ لنبدأ تلمس عناصر الإجابة من عناصر الأسئلة، من البداية إذن، لكن بطريقة مختلفة عن الطرح الأول كما بدأناه.

يحتاج الإنسان إلى الهواء، يحتاج إلى لمسة حنان، يحتاج إلى كلمة طيبة... باستطاعتنا أن نستخرج قائمة، مفتوحة، بمستويات متباينة من حيث الماهية لا تجمع بينها إلا هذه "الحاجة" التي نحن بصدد البحث عن ماهيتها. إذ يمكن أن نذيل قائمتنا بسؤال مركزي أخير: ما الذي يجمع بين الحاجة إلى حك الجلد والحاجة لرخصة السياقة مثلا؟

يبدو أنه ليس بإمكاننا تحاشي هذا النوع من الأسئلة، حتى لو تعمدنا ذلك، لأنه سيفاجئنا — في سخرية ولؤم — في مكان ما، في كل

مكان، من ثنايا موضوع يتجاوزنا كمثل "الحاجة". ولأجل ذلك لا بد أن نتوقف عنده قبل أن يستوقفنا فجائيا، فنتلعثم في الجواب (هذا إذا كنا لا نتلعثم الآن فعلا في الجواب). لنتفرس جيدا في بنيته وشموخه وصلفه، قبل أن تسعفنا الإجابة: هذه "الحاجة"، على ما يبدو، لا يمكن أن تكون إلا الشرط الأساس لما ينتجها، لما يولدها. الوسط الحي الذي أفرزها – حتى لو كان نصا قانونيا جامدا – كناية عن الواجبات (الفيزيولوجية، النفسانية، الاجتماعية...) التي نلتزم حيالها بضرورة الإذعان، أو السمع والطاعة. "الحاجة" ترتبط دائما بالصيغة الأمرية مع "الواجب": "محتاج" معناه "يجب" كيت وكيت... و إلا؟ و إلا فلتكن مستعدا لتحمل العواقب.

يتعين إذن، كما هو واضح، أن نضبط "الحاجة" انطلاقا من "مجال" الكلام أو منطوق الحديث، وليس انطلاقا من ضبط صارم، مسبق، يوقعنا في شرك التعميمية العمياء. فلنمتنع عن كل ما لم يؤته المرء، وما ينبغي له، لأنه ليس هناك تعريف كامل، ناجز، منزل من عل. ليس هناك من معنى محدد، باستثناء المعنى اللغوي المبسط الموارب الملتبس بدوره، أو أن هذا المعنى متعدد بتعدد الأغراض المستهدفة. لندقق هنا على الفور في هذه الأغراض إذا أردنا أن نكشف عن مكمن التعارض العنيف الذي تتخذه الصيغ التعبيرية "للحاجة"، لأجل ذلك نحتاج إلى عيون ممالئة طيعة تحسن الالتفاف حول المعتقد الذهني الذي تريد رصده ولا تكتفي بمجرد المشاهدة.

إذا نظرنا بعيون الفيزيولوجي، الباحث في وظائف الأعضاء، تتخذ الحاجة معنى معينا: حاجة الجسم إلى الأنسولين، إلى البروتين، إلى الحديد... لتتحرك هذه الآلة العضوانية. إذا حركنا الأعين ذاتها للمنحى النفسي: تحتاج الآلة العضوانية إلى الضحك والبكاء، إلى توازن المشاعر، إلى النظرة الحالمة العطوف، التي تتحول أحيانا إلى ضرورة أكثر ضرورية من الأنسولين والبروتين، بحيث يكون الخصاص إليها مدمرا فعلا. أما إذا أدرنا الأعين تجاه الأوامر الاجتماعية، الاقتصادية، القانونية... تجاه ما يثقلنا ويعذبنا كل يوم، فإننا سنجد حاجات أخرى مختبئة هنا أو هناك: تحتاج إلى حمية صارمة إذا أردت إرضاء شريكك، تحتاج إلى إزجاء التحية إلى رئيسك في العمل، إلى التملق والتزلف من أجل ترقية، تحتاج إلى خوض إضراب حتى تلتفت السلطة إليك، تحتاج لنصيحة قانونية، لقلم للكتابة، لوسيلة للتنقل... إذا لم تقنعك هذه الأمثلة، فاللائحة أمامك مفتوحة وستجد أنك ستحتاج، بالضرورة، لشيء ما في مكان ما وفي زمان ما.

بوسع المرء، بعد أن أضاف ما شاء لقائمتنا المفتوحة، وحذف منها ما شاء (ما ليس بحاجة إليه؟) أن يتساءل عما يوجد بين الأكل والبكاء والانضباط والاعتراف بالجميل وتلميع الحذاء...

ما يوحد قائمتنا المفتوحة، حاجتنا، أو بالأحرى حاجاتنا – ولو أن العادة جرت بالحديث بصيغة المفرد – هو فعل "الإلزام" و"الضرورة" المستتر خلفها. مهما تعددت الحاجات واختلفت، أو تناقضت حتى، فإن صفة الحاجة تجعلها ضرورية في ظرفية مخصوصة. تظل الضرورة الفعل المحوري الموحد حتى لو قارنا قائمتنا البشرية بقائمة مماثلة لما هو جامد هامد، أو عضواني آخر، من نوع: تحتاج التربة إلى سماد مخصب، أو تحتاج النباتات – بما في ذلك الظليلة – لكمية من الضوء، كما تحتاج اللبؤة، إلى أسد، ذكر فحل، من أجل إخصابها طبيعيا...

- هل لي أن أفهم من هذا، يا سيد، أن ما يضغط علي بفعل "الضرورة" هو "حاجة"؟ وأنه ما بوسعي الاستغناء عما ذكرت من أمثلة؟

- مبدئيا ما علي إلا أن أومئ بالموافقة، لكن لنحترس عند هذه الإيماءة من أن ينتابنا شعور بالانتصار فيعمينا عما بقي من مؤشرات، "فالضرورة" في واقع الحال ليست إلا مؤشرا أولا لملامسة ما نرنو إلى ضبطه (أي "الحاجة")، صحيح أنه مؤشر مركزي، لكن تظل هناك مؤشرات ما ينبغي أن تغيب عن البال، والمراهنة عليها ضرورية لنظل ممسكين بتلابيب مشكلتنا.

ثمة أمور لا يقوى المرء على البقاء دونها في أوقات معينة (على افتراض أنه يمكن أن يبقى دونها في أوقات أخرى)، لا يمكن افتداؤها ببديل في تلك الأوقات. لا مراء في أنها لا تتخذ شكلا نمطيا لدى جميع الناس، بل تتخذ أشكالا متعارضة متنابذة من ظرف لآخر ومن فرد لغيره: قوية، ساحرة، جذابة لدى البعض لفرط حاجتهم إليها. بذيئة، خائبة، قذرة لفرط ابتذالها، لدى البعض الآخر. "المنفعة" في تصور الاقتصاديين، و"الظرفية" بالنسبة لمعشر المؤرخين، مؤشران إضافيان، تكميليان لاستعراض أبواب "الحاجة" المشرعة، والتي ينبغي إحكام إغلاقها لتضييق الخناق على "حاجتنا" اللعوب، وهذه بعض الأمثلة:

يحتاج ضعيف البصر (وأحيانا البصيرة) إلى نظارات تساعده على الرؤية، نظارات قد يدوس عليها الآخرون في خيلاء لأنها لا تعني لهم شيئا، هو أيضا قد يعيش دونها، لكن عليه أن يدفع ثمنا مقابل ذلك. يحتاج أي كان إلى دراية بالسياقة وبقانون السير إن هو أراد الحصول على رخصة سياقة. يمكنه طبعا أن يعرض عن هذه "الدراية" بل وعن الرخصة أصلا، لكن في هذه الحالة لن يسمح له بالقيادة أبدا، وعليه أن يستعد لدفع الثمن إذا خرق المحظور.

هذه أمثلة عن حاجات: "ضرورية"، "نفعية"، "ظرفية"... تضطر الناس إلى التفكير فيها بوصفها "حاجات" رغم أن حياتهم – في المعظم الأعم – لا تتوقف عليها، لكن عليهم أن يفكروا، علاوة على ذلك، في حاجات أكثر ضرورة بالنسبة لهم. حاجات تشدهم إليها كدواليب الناعورة بحيث لا خلاص ولا فكاك منها إلا عبر الموت، حاجات تمثل شرط الوجود وشرط ازدهاره، بل حاجات تتربع على "الحاجات" نفسها في كبرياء ونزق وزهو مثير للاشمئزاز المقيت، أو ما يمكن نعته بهدوء بارد مميت "حاجة الحاجات": تلك الأمور الفيزيولوجية المتميزة بالديمومة والمتوقفة عليها حياة العضوانيات عامة بما فيها الإنسان: الهواء، الماء، الغذاء... تلك التي تكرهنا على البقاء في وضع التابع أبدا، وتهددنا، في حال تحديها، بما يسوؤنا، بالشّع المرعب، الذي يمتص دفقان الحياة وعنفوانها، "بالأرملة السوداء" (أكثر العناكب سما)...

- هو الموت إذن؟
- أكيد.

افتراس الآدمي بداعي الجوع: شهادات من حولنا

عرفت روسيا (الاتحاد السوفياتي) أثناء الحرب الأهلية، وبالذات بين ١٩١٩ و١٩٢١م، مجاعة خطيرة دفعت الناس إلى أكل كل ما يجدون. ورغم أن البلاشفة رفضوا اللجوء إلى استدرار عطف الدول المجاورة "الرأسمالية"، إلا أن غوركي Gorki طلب بنفسه دعم

المنظومة الدولية، معترفا بأن السكان يأكلون جثث موتاهم بل ويقتلون من أجل ذلك. وهذا ما أكدته شهادة Ossorguine وTodd Emmanuel، اللذان أقرا صراحة بالتجارة الرائجة للحوم الآدمية أثناء الحرب الأهلية.

وفي نهاية الثمانينات، اعترف الاتحاد السوفياتي رسميا، بأن أول مخطط خماسي ستاليني أدى إلى مجاعة كبيرة في أوكرانيا ١٩٣٢-١٩٣٣م، وأن ستالين نفسه الذي افتعل الأزمة (حيث صمم وخطط ونفذ لمشروع راح ضحيته ما بين ٤و٥ ملايين نسمة) من أجل تجميع الأراضي، وأنه أثناء الكارثة انتشر افتراس اللحم الآدمي.

أحداث افتراس مماثلة عرفها التاريخ المعاصر، خاصة أثناء الحروب، في حصار لينينغراد Leningrad ١٩٤١-١٩٤٢م، وفي ١٩٧٥م في الكمبودج، وفي كوريا الشمالية أثناء المجاعات المتتالية بعد ١٩٩٥م، وخاصة سنة ١٩٩٧م حيث اعترف اللاجئون والمنظمات الدولية بحدوث عمليات افتراس آدمي، وهذا ما أكدته قناة ABC (1997) عندما نشرت خبرا مفاده أن الأهالي قد أصابهم الجنون من الجوع إلى درجة أنهم يقتلون ويأكلون أطفالهم.

ويذكر س. أوكا S. Ooka (جندي ياباني خلال الحرب العالمية الثانية) أنه في سنة ١٩٤٤م حاصرت القوات الأمريكية والفليبينية الجنود اليابانيين في جزيرة "ليت Leyte" بأرخبيل الفليبين، مما أرغم اليابانيين على التوغل داخل الغابة الكثيفة حيث قضى الكثير منهم. أما الذين عاشوا فكان عليهم اللجوء "للكلبونية".

وفي مجال أحداث الطيران الجوي، وقعت حوالي عشر حالات افتراس آدمي منذ ١٩٤٥م، أشهرها حادثة المفترسين من أورغواي الذين تحطمت طائرتهم على سلسلة الأنديز، حيث عاشوا على قممها ظروفا قاسية مدة سبعين يوما استنفذوا خلالها كل ما يملكون من طعام. بعد ذلك التفتوا إلى الموتى منهم، لكن بعد نقاش طويل وعنيف، وتردد أطول وأعنف، حيث خرج الناجون "بفارمان داخلي" مفاده ألا يأكل الفرد من جثة قريب له، وأنه في حالة وفاته يقدم جسده -وعن طيب خاطر- غذاء للآخرين... والواقع أن هذا "الفارمان" هو نفسه كان تطييبا للخاطر، أو تنويما للضمير (سنعود لهذه النقطة بالتفصيل في الفصل الموالي)، أما تجرع وابتلاع قطع اللحم الصغيرة، فقد كان صعبا ومريرا، كما لو أنهم كانوا يتجرعون دواء مقرفا مقززا، وعانى الكثيرون منهم بعد ذلك معاناة نفسية مدمرة، حيث كان على البعض زيارة أخصائيين على مدى ثلاثين شهرا للتخفيف من العذاب ووخز الضمير... بل في استجوابات تلفزيونية مع البعض منهم - في بداية التسعينات - أكدوا أنهم ما زالوا يعانون من هول ما جرى لهم في تلك السنة "المشؤومة"، سنة ١٩٧٢م.

الافتراس الآدمي: التفاتة إلى زمن مضى

أصبح من شبه المؤكد أن إنسان "النياندرتال "Neandertal عرف حالات من الافتراس الآدمي، ذلك ما كشف عنه الباحثون الألمان منذ ١٨٩٠م، انطلاقا من بقايا اكتشفت في مغارة "كرابينا "Krapina بكرواتيا، لكن الأدلة كانت تعوزهم لتوكيد ذلك. بعد هذا بحوالي قرن من الزمن كشفت أعمال الأركيولوجيين بالمعهد الوطني للبحث العلمي بمرسيليا، (في مغارة "مولاكيرسي Molaguercy" في "أرديش Ardèche") عن أعمال تؤكد أن إنسان النياندرتال العاقل L'Homo sapiens néanderthalenisis قد افترس بعضه بعضا.

فقد تم فحص عينة من العظام (٤٦٠ عظما) تغذى عليها بعض أسلافنا من بني البشر، وأثبتت التحاليل أن ٧٢ عظما، منها، هي أيضا لأسلافنا من البشر Hominidés، كانت لستة أفراد متفاوتي الأعمار: بالغان، ومراهقان (١٤-١٦ سنة)، وطفلان (٧-٨ سنوات). وكانت جميعا تحمل آثار مجزرة حقيقية: فالعظام كانت مكسرة ومهشمة، والتفاصيل التي أجريت على بقايا العظام (بمنطقة الأقدام والمرافق والأذرع)، أثبتت أنه تم قطعها وبترها، كما تم انتزاع الفك من جمجمتين فتيتين.

هذه العظام عثر عليها في معظمة واحدة مع عظام حيوانية كثيرة، مما يرجح أن أسلافنا قد مارسوا – ربما تحت ضغط الجوع – افتراس الآدمي.

"المصريات L'egyptologie" أيضا تطالعنا بواحد من أقدم الشواهد على أكل اللحم البشري، تحت ضغط الحاجة/الجوع، من خلال ما وقع في مصر الفرعونية زمن مجاعة أصابتها سنة ٢٢٠٠ ق.م. كما أن الرومان أيضا أكلوا موتاهم في عدة مجاعات، أشهرها ما حدث عندما حاصرت حشود ألاريك Alaric أسوار روما. ويشبه هذا ما ذكره هيرودوت عن الملك الفارسي قمبيز Cambyse (٥٣٠ ق.م – ٥٢٢ ق.م) الذي اضطر للتراجع في إحدى حملاته على الإثيوبيين، لأن جنوده بدؤوا يفترسون بعضهم بعضا. كما اضطرت المجاعة المرتزقة الفينيقيين إلى أكل بعضهم، لكن حالتهم انتهت بمأساوية عندما أمر القائد القرطاجي هاملقار بركة Hamilcar Barca (٢٩٠ ق.م – ٢٢٩ ق.م) بسحق المفترسين تحت أرجل الفيلة لأنه اعتبرهم رجسا لا يمكن إعادة إدماجه بالمجتمع الأصلي.

أجل فهم "رجس"، في ظروف "عادية" في مجتمع "عادي" هم رجس، تماما كما سيحدث في مدينة ستراسبورغ الفرنسية سنة ١٨١٧م، عندما أحيلت سيدة فرنسية على مصحة للأمراض العقلية لأنها افترست طفلها، وذلك حفاظا على "شرف البشرية" كما قررت المحكمة. (راجع التفاصيل ضمن ملاحق هذا المبحث).

قبائل "الأزندي Azandé" المعروفة بنيام-نيام Niam-Niam والتي درسها إيفانز برتشارد Evans Pritchard بأفريقيا، لا تأكل إلا المجرمين والمقاتلين الذين يقتلون في ساحات المعارك. لكن برتشارد أكد أن لديهم نفور من اللحم الآدمي عموما، وأنهم لا يلجؤون له إلا زمن المجاعات الحادة، ووفق طقوس تطهيرية معينة.

الافتراس الآدمي "رجس" يحتاج إلى طقوس مطهرة، حتى لو كان ذلك زمن مجاعة، لأن هذا الزمن أيضا عقاب عن انتهاك "سنن الكون": "فإذا كان ابتلاع الطوطم شكلا من أكل لحوم البشر: (الآدمية)، فإننا نفهم لماذا قد تكون الآدمية الرمزية أو الفعلية قصاصا ينزل بأولئك الذين ينتهكون -عن قصد أو غير قصد- الحرمات." (الفكر البري، ص.ص. ١٣١-١٣٢)، إن المجاعة، مثل غيرها من الكوارث الطبيعية، تتضمن معنى العقاب، فحيثما غفل المجتمع أو سهى عن الحق وذكره، وعمت فيه المنكرات والفواحش والجور، إلا وكان ذلك مؤذنا بنزول كارثة. فالغفلة عن سنن الكون تؤدي إلى خراب "العمران" في التعبير الخلدوني.

زمن المجاعات الكبرى (وبالتالي افتراس الآدمي) يوقع الناس في "المواقف الحدية" كما صاغها ياسبرز K.Jaspers (الخطيئة الكبرى والمعاناة والخوف والصراع والاستياء والموت...) في هذه اللحظات بالضبط يحدث "سقوط الشيفرة" إذ يتخلص الإنسان من قيوده اليومية

واهتماماته المثالية ويصبح في مواجهة الوجود بكل عنفه وعمقه وصميميته (كارل ياسبرز، "العقل والوجود، ١٩٣٥م).

تتحدث الحوليات الصينية، بأسى عميق، عن مثل هذه المواقف (الحدية): ففي عام ٧٥٧م دفع الجوع الناس إلى افتراس ثلاثين ألف آدمي أثناء مجاعة "سوي يانغ Souei Yang". وفي عام ١٨٩٢م ضربت مجاعة أخرى جنوب الصين وصل فيها سعر اللحم إلى ما يعادل ٧٠٠ فرنك (فرنسي) للرطل، كيفما كان نوع هذا اللحم، لأن النصوص تتحدث عن أن الفقراء باعوا أبناءهم من شدة الإملاق.

حدث الشيء نفسه عندما حاصر هنري Henri IV العاصمة الفرنسية باريز. وفي مدينة Sancerre البروتستانتية - زمن المجاعة الحادة التي رافقت الحروب الدينية - تذكر الشهادات التاريخية بأن النساء وضعن أطفالهن في قدور عميقة لطبخهم وأكلهم. سلوك يلقي بنا إلى الذاكرة الجماعية العبرية من خلال ما نقرأ في كتاب "الملوك" - أثناء حصار أورشليم والسامرة - عندما أرغمت المجاعة النساء على طبخ أطفالهن وتقديمهم وجبات غذائية.

"زمن" المجاعة لا نقصد به ظرفيتها، بالمعنى المتداول، أي فترة من عصر مشحونة بالأحداث والوقائع، على المؤرخ أن يفككها ثم يعيد تركيبها. "الزمن" هنا هو اليومي، الرتيب ربما، المرتبط بحياة الأفراد البسطاء، والناس العاديين، في علاقتهم الحميمة. "الزمن" هنا غير زمن البطولات والمعارك، أو المعاهدات الدولية والإنجازات الاقتصادية... التي عادة ما تحتفظ به، وتفصل فيه، كتب الإخباريين والمؤرخين على السواء. "الزمن" هنا هو "الزمن" فقط، بمعنى تعاقب لحظاته، توالي آناته... لكن في آثاره وانعكاساته البعدية على الناس المنغمسين معه في صراع مرير رهيب، قصير/طويل في نفس الآن، قد تدوم "مدته" بضعة أسابيع، أو بالكاد بضعة أشهر، "مدة" قصيرة في "أزمنة" الإخباري والمؤرخ، طويلة، أبدية، في "أزمنة" من يكابد المعاناة اليومية من أجل البقاء، لأنه زمن مجاعة، أي زمن تتكرر فيه لعبة الموت والحياة.

إن لعبة الموت والحياة، الانقطاع والتواتر، الفصل والوصل... هي لعبة الزمن وماهيته الحقيقية، على الأقل بالنسبة للتاريخ البشري - على عكس التاريخ الطبيعي الذي يحوي ضمن ما يحويه تاريخ الجامد/الصخر الذي يرتفع عن مفهوم الحياة والموت بالمعنى البشري - لعبة الفصل والوصل هاته تعني أن الزمن كي يستمر لابد من انقطاع آناته المتتالية. الاسترسال الزمني الملموس يخفي تقطع اللحظات العيانية، فلكي تتدفق الحياة في الزمن، لابد من الموت: فعبر الموت، وبواسطته، تستمر الحياة، لكن أية حياة؟

"الأكل" هنا لا يعني مجرد الأكل العادي، لأننا لا نأكل شيئا عاديا. فالآكل والمأكول شيء واحد. الفعل قائم على الاتحاد والهوهوية (التجانس/التماثل)، والأكل نوع من الانجذاب الوجودي الحزين نحو حياة ممزقة تتطاير أشلاؤها في كل اتجاه، تماما مثل الموت، بمعناه الوجودي أيضا. هاهنا تستوي الحياة والموت وعلى المرء أن يختار. "الأمر هكذا ولا يمكن أن يكون إلا هكذا"

(J.P.Sartre, Critique de la raison dialectique, Paris, 1960, p.128)

تتفق الشهادات، المدققة للأحداث، غالبا حول أن قرار الافتراس - العام في حالة الجوع - كان يتم عادة بعد نفاذ كل غذاء، والدخول في حالة صيام تدوم عدة أيام. (راجع حادثة طائرة الأنديز في مبحث: منحى الضمير، ضمن هذا الفصل). والنصوص التي تؤكد هذا التصور تفيض عن كل حاجة، سنحلل فيما يلي نماذج عنها من خلال التاريخ الإسلامي.

فقد ذكر يحي بن خلدون، مثلا، (بغية الرواد، الجزائر، ١٩٠٤، ص.١٢٥) أن عدد الموتى بلغ في حصار تلمسان (٧٠٦هـ) قتلا وجوعا زهاء ١٢٠ ألفا. وذكر الناصري (الاستقصا، ج.٣، ص.٨٥) في وصف الحصار نفسه: "وبموت السلطان يوسف (٧٠٦هـ) انقضت مدة الحصار عن آل يغمراسن وقومهم من بني عبد الواد وسائر أهل تلمسان... نالهم فيها من الجهد والشدة ما لم ينل أمة من الأمم، واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفيران، حتى إنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس..." بلغ ثمن "اللحم من الجيف: الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ومن الخيل بعشر المثقال، والرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكى بثلاثين درهما، والهر الداجي بمثقال ونصف والكلب بمثله، والفأر بعشرة دراهم والحية بمثل ذلك." (الناصري، ج.٣، ص.٨٦)

وذكر ابن خلكان (وفيات الأعيان) في وصف غلاء (حدث زمن المستنصر العبيدي): لم يعهد مثله بمصر منذ زمان يوسف (النبي)، واستمر سبع سنين، أكل الناس فيها بعضهم بعضا وبيع رغيف واحد بخمسين دينارا، وكان المستنصر في هذه الشدة يركب وحده وكل من معه من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها، وكانوا إذا مشوا يتساقطون في الطرقات من الجوع.

وذكر القادري (نشر المثاني، ج.٢، ص.١٣٤) في أحداث (عام ١٠٧٠هـ/٦٢-١٦٦٣م): "أكل الناس الجيف، وأُكل فيه الآدمي بوسط الصفارين ميتا. وكثر الموت بالأزقة دون ما في المارستان. قيل دفن من المارستان أربعة وثمانون ألفا دون من دفن من غيره".

وكرر الناصري شيئا من مثل هذا في أكثر من مناسبة، ففي "سنة ثلاث وسبعين وألف، أغار المولى محمد بن الشريف على زرع الحياينة بأحواز فاس فانتسفه وأفسده، ووقعت عقب ذلك مجاعة عظيمة أكل فيها الناس الجيف والدواب والآدمي، وخلت الدور..." (الاستقصا، ج.٧، ص.٢٨). "وفي أواخر سنة ثلاث وسبعين وألف مع السنة التي بعدها حدثت مجاعة عظيمة بالمغرب، لاسيما فاس وأعمالها... (حتى) أكل الناس فيها الجيف والدواب والآدمي." (نفسه، ص.١٠٤) ثم ذكر في نفس الإطار: "، وكثر الهرج وانحبس المطر ووقع القحط وعظمت المجاعة واستمر الحال على ذلك نحوا من سبع سنين، من سنة تسعين إلى سنة ست وتسعين ومائة وألف، فكانت هذه المدة كلها مجاعة، أكل الناس فيها الميتة والخنزير والآدمي، وفني أكثرهم جوعا." (الاستقصا، ج.٨، ص.٤٩)

يقدم لنا الإخباريون (من خلال هذه النصوص) "المجاعة" كرديف للسانكروني الثابت لاستواء الزمان "الآن". لكن الواقع الذي يجب أن ينتبه إليه المؤرخ المحترف هو أن الزمن لا يتوقف. "المجاعة" مستمرة في الزمان مدة تنساب فيه، ومع فعل الانسياب هذا ينساب الجوع أيضا. إن الأمر دقيق في بعده الزمني الممتد، وفي علاقته مع التطور الذي قد يحصل على المشاعر: إن التجربة/الصدمة الأولى قد تجعل مرتكب الفعل "الأكل" يحس بنوع من المرارة أو وخز الضمير، أو تذهب به حد التقيء والغثيان... لكن المجاعة تمتد على زمن معين، وصفة التمادي هذه تجعل مرتكب الفعل "الأكل" يجوع من جديد، ثانيا، وثالثا، ورابعا... بطول مدة المجاعة. فهول التجربة/الصدمة

الأولى قد مضى لحاله، وليس هناك إلا الاستسلام للجوع ⟵ الموت، أو الصراع من أجل البقاء ⟵ الحياة = أكل الآدمي.

تتلاشى الصدمة الأولى، وتحل محلها الضرورة المتكررة، ثم العادة، وربما اللامبالاة... من شأن هذا الاستسلام النفسي أن يعبر عن ارتهان الذات في الموضوع، فتصبح الذات منفعلة أكثر منها فاعلة... تفعل بها الظرفية وتحولها إلى هذا الكائن: "الإنسان اللاإنساني"، لكن حتى في قمة هذا الانفعال يجب ألا ننسى أننا أمام اختيار في النهاية، إذ أن هذا التحول في السلوك المرتد ضد الطبيعة البشرية بل والحيوانية أيضا - لأنه من النادر حسب ما علمنا علم الزولوجيا أن يأكل الحيوان قرينه كحالة بعض العناكب مثلا - نتاج اختيار مثقل بالإكراهات، هذا أكيد، لكنه اختيار في النهاية: بين أن يصبح الإنسان ميتا أو أن يأكل ميتا (إنسانا).

هكذا يتعرى الإنسان من كل ما علمته إياه الثقافة، من آلاف السنين المتراكمة في سجلات الحضارة. تقول النصوص بعد أن تصور المنظر بشعا، مقززا، مقرفا... بعد الكلاب والقطط، بعد جيف الكلاب والقطط والفئران... وكل ما يتحرك، أو ما كان يتحرك، تبدأ الأيادي بالامتداد نحو الأيادي الأخرى التي توقفت عن الحركة، تتفحصها... تتفرس فيها... تقلبها... تتركها ثم تعود إليها... كم يستمر الوضع قبل اتخاذ القرار بالأكل؟

لا تجيبنا النصوص إلا بإشارات مبهمة مقتضبة محشورة داخل كمّ من العبارات التي تسترسل في وصف الكارثة أحيانا، وقد ألف ابن علقمة كتابا ضمنه بعض ما نقول "يبكي القارئ ويذهل العاقل." حسب ما وصفه به ابن عذاري (ج.٤، ص.١٤٧-١٤٨)

"بيعت بيضة دجاجة بثلاثة دراهم، ورطل اللحم البغلي بستة دنانير، ورطل الجلد البقري بخمسة دراهم..." (ابن عذاري، ج.٤، ص.٣٨) "وانسلخ هذا الشهر (ربيع الثاني) ورطل القمح بثلاثة مثاقيل غير ربع... ودخل جمادى الأولى وعدمت الأقوات بالجملة، وهلك الناس... بيع رطل لحم الفرس باثني عشر دينارا، ورأسه بخمسة عشر مثقالا... ووصل القمح ثلاثة مثاقيل للرطل، ورطل الشعير مثقالين ونصف، وأوقية الجبن بعشرة دراهم، وبيضة دجاجة بثمانية دراهم..." (ابن عذاري، ج.٤، صص.٣٨-٣٩) في هذا الخضم يأتينا الخبر، كأنه يحاول أن يخفف عنا، يمهّدنا، بذكر ظروفه، لهول ما سنقرأ أو نسمع: "وترمق سائر الناس - أي أن الرجل كان يتكلم عن المياسير الذين بقي لهم بعض ما يشترون ما بقي من أشياء تؤكل - بالجلود والأصماغ وعروق السوس، ومن دون هؤلاء بالفئرة والقطط وجيف بني آدم، وهجم على نصراني وقع في الحفير، فأخذ باليد، ووزع لحمه." (ج.٤، ص٣٩)

تستوقفنا، بجد، العبارة الأخيرة في النص: "وهُجم على نصراني وقع في الحفير، فأخذ باليد، ووزع لحمه"، لنتساءل عن الدلالة المرجعية "للنصراني" في المنظومة الثقافية المؤطرة لحدث الافتراس الآدمي: لماذا النصراني بالضبط؟

الإجابة على السؤال تستدعي، أولا، التشديد على زمن الحدث وظرفيته. لأن النصارى هم من ضاعف المأساة، بحصارهم المدينة: "وجدّ الطاغية (لذريق) في حرق من خرج من المدينة إلى المحلة، لئلا يخرج الضعفاء، ويتوفر القوت على الأغنياء."(ابن عذاري، ج.٤، ص.٣٩)

ثانيا) رغم ذلك لا بد لإسكات وخز الضمير من فتوى تخرسه، فتوى يقتنع بها العقل، أو على الأقل يزعم أنه اقتنع بها، حتى تطمئن النفس وتهدأ. وفي هذا الصدد تقدم المصادر الفقهية مادة دسمة، أكثر دسما في جميع الحالات من الموضوع الذي تعالجه والمرتبط بالمجاعة وقلة الحيلة.

لقد فصلت مصادر الفقه الإسلامي في مثل هذه النوازل، فالمضطر "إن لم يجد إلا آدميا محقون الدم لم يبح له قتله إجماعا ولا إتلاف عضو منه، مسلما كان أو كافرا، لأنه مثله فلا يجوز أن يبقي نفسه بإتلافه وهذا لا خلاف فيه، وإن كان مباح الدم كالحربي والمرتد، فذكر القاضي أن له قتله وأكله لأن قتله مباح. وهكذا قال أصحاب الشافعي: لأنه لا حرمة له فهو بمنزلة السباع، وإن وجده ميتا أبيح أكله لأن أكله مباح بعد قتله فكذلك بعد موته، وإن وُجد معصوما ميتا لم يبح أكله في قول أصحابنا، وقال الشافعي وبعض الحنفية: يباح وهو أولى لأن حرمة الحي أعظم." (ابن قدامة، المغني، ج.١٣، صص.١٠٨-١٠٩)

وهذا ما أكده صاحب "الشرح الكبير" (نشر مع المغني، ج.١٣، صص.١٤٧-١٤٨) بل ذهب بعض الشافعية (الشرح الكبير، ج.١٣، ص.١٤٤) إلى أنه يجوز للمضطر أن يأكل بعض أعضائه "لأن له أن يحفظ الجملة بقطع عضو منه كما لو وقعت فيه الأكلة." وقد تنبه صاحب المغني (ج.١٣، ص١٠١) إلى مسألة انسياب الزمن عند معالجته مسألة أكل الميتة أثناء المسغبة، فأجاز للجائع أن يأكل حتى الشبع "لأنه إذا اقتصر على سد الرمق عادت الضرورة عليه عن قرب، ولا يتمكن من البعد عن الميتة مخافة الضرورة المستقبلة..."

صاحب "كشاف القناع" - من أنصار هذه الفتوى والمنافحين عنها - يؤكد أن الحنابلة أيضا أجازوا للمضطر أكل الميت غير المعصوم، أي الذي دمه مباح، مثل المرتد والحربي والزاني المحصن والقاتل في المحاربة. ووافقوا الشافعية في القول بجواز قتل الحربي والمرتد وأكل لحمه. (البهوتي، كشاف القناع عن متن الإقناع، مطبعة الحكومة، مكة، ج.٦، ص.١٩٨).

فالكافر الحربي أو المسلم المرتد أو الزاني المحصن... والحالة هذه - حالة مجاعة - لا يحل فقط ماله وعرضه ودمه (أي قتله) بل يحل أكله أيضا.

يتكشف هنا تصنيف بشري/اجتماعي، مغاير للمألوف من حيث الغائية: ف"المؤمن" و"الكافر" تمييز ديني، و"الشرق" و"الغرب" تمييز ثقافي، و"الآري" و"السامي" تمييز عرقي وهكذا... (لا نلتفت هنا إلى مصداقية هذه التصانيف).

هذه التمييزات تحيل على غاية واحدة هي التفوق والتعالي: تفوق ديني، تفوق حضاري، تفوق جنسي (دون أن نلتفت أيضا إلى معالجة من هو المتفوق فعلا). قد يتولد عن هذا التعالي أشكال من الاستغلال أو الاستعباد أو الاستعمار... لكن الأمر - رغم بشاعته - لا يتعدى هذا المستوى، بينما في حالتنا، التي نحن بصدد تحليلها، يتخطى ذلك حدود البشع إلى الأبشع، ليصبح عندنا تصنيف بشري/اجتماعي يميز بين جماعة المفترسين (بكسر الراء) وجماعة المفترسين (بفتحها).

يحتاج ضبط هذا التصنيف إلى تطويق مرجعياته من الخلف، لأنها مرجعيات مركبة تلفّ الديني والعسكري والكارثي في آن واحد: ينبغي قتل الكافر الحربي، فهو ليس بالذمي أو المعاهد/المسالم، والزاني المحصن (رغم إسلامه) لأنه مرق عن الدين فينبغي قتله، والمرتد، المارق أيضا، والذي تحول إلى حربي. هذه المرجعية

العسكرية/الدينية توجب "القتل"، بينما تمثل المرجعية الكارثية (المجاعة) الثغرة التي تجيز "الأكل". على أن المرجعية الدينية - على الأقل - واضحة في هذه النقطة بما فيه الكفاية: فالفعل الأول فعل "وجوب" أي ضرورة، فيما الفعل الثاني فعل "جواز"، أي اختيار. وعلى من يروم فهم ظاهرة "الافتراس" أن يقف - مرة أخرى - ويتأمل نزعاتها الطبيعية والثقافية. لأن تحديد النزعات - فضلا عن المرجعيات - من شأنه أن يحدد كيفية تعامل "المفترس" مع وجبته/فريسته، أي رغبة أم حاجة.

المرجعيات حملتنا لتحليل "البراني" (علاقة المفترس بالفريسة)، بينما تحملنا النزعات لتحليل "الجواني" (النفساني المعتمل داخل المفترس) وفق محددات "الرغبة" و"الحاجة".

الأكل حاجة، والشرب حاجة، والجنس حاجة... فالإنسان - كمثل باقي العضوانيات - محتاج للتغذية كي يعيش، هذه حاجة، ضرورة من ضرورات الحياة، وانعدامها يعني الموت. والشرب كذلك، والجنس ولو أنه لا يؤدي إلى الموت إلا أن الغريزة الطبيعية السوية تجعله ضرورة لتحقيق توازن نفساني، وهكذا... هذه مواضيع سبق أن أشبعناها تحليلا في مكان آخر (غوردو، التمدين والسلطة.) وصنفناها ضمن "رموز السلطة". لكن هناك فرق بين أن يأكل الإنسان كي يضمن بقاءه حيا، وفي هذه الحالة - الحاجة - يأكل كل ما يجده صالحا للأكل (هنا يتذكر الإنسان أصله البدائي: أنه حيوان "قارت") شريطة ألا يؤدي به إلى الموت كأن يكون مسموما مثلا، وبين أن يدخل الإنسان إلى أحد مطاعم الخدمة الذاتية "Self service" حيث يوضع أمامه ما لذ وطاب، وهو يختار حسب شهيته: ففي الحالة الأولى الأكل "حاجة" وفي الثانية "رغبة" - وقد تلتقيان أحيانا - رغم أنهما معا من "رموز السلطة".

في الحالة الأولى يحتاج "المفترس" إلى مهدئ نفسي -كاثارسيس - (تطهير = Catharsis) حتى يستريح الضمير المتعب، وهذا ما تكفله الفتاوى الدينية (في الحالة الإسلامية)، بينما يصبح "الافتراس" في الحالة الثانية هو المهدئ الذي يريح النهم الداخلي للذة والمتعة، تماما كحاجة المدمن للتدخين، فالتوقف عن التدخين (أو حتى عن المخدرات) لا يؤدي للموت إلا فيما ندر، بل قد تكون له نتائج حميدة غالبا، إلا أن المدمن يصعب عليه، وأحيانا يستحيل عليه، تجاهل الهاتف داخله والذي يدعوه بإلحاح لإخراج سيجارة ونفث سحابتها حوله وداخله أيضا.

افتراس اللحم الآدمي "فعل" واحد، فالآدمي هو الآدمي - كيفما كان جنسه أو دينه - والافتراس هو الافتراس - كيفما كانت طقوسه أو تقاليده -، "الفعل" واحد مهما اختلف الزمان أو المكان، لكن الدوافع تختلف "حاجة" أم "رغبة": حدث تاريخي واحد و"رموز سلطة" متعددة.

التعامل مع "رموز السلطة" في تحليلنا السابق يجعلنا نحتفظ ببعض الاستنتاجات، تحفظا من أي ملاحظة جانبية مفاجئة:

الامتداد باتجاه اللحوم الآدمية وافتراسها في حالة "رمز سلطة الحاجة" (أي المجاعة)، استجابة لمحفز طبيعي لإخراس غريزة البقاء، وفي حالة "رمز سلطة الرغبة" (أي اللذة) استجابة لمحفز ثقافي لإخراس نشوة الانتشاء. هذا استنتاج أول، أما الاستنتاج الثاني المترتب عنه فيتلخص في أنه ليس هناك ما يلزم المفترس باقتراف سلوكه. "رموز السلطة" المحللة هنا تدفع للسلوك، نعم، لكنها لا تؤدي إليه بالضرورة. أي أن هناك دائما هامش من الاختيار - ولو أدى هذا الاختيار إلى الأسوأ - فالمجاعة لا تحتم على الآدمي أكل الآدمي، لأنه بإمكان الجائع أن يفضل اختيار الموت. وكما المجاعة، فاللذة أيضا ليست ضرورية لافتراس آدمي آدميا آخر، لأن الرغبة قد تكبت. على أن هذا التحفظ (الاستنتاج الثاني) لا ينقص من صلابة تحليلنا قيد أنملة، لأننا حللنا "الحدث" كما وقع فعلا، أي أن الافتراس واقعة تاريخية ملموسة، ونحن حللنا رموزها السلطوية باعتبارها تاريخا واقع، ومستمر، الحدوث، وليس ممكن الحدوث.

ملاحق: الافتراس جوعا

- انطلقت السفينة الإنجليزية Glenmae من ميري لاند Maryland في دجنبر ١٨٨٧م باتجاه بوينس أيرس، لكن العواصف ألقت بها جنوبا بين جزر ستاتن Staten Islands وأرض النار. استطاع الناجون أن يصلوا إلى الأرخبيل الصخري حيث قضوا هناك عدة أسابيع على أراض عارية جرداء.

استغل ١٥ منهم تحسن الطقس ونجحوا في الوصول إلى فنار يبعد عنهم بحوالي ٢٥ ميلا، وهناك قصوا حكايتهم المثيرة، ذكروا أنهم كانوا يقتاتون طيلة المدة الماضية على الأعشاب البحرية. لكن الأمواج التي ألقت بعدد من البراميل إلى الشاطئ كشفت عن مجزرة بشعة، إذ داخل البراميل كانت هناك جثث آدمية كثيرة تم تقطيعها وتمليحها. أجل فالرجال الخمسة عشر كانوا قد قتلوا زملاءهم الأضعف واحتفظوا بهم ظنا منهم أن مدة إقامتهم بالأراضي الجرداء ستدوم طويلا.

- في مطلع القرن ١٩م، عرضت حالة افتراس آدمي - في فرنسا - على الدكتور النفساني Reisseissen بستراسبورغ. ففي يوليوز ١٨١٧م عاد أحد العمال الزراعيين إلى بيته بعد غيبة دامت يومين، وسأل زوجته عن طفلهما الأصغر (١٥ شهرا) لكنها لم تجبه، ولما حاصرها بالأسئلة أشارت إلى خزانة في المطبخ.

في إحدى الزوايا كانت هناك سلة مغطاة، بعد أن رفع الرجل الغطاء تعرف ابنه، مدرجا، في الدماء، وينقصه الطرف الأيمن السفلي. بعد إلقاء القبض على الزوجة اعترفت بأنها قتلت طفلها بسبب الإملاق الشديد (تذكر المجتمع الجاهلي الذي وصفته الآية: ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق...)، وأنها نزعت إحدى الأرجل وطبختها مع الكرنب، وأكلت جزء واحتفظت بجزء آخر للزوج حين يعود. وبالفعل تم العثور على أجزاء أخرى للطفل مخزّنة في أماكن مختلفة، كما تم العثور على عظم الفخذ الأيمن وقد أكل لحمه.

رغم أن التحقيق لم يثبت أية حالة من الجنون، فإن المحامي والمحقق معا أصرا على أن المرأة مختلة عقليا "حفاظا على شرف البشرية"، فتمت إحالة المرأة على مستشفى للأمراض العقلية.

منحنى الضمير

" أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ "

الحجرات / ١٢

الرمز الفاعل: الضمير

قلنا عند حديثنا عن الثأر، بأنه يتولد عن شعور عميق يمزج بين الغضب والألم دفعة واحدة. والغريب أن موضوع "الثأر" يلتقي في عمق التحليل مع موضوع "الضمير" في مسألة "الغضب"، ولعل هذا ما جعل "نيتشه" يكتب ذات يوم (ص.٥٩) (Nietzsche, La généalogie de la morale, trad. Henri Albert, Edit. Gallimard,1964) بأن المذنب – الذي أغضب الآخرين – ينبغي أن يعاقب، ينبغي، لكي يكفر عن ذنبه، أن يعوض حتى لو كان هذا التعويض مجرد ألم يعانيه متسبب الضرر، وذلك حتى يسدد دينه. المستدين يتعهد أمام الدائن بتسديد الدين من الأشياء التي يملكها، عادة عقار أو مال أو ما شابه... لكننا في حالة "الضمير" أمام شكل غريب من التعويض: عوض أن يسدد المدين للدائن نقدا أو عقارا أو ملكية ما... فإنه يعطيه نوعا من "الارتياح" في شكل تعويض. ارتياح الدائن يوازيه تعب الضمير وعذاب المدين. انظر إلى هذا الاقتران العجيب بين "الذنب والشقاء"، اقتران بصورة مكينة لا فكاك لها. الضمير المتعب ينغص العيش، يلحق الضرر بالذات، إنه مهرجان حقيقي للألم، وهنا يلتقي "الضمير" و"الثأر" من جديد، في صورة فجة، ديماسية، مؤلمة، لأن الضمير يثأر من صاحبه، بجعله مستسلما للألم، رغم عبثية الألم وافتقاده لأي معنى في أحيان كثيرة (شكل ممايسميه ا.هكسلي "ما خارج الظاهرة" Epiphénomène). لكن أنّى له أن يطرده، أو يتخلص منه... فلنتأمل هذا اللغز المستعصي عن الحل ولنستفسر عن كنهه ومضمونه عند شخص مجرب بمثل هذه الألغاز مثل "فرويد"[1] مثلا، فنجده، رغم التجربة المسطورة، حائرا في الأصول، عاجزا عن سبر الغوائل والأغوار، يُرجع البصر، فينقلب البصر خاسئا حسيرا. ثم نستفسر كرة أخرى، بملء الفكر عن القوة الجبرية التي جعلت ماديا متمرسا – نظرية وتطبيقا – مثل "لينين" يقر بالقوة الجبارة للضمير عندما يقرنه بالشرف،[2] فيرتد الفكر كليلا مهزوما.

مسألة إضافية أخرى ينبغي التنصيص عليها هنا بالاستتباع حتى يتم هذا الموضوع الذي يبدو أنه لا يكتمل أبدا. فإذا كان معنى الضمير معقدا، والبحث عن أصله أعقد، فإن تحديد نهايته أو تشكيل غائيته أشد تعقيدا.

ينطلق عذاب الضمير من مسألة محورية أساسية: "ما كان علي أن أفعل ذلك" ثم يرتد صداها إلى الداخل، إلى "النفس" وبالضبط إلى "النفس اللّوامة" – بالاصطلاح الإسلامي الكلاسيكي – (ابن القيم، الروح، تحقيق محمد اسكندر يلدا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢، فصل كامل من ص.٣٠٢ ...) وغايته أن يروض هذه النفس عند نهاية المطاف، فتتوب عن الإثم المقترف ولا تعود إليه أبدا. أجل "ما كان علي أن أفعل ذلك" هي الفكرة المؤرقة، المحزنة، المرعبة... المجبولة بكل أنواع الألم والعذاب، وذات المفعول السحري المميت. فهي فكرة بمفهوم "الاستبطان" Introspection (النظر إلى الداخل، إلى الظواهر النفسية المستبطنة والانفعالات الداخلية الخفية) ولأنها - الفكرة - تتضمن صيغة الارتعاب التي يعيها الإنسان (ذو الضمير)[3]، فإنها تتضمن إذن صيغة مضمرة أخرى متراثية خلفها هي صيغة الارتداع، لأنها فكرة رادعة مكبلة حاضرة بقوة: "ما كان علي أن أفعل ذلك" تخفي خلفها صيغة أخرى آمرة: "ليس علي أن أفعل ذلك" و إلا سأنقاد إلى الحالة المخيفة التي تطبق بمخالبها النارية على كل من يعي "الإثم" ومع ذلك يرتمي بين أحضانه، أقصد الحالة المظلمة لعذاب الضمير.

عذاب الضمير ألم ممض ينوء بكلكله على صاحبه، يوقظه من غفوته ويقوده إلى لحظات عيانية ملموسة من الشقاء الفعلي، الحقيقي، خاصة وأنه يصور الشقاء بصفته عقابا عن ذنب، يسمم حياته ويقوده إلى تدمير نفسه بنفسه إذا لم يتمكن من محاصرته عن كثب، بالوصول إلى الخلاص، فيصار عندئذ إلى حسم نهائي للمسألة إما بالانصياع إلى لعنة الإرادة العدمية، حيث يرتد المرء على ذاته ويستسلم للرغبة في تدميرها عبر السعي إلى مزيد من الشقاء، وإما بالتوصل إلى إنقاذ الإرادة نفسها بالتصالح مع الذات ثم مع الحياة، ليهدأ الضمير وينام، بإطلاق "رصاصة الرحمة" على الإحساس بالذنب، إلى أن يوقظه، ربما، شعور جديد بذنب جديد. أما الاحتمال الآخر، والأخير، فهو أن تكون "رصاصة الرحمة" قد أصابته في مقتل - إشعار بالموت النهائي للضمير-، ينام فلا يستيقظ بعدها أبدا، أو بالأحرى يستيقظ عوضا عنه الوحش الكامن في الإنسان، الوحش الذي شحذ مشاعر العداء فلا يشعر بالإثم على أي ذنب اقترفه، بل لا يراه ذنبا أصلا، الوحش الذي يرتكب الشر من أجل لذة ارتكابه، الوحش الذي "يؤلّه" الشر وينصبه على الذاكرة.

عذاب الضمير طاحونة لا تعرف الشفقة، مهمتها الدوران لإنتاج الألم والفظاعة والحزن والقرف والغياهب المظلمة... بتعبير موجز تسميم حياة "العاصي": الذي عرف الحد وتجاوزه، عرف الذنب واقترفه، عرف الإثم وارتمى فيه... فليضع في غياهبه المظلمة.

فإذا أردت إذن ألا تضيع في هذه الغياهب المظلمة، ألا تسقط في الهوة السحيقة التي لا قرار لها ولا قعر، فلا تفعل "كذا"، "كذا" هو الإثم الذي ينبغي اجتنابه وتفاديه. ولكي تحسن اجتنابه وتفاديه فعلى

---

[1] - "الضمير هو الإدراك الداخلي لانتباذ بعض الرغبات التي تساورنا على اعتبار أن هذا الانتباذ لا يحتاج بطبيعة الحال إلى ذرائع يتعلل بها وأنه واثق من نفسه، وهذه الصفة تتجلى بمزيد من الوضوح بعد في إحساسنا بالخطأ لدى إدراكنا وإدانتنا الداخلية لأفعال أتيناها تحت تأثير بعض الرغبات، ويبدو أن أي تعليل لهذه الإدانة فائض عن الحاجة: فمن كان ذا ضمير فلابد وأن يجد في دخيلة نفسه تبريرا لهذه الإدانة، ولابد أن تحدو به قوة داخلية إلى تأنيب نفسه وتأنيب الآخرين على بعض الأفعال المقترفة." س. فرويد، الطوطم والحرام، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٣، ص.٩٢. ورغم ذلك فإن فرويد لم يستطع تحديد مصدره، وإن كان قد قدم له تعريفا، فهو يقول (ص.٩٣) "وهو - أي الضمير - شعور طبيعي وفطري بقدر ما هو مجهول من حيث أصوله."

[2] - كتب لينين بخصوص الضمير منوها به: "إذا بقي بين الفوضويين أناس لم يتعظوا بعد تحول كروبوتكين وغراف وكونيليسين وأضرابهم من نجوم الفوضوية، التحول البليخانوفي إلى اشتراكيين شوفينيين أو إلى فوضويي خنادق حسب تعبير غيه، أحد الفوضويين القلائل الذين احتفظوا بالشرف والضمير." الدولة والثورة، دار الطبع والنشر باللغات الأجنبية، موسكو، ط.٢، ص.١١٢.

[3] - إذا سلمنا بأن الضمير "مركب من الخبرات العاطفية القائمة على أساس فهم الإنسان للمسؤولية الأخلاقية في المجتمع، وتقدير الفرد الخاص لأفعاله وسلوكه." الموسوعة الفلسفية، بإشراف م. روزنتال وب.يودين، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ط.٥، ١٩٨٥م، ص.٢٨٢)



الضمير أن يبقى يقظا طول الوقت ، لأن يقظته وحدها تنتشل من السقوط وتضمن عدم الضياع في ضباب التشاؤم واليأس ، عبر كبح جماح الرغبة في الإساءة لغير. أما إذا كانت الرغبة جامحة عارمة تجرف نحو شلال الذنب ، فعليك حينئذ التكفير عن الكفر بالمنظومة التي تؤطر المجتمع المنظم الذي أسأت إليه. فكما أسأت للغير عليك أن تسيء لنفسك ، بتعذيب الذات وامتهانها والقصاص منها ، على قدر الجرح الذي ألحقته بالآخرين ، بالمنظومة المؤطرة التي تعيش فيها ، ينبغي أن يكون حجم الرعب المستبطن داخلك ، حجم تحقير الذات وسلخ جلدها ، ولا تأخذنّك بها رحمة أو شفقة ، هي التي لم تشفق على الآخرين وترحمهم ، هذه القذرة الخراب الأمّارة بالسوء ، عليك أن تقتص منها بكل ما أوتيت من عنف وشدة ، والذي يتولى ذلك هو أنت بالذات ، ضميرك هو الجلاد ، والعذاب هو المقصلة.

شهادات معاصرة

- في نوبر ١٩٨٠م نشر Paul Riggs أستاذ الجينالوجيا بجامعة كاليفورنيا وثائق تؤكد بأن أخوال المرشح الجمهوري للبيت الأبيض "رونالد ريغن" قد افترسوا بعضهم بعضا. وبالفعل كان الأخوال الثلاثة قد لجؤوا لإحدى المغارات بجبال روكي بكولورادو للاحتماء بها من عاصفة ثلجية دامت طويلا.

بعد أسبوعين تمكن الجوع من الخالين: Charlie وDaniel فقررا أكل أخيهما Alexandre الذي توفي في المغارة من جراء جروحه ، فتم تقطيع بعض الأجزاء إلى قطع صغيرة وابتلاعها. هذا ما أكدته وثائق محاكمة Denver الشهيرة ، التي برأتهما ، لأنهما اقترفا "الإثم" تحت ضغط الجوع الذي أفقدهما كل تفكير سليم.

بعد ذلك ظهر "ريغن" على شاشة التلفزيون يطمئن الأمريكيين قائلا: "لا داعي للخوف فالكانيبالسم ليس وراثيا."

- في الحادثة الجوية الشهيرة بجبال الأنديز سنة ١٩٧٢م ، بعد تردد طويل لجأ الناجون لأكل جثث رفاقهم الموتى ، كان عليهم أن يقنعوا أنفسهم بسلوك الافتراس. من بين ما قاله أحد الحاضرين (طالب في كلية الطب): "الأرواح قد غادرت الأجساد إلى السماء ، هي الآن بين يدي خالقها ، ما يوجد أمامنا الآن ليست إلا هياكل ، كتل من لحم ، لا حياة فيها ، قطيع نأكله."

وللتخفيف من العبء الذي أصبحوا يرزحون تحته تعاهد الناجون ، وعددهم ٢٧ شخصا ، على أنه إذا مات أحدهم فإنه يقدم جسده غذاء للآخرين.

لم يتم الاقتراب من الجثة الأولى إلا بعد لأي وإحساس شديد بالمرارة. أخذوا على أنفسهم ألا يقربوا بعض الأعضاء ، ولا جثث الأقارب. اختراق "المحظور" كان ثقيلا على النفس ، وبعد مداولات طويلة ، تم تقطيع الجثة الأولى إلى قطع صغيرة ، مذاقها كان مقرفا للبعض إلى درجة الغثيان ، لذا لجؤوا إلى خلط اللحم بمواد أخرى حتى يصبح مستساغا. البعض الآخر لجأ للنار لطهيه حتى يتمكن من ابتلاعه... لكن شيئا فشيئا ، وتحت ضغط الجوع تم التهام الجثث جميعا الواحدة تلو الأخرى.

الضمير التحليل

تجيز الفتاوى الشرعية (بالنسبة للمسلمين) افتراس الآدمي - في ظروف خاصة شرحناها - لكن ما لا يتم الانتباه إليه بسرعة ، عند مطالعة النصوص ، أن المنظومة الاجتماعية كانت تحجم عن ارتكاب هذا الحرام/المباح - رغم الكاثرسيس الديني - وهو ما يفسر كثرة الموتان أثناء المجاعات. لماذا هذا "التمرد" المضمر على نصوص شرعية تسعى إلى تفريج الغمة وإزاحة الكربة؟ ما هو الحاجز الذي ينتصب للشرع بالمرصاد ويجعل الناس تختار الموت على الحياة؟

ينبغي للتذكير - أولا - بأن لكل سلوك دوافعه التي توجهه ، بلغتنا نحن "رموز سلطته" ، وظفنا منها في تحليل "الافتراس" عدة نماذج. لكن ما هو الرمز الذي يدفع للإعراض عن الافتراس؟

لننبه - ثانيا - إلى أن موضوعنا الأصلي هو "الافتراس" وليس "الإعراض عن الافتراس" ، لكن ما دام أن هذا يرتبط بذاك ، أو أنه يقع في ظله ، فلا بأس أن نوليه شيئا من التحليل ، لأن المقابلة/المقارنة بين الموضوعين قد تكون مفيدة جدا.

ونحن نتأمل الشهادات "الحية" المباشرة ، أو غير المباشرة ، لوقائع الافتراس ، تسترعي انتباهنا بعض الإشارات ، أو التعقيبات التي ذكرها الإخباريون دون شعور منهم ، بل ربما بطريقة آلية تقع خارج وعيهم التام ، لكنها تعبر عن حالتهم النفسية إزاء واقعة الافتراس. من ضمن هذه الشهادات استسلام ابن بطوطة لشعوره الداخلي بعد أن قص علينا رواية الرجل الذي وُجد - أثناء مجاعة وهو يشوي رجل آدمي ويأكل منها- علق الرحالة المغربي على الحادثة مباشرة بقوله: "والعياذ بالله". هذا قاض ، سليل عائلة قضاة أصيلة ، متمرس بأحكام المذاهب ، من خلال تكوينه وتجواله ، يستسلم لنفسه فيستعيذ بالله من سلوك يفترض أنه يشرعن له ويفتي بجوازه؟

هذه إشارة أولى ، أما الإشارة الثانية فقد وردت عند ابن عذارى ، وهو يصف مجاعة بلنسية ، (ج.٤ ، ص.٣٩): "وبينما الرجل يمشي سقط ميتا" وهي إشارة توضح وتؤكد ما ورد في الإشارة الأولى ، لأن المعني بالأمر رفض السلوك المؤدي للافتراس إلى أن سقط ميتا.

ما الذي يمكن الاحتفاظ به من مثل هذه الشهادات بالنسبة للعلاقة بين الافتراس والإعراض عنه؟

نحن - في الاستشهاد الثاني - أمام موقف رجل من العامة ، يستهجن أو يستبشع افتراس الآدمي إلى أن يسقط ميتا ، ونحن - في الاستشهاد الأول - أمام قاض يجسد لنا ، رغم علمه بدقائق المعضلة ، مفارقة سلوكية بين طرفين متعارضين سلوكيا (لا نستحضر هنا الطرف الثالث الذي يدفعه رمز "اللذة"). يجسد الطرفان معا منظومة السلوك المستسلم لظرفية حرجة (المجاعة) ، لكن بأسلوبين مختلفين تماما: بين شعور بانتباذ مقرف يجعل قاضيا يستعيذ بالله منه. (ضمنيا يفضل الاستسلام للموت) وشعور ثان يمتاز بنوع من الرفض "الإيجابي": فهو يوافق على أن التصرف مقرف ، لكن داعي الحياة داخله يأبى الانصياع للجوع والموت.

غير أن هذه الاستشهادات تتميز فضلا عن طابعها الإخباري — ومن خلال استسلام الإخباريين لذواتهم — بسعيها إلى توجيه السلوك أو الشعور العام من خلال تبشيع المستساغ الجائز أو تسويغ البشع المدان. الاستشهادات التي عرضنا لها تحيلنا على الشعور العميق الذي رسخته "الثقافة" في المجموعات البشرية ، أو على الأقل جزء كبير من

هذه المجموعات، وهو الشعور الذي يؤدي إلى تآكل الحكم الشرعي المبيح لفعل الافتراس، رغم بعض "التجاوزات"، وعليه فإن رمز "الضمير" يبدو لنا قويا في توجيه الناس نحو الإعراض عن فعل الافتراس، والتحفظ بالتالي على النصوص الشرعية المجيزة له.

لربما جاز لنا اعتبار هذه الاستشهادات/اللوحات، مؤشرا كافيا للتعبير عن ازدواجية الإحساس الجماعي العام. فلكل استشهاد مدلوله الميداني ومجاله الزماني/المكاني الخاص، لكن ما يجمع بينها على اختلاف لويناتها، هو أن ظرفيتها المؤطرة العامة واحدة (مرة أخرى نشير إلى أننا هنا لا نتحدث عن الافتراس رغبة/لذة) وهي ظرفية المجاعة، أو بالأحرى "زمن" المجاعة الذي أفرز هذه الثنائية في السلوك، ومن ثم ازدواجية الشعور العام.

الغفلة عن الزمن التاريخي المتطور تسحبنا إلى التغاضي عن طرح الأسئلة المحرجة المحيطة بالمجاعة، إذ يجب أن نفكر في الزمن الذي تستغرقه المجاعة بشيء من البطء حتى نتمثل بوضوح واقع الحال، ولا نعني بالواقع هنا المجال الموضوعي المحيط بمقترف الفعل (أي الافتراس) بقدر ما نعني به كذلك، أو ربما أكثر من ذلك، واقعه الداخلي المعتم، أي نفسيته المقهورة، الحائرة بين اقتراف الفعل وعدمه، بين الفتاوى المشفقة المرثية، والقيود الأخلاقية الثقافية المكبلة. صحيح أن الدين يبيح الفعل تحت قاعدة "الضرورات تبيح المحظورات"، لكن الفعل المباح هنا ليس أي فعل: ليس تعاطي مسكر أو فاحشة...أو أي "حرام" آخر جرت العادة على انتهاكه مرارا، فأصبح انتهاكه من قبيل المألوف. الحرام/المباح هنا، رغم إباحته، قاس، مدمر، لا يحدث كل يوم، ولا كل شهر، بل ربما لا يحدث إلا مرة واحدة في العمر، ولبعض الناس فقط، وفي ظروف معينة فقط... لذلك فهو رغم إباحته فعل تنكره النفس وتنفر منه، لأنه يظل في قرارتها فعلا "حراما/إجراميا" يجلب العار، كيفما كانت الفتاوى والتبريرات. وربما هذا ما يفسر كثرة الموتان في الظروف التي نحن بصدد تحليلها، فلو كانت المسألة بسيطة، خاصة في حضور رخص دينية مبيحة لانتهاك المحرم، لكان عدد معين من الجثث البشرية، ممن عجل الموت بهم، كاف لإطعام الأعداد الأخرى، لكن ولأن المسألة أكبر حتى من أن تكون مستهجنة، فالغالبية العظمى كانت تأنف من اقترافه وهو ما يفسر مزيدا من الموتان.

لك أن تختار، أيها القارئ، بين أن تموت جوعا، أو أن تأكل جيفة آدمية؟ لا نهدف من وراء هذا العرض أن نزج بك في اختيار مزعج، أن نكتب تاريخك أنت، لكن فقط لنجعلك تدرك ما حدث فعلا إذاك.

لا بد من الاعتراف بأن الاختيار صعب ومرير: مرارة الموت البطيء من جهة، ومرارة أكل لحم بشري غير مستساغ من جهة ثانية.

الموت يعني الخلاص والاستسلام للراحة، لكن "جغرافية الجوع" تخبرنا بأن مراحله طويلة ومعقدة قد تصل عدة أسابيع أحيانا يمر خلالها الجائع بعدة مراحل بدء بدوار الرأس والصداع الخفيف ووصولا إلى حالة الغيبوبة والإغماء الطويل. فالموت خلاص، راحة، لكن الثمن باهظ أيضا. هذا هو الاختيار الأول، أما الاختيار الثاني فهو بكل بساطة، أو بكل تعقيد، أكل لحم بشري. قد يعني ذلك النجاة، لكن ماذا سيقول الناجي لاحقا؟ كيف سيفسر نجاته من الكارثة بعد ذلك؟ وحتى إذا لجأ إلى "التعتيم" فأسدل ستارا من الصمت أمام الغير، وكف عن الكلام في الموضوع، أو لجأ لأسلوب المراوغة والمداراة مع الغير... فكيف يواجه دخيلته؟ كيف سيخرس الصوت الداخلي الذي يطارده بالمساءلة والتعنيف؟ سيبقى دائما بداخله صارخ لا يسمعه أحد سواه، مكتوم ربما، لكن فيه من القوة ما يكفي لسحبه إلى حافة الجنون، عبر جحيم الأسئلة من عذابات الضمير ووخزاته، مكتوم على الآخرين، لكن لا يستطيع كتمه أو إخراسه على ذاته: إنه "الضمير".

أغرب ما في "الضمير" أنه معقد تعقد الواقع الذي أفرزه – الواقع الذاتي والموضوعي – بحيث يصبح أحيانا "متطرفا" زيادة عن اللزوم (راجع تعريف فرويد المنصوص عليه في هذا الفصل).

فالكاثرسيس (يساوي) الفتاوى، في الحالة التي نعالجها، لا يبدو مقنعا بما فيه الكفاية: قد يفترس المسلم (حتى السني الأصيل) الخنزير، أو الميتة، أو أي شيء آخر... في الظروف الاستثنائية كالمجاعات، لأن الضرورات تبيح المحظورات، والشارع قد ترك باب "المصالح المرسلة" مفتوحا على مصراعيه لمثل هذه الظروف الاستثنائية بالضبط، لكن رغم ذلك يقف الشرع هنا مشلولا، شللا شبه تام، عن أداء دوره "التهديئي" لعموم المسلمين، فضلا عن خاصتهم.

من يقرأ الفتوى بإمعان وبذهنية المؤرخ يخرج بانطباع نظري عن ظرفها الاجتماعي أكثر مما يلتفت لموضوع التحليل أو التحريم رغم أهميته. الفتوى هنا ليست ضربا من النظر الفقهي التأملي في الممكن والمحتمل (الآراتية؟) بل هي واقع تاريخي لا ينفصل عن مجتمعه. المنظور الفقهي التأملي لا يلتفت للفتوى إلا في نتيجتها العامة (التحليل/التحريم): الهدف معرفي - تعليمي، أما الفتوى من المنظور التاريخي فهي وسط حي يعيش ظروفها الاجتماعية والاقتصادية ويتحمل آثارها النفسية.

إن التنصيص على العلاقة: الضمير/الفتوى، هي التي تفسر حالة "الفصام" التي تعيشها "نفسانية الجماعة". إذ في الوقت الذي يقتنع فيه البعض – ويبدو أنهم كانوا قلة – بالفتوى كمتنفس أو أداة مرجعية لإراحة الضمير ومن ثم الاستراحة، يبدو الآخرون – الغالبية – غير قادرين تماما على هضم واستساغة الفتوى فضلا عن هضم واستساغة اللحم الآدمي الذي تجيز افتراسه.

تأسيسا على هذا التحليل، فإن أقل ما يجب الانتباه إليه عند مقابلة الضمير/الفتوى، هو تغلب ما أسميناه "رمز الضمير" على كاثرسيس الفتوى، أي أن وزنه الاجتماعي هو الراجح. ولنا أن نعتبره نوعا من التشبث الإرادي – بما أن الأمر يتعلق بإرادة حرة – بمرجعية "الثقافة" (بمنحاها الإنساني العام)، دون أن يعني ذلك استهداف المرجعية الدينية، إذ عندما وضعنا الضمير في مقابل الفتوى، لم يكن ليغيب عن ذهننا أننا بصدد الحديث عن مجتمع مسلم في النهاية، فالمقابلة هنا لا تعني التعارض والتضاد بقدر ما تختزل أسلوبا في المفاضلة، ينتهي إلى تغليب رمز من الرموز، أي الرمز الفاعل أكثر في الظاهرة الاجتماعية، دون اقتلاع باقي الرموز، أو محاولة تخطيها أو طمسها، لأننا نحلل عمليا "مركب رموز" رغم أن الظاهرة المستهدفة واحدة.

في ظل أجواء كهاته (ظرفيات المجاعات)، تتكوم فيها الجثث في الأزقة والطرقات، تعد علينا المصادر آلاف الضحايا...كيف يربأ المرء على نفسه، وهو ما زال فيه بعض الرمق، ألا يشد هذا الرمق بلقمة من هذه الجثث؟

هل للضمير كل هذه المقدرة على الترهيب من حياة مستقبلية مهينة في حال الإقدام – ولو خلسة – على فعل الافتراس ، بحيث يشرد بصاحبه إلى تصور بناء من الجحيم الذي لن يطمئن فيه بعد إلى الآخرين ، بل وإلى نفسه أيضا ؟ جحيم يضطره لارتداء ألف قناع لكي يخفي عن الآخرين وجه المفترس الحقيقي "آكل البشر" المتعطش للدماء ؟ أليست هذه هي أقماط الذبح المتينة التي تستحضر الموت في أبرع أشكاله ؟

لنرجع بالوقائع إلى صيغها الإنسانية التي نعرفها: هؤلاء بشر مثلنا ، يطلب منهم أن يأكلوا بشرا مثلنا أيضا: ألا يحتاج الأمر فعلا إلى شيء من التنكر والتقنع ؟ ألسنا نطلب من الإنسان ، بما هو إنسان ، أن يطرح سقط متاعه ، أعني إنسانيته ، جانبا ، لبعض الوقت. أن يتعرى من شرنقة الثقافة ، من كل ما خلفه التاريخ وأنجزته الحضارة ، ليعود بدائيا همجيا كما كان... بل أكثر مما كان ؟

أليس أسهل عليه أن ينقاد لهذا الضمير الكاسر ، فيستسلم للموت البطيء في عزة وشموخ ، وفي وضوح أيضا ، بدلا من ارتداء أقنعة وطرح أخرى وتبرير ما لا يبرر لعيون نهمة ، وقحة ، جبانة ، لا تتجرأ حتى على طرح السؤال لكنها تكتم تأنيبا لا يكاد يبين ، تخفي في زجاجها جلادا سيفه اللسان ؟

مستاء ، معذب ، مرتبك ، عاجز عن التخلص من أساه العميق... هذه حاله التي يصورها الضمير ، سحقا لها من حال ، ومرحى بمعاناة الرمق الأخير ، باشتهاء الموت إن كان مدعاة للتفاخر والتباهي. مع وجود كل هذه الجثث ، وكل هذه الفتاوى المجيزة للافتراس ، يبدو الضمير للفكر سخيفا أخرق. يستشيط الفكر غيظا وهو يتأمل منجزات الضمير وصروحه وهي تتعالى على أنقاض التفكّر والعقل: الضمير ضد العقل ، إرادة الموت ضد داعي الحياة ، الإنسان الذي يعاف من افتراس الإنسان ، رغم كل الشروط العقلية المجيزة للسلوك ، يبدو كما لو أنه يعاف من الحياة نفسها. رغبة جموح في امتهان الذات ، واحتقارها ، وتهديمها. والضمير ، هذا المدمر البارع ، ليس هناك من يضاهيه مهارة ، عندما يتعلق الأمر بتهديم الذات.

هكذا تقضي المجاعة على بعض البشر ، ويقضي الضمير على معظمهم... وتتحمل المسغبة - على ذمة التاريخ التقليدي - وحدها المسؤولية ، بينما ينام رمز "الضمير" في سكينة وهدوء ، يصنع تاريخا غير مسطور ، لا تدركه نصوص الإخباري ، ولا تناله أقلام مؤرخ مزعوم.

خاتمة

إلى أين يمكن أن تنتهي بنا مغامرة مثل التي أقدمنا عليها لتحليل موضوع افتراس اللحوم الآدمية ؟

لربما أفضى بنا التحليل في النهاية - وليبق حديث الليل سرا بيننا - إلى أن سلوك الافتراس أبعد من أن يختزل في مجرد نزوة عشوائية عابرة ، أو في رد فعل اضطراري أعيته الحاجة أو أعجزه طلب الثأر... لأنه كل هذه الرموز معا. ولأنه كل هذه الرموز بالضبط ، فتحليله لا ينبغي أن يركن إلى صرامة علمية مزعومة متصلبة ، بل ينبغي بالأحرى أن يتمتع بقدر عال من المرونة لإبراز "الرمز" الفاعل عند معالجة كل حالة على حدة ، وإقصائه إذا دعت الضرورة في حالة - حالات - مغايرة لا تستدعيه وظيفيا.

- ماذا إذن ؟

- ما كان علينا إذن أن ننساق وراء سببية مزعومة تركن إلى تفاسير مبهمة ، تختفي رغم تعبيراتها المغرية الجذابة ، خلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي ، خلف البنى التحتية المحركة ، خلف الدافعية "العميقة" البعيدة التي ينبغي على المؤرخ الكشف عنها دائما حتى تتكشف "عبقريته" و"نبوغه". سببية كانت تكبل الفكر عن القيام بكل ممارسة حرة نبيلة ، تجعلنا نَنفُر من التاريخ ونُنفّر منه. لا ننفي قطعا هذه الأسباب المزعومة ، لكننا ندعو إلى تحجيمها أولا ، وإلى أجرأتها وتعيينها بدقة (وهذا هو المهم) ثانيا.

- وماذا أيضا ؟

- كان لابد لنا ، بعد ، من اقتراح بديل عن "بُناهم التحتية" المزعومة ، اقتراح يتجاوزها من خلال منهج عملي التحليل ، تجريبي الدلالة والمغزى حتى تتكشف لنا حسناته (المنهج) وعيوبه ، فكان اقتراحنا متمما لما بدأناه في مشروع آخر (غوردو ، التمدين والسلطة ، الباب الثالث) بهدف تثوير مناهج الدراسات التاريخية ، اعتمادا على "رموز السلطة".

- ثم ماذا ؟

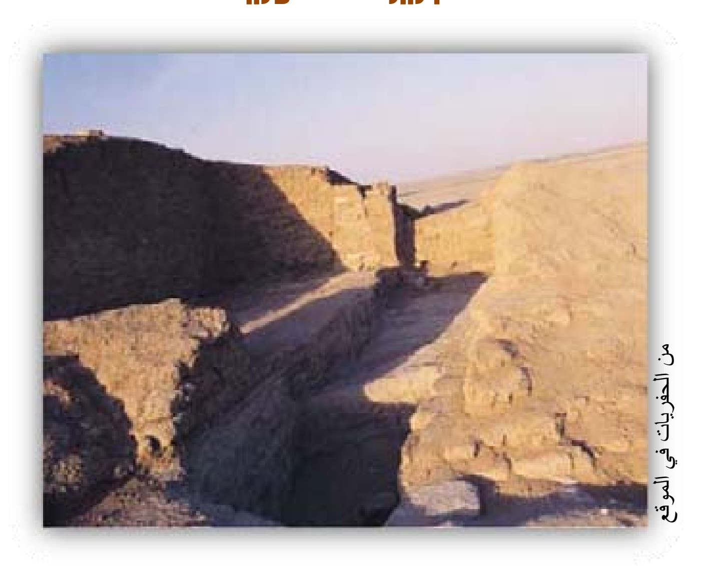
- تجريبية المنهج Empirisme ، أي منهج ، تحتاج إلى جسم (موضوع) ينبغي تشريحه ، فكان "افتراس اللحوم الآدمية" ذاك الجسم ، وكانت الصعوبة بالتالي مركبة أو مزدوجة: منهج جديد يقتحم فلسفة التاريخ ومناهجه ، يتم تطبيقه على موضوع غريب يشذ عن سنن الخلق والتاريخ.

هذا ما استهوى هذه الدراسة بالضبط، تشريح "الافتراس الآدمي" حتى الأحشاء رغبة في استجلاء الأسباب الحية المحفزة على السلوك، لا الانشغال بأشكال الهوى والسدور، لهذا فهذه دراسة خاصة نتمنى لها قارئا خاصا أيضا.

د.عبد العزيز غوردو في سطور:

باحث وكاتب مغربي من مواليد بوجدة عام ١٩٦٤. أستاذ باحث ، وإطار في الإدارة التربوية / أكاديمية الجهة الشرقية / وجدة / المغرب. دكتوراه في الآداب (تخصص: تاريخ الإسلام والحضارة). مهتم ، بالإضافة لمجال التخصص "التاريخ" بالأنثروبولوجيا ، والفكر ، والدراسات القانونية والسياسية ، والنص الإبداعي: قصة ، ورواية ، وشعرا. صدر له ستة كتب ، فضلا عن عشرات المقالات والنصوص الإبداعية. عضو في: الهيئة الاستشارية لدورية كان التاريخية. مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. المكتب التنفيذي لمركز الأبحاث والدراسات في المجتمع المدني والمناهج التربوية. الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب ، ورئيس لجنة النشر بها.

حمام مثير للإعجاب من العصر الأيوبي وكنيسة سريانية في تل تنينير في الجزيرة السورية



من الحفريات في الموقع



خليل اقطيني

كاتب وصحفي بمؤسسة الوحدة للصحافة والنشر

مدير مكتب صحيفة تشرين بالحسكة

الجمهورية العربية السورية

aya2006@scs-net.org

▪ **الاستشهاد المرجعي بالتقرير:**

خليل اقطيني ، حمام مثير للإعجاب من العصر الأيوبي.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس ؛ سبتمبر ٢٠٠٩. ص ٧٧ - ٧٩.(www.historicalkan.co.nr)

إنها مجرد قرية صغيرة ، تضم عدداً من البيوت الطينية المتناثرة هنا وهناك ، بناها الفلاحون حول تل ترابي كبير ذي منحدر جنوبي منبسط ، يقع على بعد ميل جنوب شرق مدينة الحسكة على الضفة الشرقية لنهر الخابور في الجزيرة السورية . (٧٠٠كم شمال شرق العاصمة دمشق).

هكذا تبدو قرية تنينير لناظرها للوهلة الأولى ، لكن ما إن نقترب من ذلك التل ونرى الحفريات التي أجريت فيه ، حتى نكتشف أن تنينير ليست قرية عادية ، بل إنها قرية ذات تاريخ عريق ، فقد أشارت الدلائل الأثرية إلى أنها كانت مأهولة منذ سنة ٢٥٠٠ ق.م ، أي إن هذا الموقع قديم كقدم دمشق وحلب وحماة ، نشأ وتطور واستمر حتى جاء الاجتياح المغولي على يد الملك تيمورلنك ، الذي دمّر قرية تنينير قبل ٦٠٠ عام ، واضعاً حداً لتاريخها الطويل وحضارتها العريقة .

هذه الحضارة التي تم اكتشافها من قبل بعثة أثرية أميركية ، تعمل برعاية وإشراف كلية سانت لويس الحكومية في مدينة سانت لويس التابعة لولاية ميسوري ، وبرئاسة د . مايكل فوللر.

أثر تاريخي فريد من نوعه

ومن خلال أعمال البحث والتنقيب التي قامت بها البعثة في قرية تنينير ، تم التوصل إلى العديد من المكتشفات الهامة ، التي أماطت اللثام عن جوانب عديدة من تاريخ منطقة الجزيرة بشكل خاص وتاريخ سورية بشكل عام ، وخلال مواسم التنقيب تمكنت البعثة من اكتشاف أثر تاريخي فريد من نوعه ، هو عبارة عن حمام مثير للإعجاب من حيث التصميم والتجهيز .

> "المكتشفات أكدت أنها مأهولة من سنة ٢٥٠٠ ق.م"

يقع هذا الحمام في الجزء الجنوبي من تل تنينير ، هذا الجزء الذي كان يضم أيضاً الحي الحكومي والتجاري من البلدة. وقد أكدت أعمال التنقيب التي أجريت أن أبنية هذا الجزء مشيدة من حجارة كبيرة وجدرانها مطلية بالجص ، غير أن أصحاب الحمام آثروا دفع المزيد من التكاليف ، لقاء بناء جدرانه من الحجارة السوداء التي تسمى حجر البازلت ، والتي تم جلبها من سفوح جبل كوكب البركاني الواقع إلى الشرق من مدينة الحسكة .

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو لماذا استعمل سكان بلدة تنينير حجر البازلت عوضاً عن الأحجار الكلسية المتوافرة لديهم ؟! الجواب: لأن البازلت أحجار بركانية تمتص الحرارة ، وتبقى حارة لفترة أطول من الأحجار الكلسية ، ولهذا فان اختيارهم للبازلت في بناء الحمام ، هو اختيار موفق ويدل على وجود تقدم كبير في مجال الهندسة العمرانية في هذه المنطقة منذ أقدم العصور .

وبعد إزالة الأتربة والأوساخ من مجمع الحمام ، تبين أنه كان يحتوي على حجرة للثياب ، ومدخل له حاجز من أجل منع الأطفال الفضوليين من اختلاس النظر على الزبائن ، وداخل الحمام كانت هناك غرفتان مربعتان دافئتان ، وفسحة كبيرة تتسع لثلاثين أو أربعين شخصاً على الأقل ، والى جانب ذلك توجد أربعة غرف منفصلة جنوبي الغرفتين الدافئتين. تحتوي تلك الغرف على أحواض ماء مرتبة بشكل متناسق ، وقد بنيت أرضية النصف الغربي من الحمام ، بطريقة ممرات الهواء الساخن ، من أجل تدفئتها وهذا ما يعرف بتقنية الأرض الدافئة

التي تسمى التدفئة المركزية ، التي اقتبسها المهندسون العرب من الحمامات الرومانية .

أما ماء الحمام فقد كان يجلب من بئر كبير قطر فوهته ١.٦ م ، وقد تم إزالة الأتربة منه على عمق ثمانية أمتار ولم يتم الوصول إلى القعر بعد. إن حجم الحمام وامتداده المتناسق ومصدره الوفير من الماء ، يظهر بوضوح انه لم يكن حماماً لرجل فقير ، فحمام تل تنينير كان نداً لأي حمام نموذجي في دمشق أو حلب أو القاهرة خلال العصر الأيوبي .

آنية بيزنطية ورومانية وإسلامية

ولم تكن المكتشفات في تل تنينير مقتصرة على الحمام سالف الذكر ، رغم أنه من أهم المكتشفات ، وإذا تم التوصل إلى مكتشفات أخرى على قدر كبير من الأهمية تعود لعصور وحضارات مختلفة فقد دلت الحفريات على وجود أعداد كبيرة من الآنية البيزنطية والإسلامية ، وعلى وجود جدران منازل ، كما تم اكتشاف مصباح بقي سليماً تماماً يشير إلى انه كان يعمل على زيت الزيتون ، ويعود تاريخه إلى سنة ٥٠٠ م ، أي قبل عصر النبي محمد/ص/ بقرن تقريباً .

> " الكشف عن جرار تستخدم لخزن ومزج الخمر تعود لحاكم تنينير الذي كان يتكلم اللغة الإغريقية "

وفي مكان عميق من الهضبة تم العثور على عدد من القطع المكسرة لآنية فخارية ، يعود تاريخها إلى ما قبل الشكل المعروف للآنية البيزنطية والرومانية ، كانت هذه الجرار تستخدم لخزن ومزج الخمر ، وتعود لحاكم تنينير الذي كان يتكلم اللغة الإغريقية ، وعاش في هذا الموقع منذ ٢٢٠٠ سنة مضت ، وهذا التاريخ هو العصر الذي تلا مباشرة غزوات الملك الإغريقي المشهور (الاسكندر الكبير) الذي ربما ترك في هذا الموقع احد حكامه الذين يتكلمون اللغة الإغريقية. وعندما قامت البعثة بالحفر تحت مستوى قبو الخمر اليوناني ، اكتشفت جدراناً تنتمي إلى حضارات قديمة جداً ، وأحد الاكتشافات المثيرة ، كان نقوشاً كتابية على حافة وعاء مكسور ، مكتوبة باللغة الآرامية التي تعتبر مثالاً قديماً جداً عن هذا النموذج في الكتابة ، ولاسيما أن اللغة الآرامية هي لغة سلفية للغة السريانية ، ويتراوح عمر هذه الكتابة بين 3900-3200 عام . كما تم اكتشاف شيء آخر من مخلفات هذا العصر القديم جداً ، هو قطعة حجرية منحوتة بحجم الإصبع في مشهد يمثل رجلاً يصطاد بالقوس والنشاب ثوراً مجنحاً ، بالإضافة إلى ختم أسطواني كان شائعاً جداً خلال عصور الملوك الآشوريين مثل آشور ناصر بال شلمنصر وتغلات بلاصر .


جرار فخارية

جرة الحب

ومن أهم قطع الآنية التي تم العثور عليها في طبقات العصر الإسلامي ما يسمى جرة الحب ، التي يبلغ ارتفاعها بقدر قامة رجل ، ومزخرفة بأشكال أسود ووجوه نساء وأجسام بشرية متناسقة ومنحوتة بدقة ، وقد جاءت تسمية حب من مخطوطة عربية عثر عليها مكتوبة على جرة مشابهه في العراق تقول (أنا حب وبداخلي ماء يشفي) ويمكن التعرف على تاريخ الجدران الأثرية والأواني التي وجدت في قمة تل تنينير بدقة تامة بواسطة حفنة من العملة البرونزية عثر عليها في الموقع ، وكل هذه القطع من فئة واحدة هي فئة خمس ليرات ، ولذلك لم يكن الناس يهدرون كثيراً من الوقت في البحث عن هذه العملات إذا ما سقطت من جيوبهم مصادفه ، تنتمي هذه العملة إلى الأمير قطب الدين محمد احد الأمراء الزنكيين ، وكانت عاصمة مدينة سنجار القديمة ، واللافت للنظر أن هذا الأمير وضع صورته على هذه العملة ، وهذا عمل مخالف للمعتقدات والتقاليد لإسلامية ، وقد حكم الأمير قطب الدين من سنة ٥٩٤ وحتى ٦١٦ هجرية ، أي من 1198وحتى ١٢١٦ ميلادية كما تم العثور على عملة نحاسية أخرى سكّت في سنجار تعود للملك الأشرف موسى ((٦١٠-٦٢٠)) م .

> " المكتشفات الاثرية تؤكد أهمية تل تنينير كموقع استراتيجي على نهر الخابور "

خان وحوانيت وجامع

ومن بين مجموعه الأبنية المكتشفة في منطقتي التنقيب الرابعة والخامسة ، خان وستة حوانيت ((فرن ودكان حداد ومدبغة)) وحمام صغير ، وعلى طول الاتجاه الشمالي الشرقي للخان تم اكتشاف جامع ، وكان جدار الخان الخارجي بمثابة جدار القبلة في هذا الجامع ، وقد حفرت أربع كوات صغيرة في هذا الجدار تحمل ألواحاً مطلية ومزخرفة بنقوش نافرة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي ، بالإضافة لذلك كانت هناك كوة مركزية كبيرة تستخدم كمحراب ، كما عثر على كوب جميل مزين ومطلي بالمينا وبأحرف عربية مذهبة ، وهذا دليل على المستوى الرفيع للفن السوري إبان القرن الثالث عشر ، ويشير أسلوب صناعة هذا الكوب وطريقة نقش الحروف عليه ، إلى انه صنع إما في الرقة أو حلب ، أما الأجزاء المتبقية من هذا الكوب منقولة ((المجد والإجلال إلى سيدنا السلطان وليعم السلام على سلطنته ، الملك العارف العادل والمقاتل من أجل الإيمان)) وعثرت البعثة على نماذج أخرى من الفن السوري خلال العصر الأيوبي داخل جامع صغير ، كما شاهدت ألواحاً جصية مستديرة ومستطيلة الشكل مثبتة في أعلى الجدران الشمالية والجنوبية لهذا الجامع ، وتحمل نقوشاً بالخط الكوفي هي عبارة ((رب العالمين)).

كنيسة سريانية

ومن أهم المكتشفات المثيرة في منطقة التنقيب الثالثة ، جدران كنيسة تخص الطائفة السريانية الأرثوذكسية وقد تم العثور حتى الآن على باب الكنيسة والهيكل وغرفة الكاهن والمذبح ، إن رسم



خريطة دقيقة لهذه الكنيسة قاد إلى عدة اكتشافات هامة ، منها معرفة أن البقع الموجودة على أرضية الكنيسة هي من المصابيح التي تستخدم زيت الزيتون في الإضاءة. وتبين أن هذه الكنيسة كانت تضاء بالإضافة للمصابيح بواسطة ثلاثة شمعدانات يحمل كل منها ستة أو ثمانية مصابيح زجاجية عثر على كسر منها في الأرضية .

ومن المحتمل أن الجزء الغربي من هذه الكنيسة كان مخصصاً للنساء ، والجزء الشرقي للرجال وعثر في أرضية الكنيسة على قطعة مجصصة مزخرفة بإشارة صليب ، كانت قطعة أساسية من المذبح ، الذي تكسر بسبب انهيار السقف خلال العصر الأيوبي .

كما عثر على قطع صغيرة لباب المكان الذي يحفظ فيه القربان المقدس ، وعليه حرفان من اللغة السريانية ، وبقايا ثلاث طبقات أرضية متباينة وأربعة مذابح واضحة موضوعه فوق بعضها بعضاً بشكل جميل يؤكد أن هذه الكنيسة استمرت لفترة تزيد على ٦٠٠ عام بشكل متواصل .

موقع هام على الخابور

لقد ذكر بعض الكتاب العرب في العصرين الأيوبي والعباسي أن تنينير كانت بلدة هامة على الخابور ، في حين ذكر أحد الجغرافيين في كتاباته "تنينير الكبرى وتنينير الصغرى" ، وقد اكتشفت البعثة العديد من التماثيل الصغيرة (عنزة ونعجة) التي يبلغ عمرها ٤٥٠٠ عام ضمن طبقات من الرماد تشكلت نتيجة لوجود مئات الأفران أو التنانير التي كانت تعمل في تنينير منذ ذلك الوقت ، ومن هنا اكتسبت القرية أو البلدة اسمها ، ويعتقد أن كلمة تنينير كانت أصلاً،تشير إلى المنطقة الغنية بإنتاج الحبوب على طول وادي الخابور ، وربما كان تل تنينير المركز الرئيسي المأهول بين مواقع التحميص والتخزين ، إذ يصف احد ألواح مكتبة ماري يرجع تاريخه إلى عام ٦٩٠٠ ق.م موقعاً على نهر الخابور يدعى تابيت ، ويحدد أحد الجغرافيين الأكاديميين موقع تابيت في موقع تنينير ، ويظن أن كلمة تابيت تعني شيئاً قريباً من كلمة فرن باللغة الأكادية ، هذه الكلمة التي اقتربت أخيراً من إحدى الكلمات العربية المألوفة في الأردن وفلسطين والتي تعني فرن وهي كلمة تابون ، تماماً مثل تنور وتنانير الشائعة في منطقة الجزيرة السورية .

أما المؤرخون الرومان والبيزنطيون فقد ذكروا في كتاباتهم بلدة هامة على نهر الخابور تسمى تنورين ، ومن وصفها يتضح أنها بلدة تنينير الحالية ، ويعتقد أن السكان العرب قد غيروا اسم الموقع إلى تنينير ليسهل عليهم لفظه وتعني كلمة تنينير أو تنانير وأفران لصنع الخبز.



بلدة هامة على الخابور

حدث في رمضان

دخول الفتح الإسلامي مصر:

في الأول من رمضان عام ٢٠هـ الموافق ١٣ أغسطس ٦٤١م، وفي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل الفتح الإسلامي مصر على يد القائد البطل عمرو بن العاص رضي الله عنه وأصبحت مصر بلدًا إسلامية.

استرداد مدينة إنطاكية:

في٥ من رمضان ٦٦٦هـ الموافق ١٩ من مايو ١٢٦٨م: نجح المسلمون بقيادة بيبرس في استرداد مدينة إنطاكية من يد الصليبيين بعد أن ظلت أسيرة في أيديهم ١٧٠ عامًا، وكان لوقوعها صدى كبير، فقد كانت ثاني إمارة بعد الرها يؤسسها الصليبيون في الشرق سنة ٤٩١هـ الموافق ١٠٩٧م.

وفاة سيف الله المسلول "خالد بن الوليد":

في ١٨ من رمضان ٢١هـ الموافق ٢٠ من أغسطس ٦٤٢م: توفي سيف الله المسلول "خالد بن الوليد" صاحب العديد من الفتوحات والانتصارات على أعتى إمبراطوريتين هما "الفرس" و"الروم"، وقد قضى حياته كلها بين كرٍّ وفرٍّ وجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق ونصرة الدين.

ولادة "أحمد بن طولون" مؤسس الدولة الطولونية:

في ٢٣ من رمضان ٢٢٠هـ الموافق ٢٠ من سبتمبر ٨٣٥م: وُلد "أحمد بن طولون" مؤسس الدولة الطولونية، وُلد ببغداد، وتلقى تعليمه العسكري والديني بها، وبعدما شبَّ لفت الأنظار إليه بعلمه وشجاعته، ثم ولي مصر سنة ٢٥٤هـ الموافق ٨٦٨م، ونجح في أن يُقيم دولة قوية شملت مصر والشام والحجاز، ولا يزال مسجده الكبير في القاهرة شاهدًا على ما بلغته دولته من رقي وتقدم.



المؤرخ المغربي محمد المنوني ومنهجه في الكتابة التاريخية



بقلم

محمد بكور

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الحديث والمعاصر

طنجة – المملكة المغربية

ayazahra@yahoo.fr



نتحدث في هذا المقال عن موضوع جدير بالاهتمام، بل يفرض الاهتمام به فرضا، ذلك أن لكل أمة رجالات من نهضتها ويقظتها، تتنوع اهتماماتهم وتخصصاتهم، لكن الجامع بينهم هو التفاني في تقدير الذات والفناء في خدمتها وتحصينها.

ولعل الفقيه المرحوم المؤرخ المغربي محمد بن عبد الهادي المنوني أحد هؤلاء الرجال بل من أبرزهم ، فهو العالم المبرز والمؤرخ المقتدر ، رجل عشق الكتابة والتدوين حتى آخر يوم من حياته.

ترك الباحث حصيلة ضخمة من الأعمال خالية من الحشد والإطناب ، أعمال لا يجرؤ أي مشتغل في حقل تاريخ المغرب أن ينكر استفادته منها والاغتراف من منابعها. ولعل من أبرزها كتاب "المصادر العربية" ، تلك البيبليوغرافيا الرائعة التي قربت المسافة لكل الباحثين. فلم يكن الباحث المنوني يؤرخ للحدث السياسي فقط بل كان مهموما بالتأريخ للحضارة والفكر والمجتمع بالمغرب ، فكانت كتبه عن" تاريخ الوراقة" ، و"مظاهر يقظة المغرب" ، و"قبس من عطاء المخطوط المغربي" ، و"حضارة الموحدين" ، و"ورقات عن حضارة المرينيين" ، أعمالاً فريدة في التأريخ لتطور الفكر والمعرفة والحضارة بالمغرب. ومن هنا أردنا في هذا المقال الوقوف مع هذه الشخصية الفذة تقديرا للجهود واعترافا بالجميل ، واكتشافا للمنهج التاريخي الذي اعتمده في بحثه وتنقيبه. ولا نملك إلا أن ندعو لهذه الروح الطيبة: "طبت وطاب مقامك وبوأك الله مقام الصديقين".

تعليمه وشيوخه

من حسن حظ محبي العلامة الفقيه محمد المنوني والباحثين أن الفقيد كتب سيرته الذاتية بيده وقلمه[1]. ولذلك كل الذين كتبوا عن حياة المنوني اعتمدوا على هذه النسخة التي تركها.

اسمه: محمد عبد الهادي بن محمد المنوني ، ولد بمكناس مقر عائلته مدة تزيد على ستة قرون ، وكانت ولادته فجر السبت ٢٤ شوال عام ١٣٣٣هـ/٤ شتنبر ١٩١٥م.

التحق في ٥ أكتوبر ١٩١٩ بالكتاب في مسجد حيه. وبعد أن أتم حفظ القرآن الكريم عام ١٩٢٨ على يد شيخه محمد بن الطيب القباب...أخذه والده بحفظ المتون العلمية "كالألفية" و"مختصر الخليل". ثم أخذ يحضر الدروس في أوقات الفراغ مرتين في الأسبوع ، في الفقه واللغة والتفسير والحديث والتاريخ.

في عام ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م. التحق بفاس ليتابع دراسته بجامع القرويين بالسنة الخامسة من الثانوي...حصل على "شهادة العالمية" من جامعة القرويين ٢٨ يونيو ١٩٤٣م. فعين مدرسا في القسم الابتدائي بالمعهد المكناسي في نهاية نفس السنة ، ثم مدرسا بالثانوي.

وفي عام ١٩٥٩ عين مفتشا لمادة التاريخ في ثانويات التعليم الأصيل ، قبل أن يلتحق بالعمل في الخزانة العامة ١٩٦١ ، ثم الخزانة الحسنية ١٩٦٢ ، ثم رئيسا لقسم المخطوطات بوزارة الثقافة والتعليم الأصيل سنة ١٩٧٠م. وفي عام ١٩٧٤م عاد إلى الخزانة الحسنية. بعد ذلك عين أستاذا للتعليم العالي بكلية الآداب بالرباط (٨٨-١٩٨٩).[٢]

ويذكر المنوني في سيرته الذاتية التي كتبها بقلمه شيوخ العلم الذين درس عليهم في مختلف مراحل تعليمه. ويحصي منهم ٣٧ شيخا درس عليهم فنون المعرفة المختلفة من فقه وتفسير وحديث ولغة وأدب وتاريخ وجغرافيا وفلك. أولهم شيخ الجماعة العلامة المشارك محمد بن الحسين العرائشي. وآخرهم الشيخ محمد بن العربي العلوي. ومنهم عبد الهادي المنوني أب المترجم له.[٣]

أما عن إجازاته فيحصي الفقيه المنوني ١٧ إجازة حصل عليها من علماء مبرزين ، من المغرب وخارجه: كالشيخ عبد الحي الكتاني- عبد الرحمن بن زيدان- الشيخ محمد المدني بن غازي ، والشيخ محمد راغب الطباخ من حلب... وغيرهم.[٤]

أبحاثه ومنهجه التاريخي

نشرت لائحة إنجازات المنوني من مؤلفات وأبحاث وأعمال برسم ندوات في كتابه " قبس من عطاء المخطوط المغربي" ، وفي ملحق بالجزء الثاني من كتابه " المصادر العربية لتاريخ المغرب" ، وعنها أخذ كل من حاول تجميع ما كتبه رحمه الله ، ليتم إحصاء ١٨٤ عمل بين كتاب ومقال ومساهمة في ندوة.[٥]

وقد شملت مساهمات الفقيه مجالات متعددة منها: مجال الشرع الإسلامي ، التعليم ، التاريخ ، فهرسة المخطوطات ، تاريخ الوراقة ، السيرة النبوية ، تراجم الأعلام ، اللغة والآداب ، الفنون ، العمارة ، التعريف بالوثائق ، أعمال برسم ندوات ، مقالات مختلفة في العديد من المجلات: المناهل – دعوة الحق – دار النيابة- البحث العلمي- مجلة الآداب- مجلة دار الحديث- مجلة المغرب.

أما أهم كتبه فهي: مظاهر يقظة المغرب الحديث ، قبس من عطاء المخطوط المغربي في ثلاث أجزاء ، حضارة الموحدين ، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، ورقات عن حضارة المرينيين ، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث في ثلاث أجزاء ، تاريخ الوراقة المغربية: صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة.



إن أعمال المنوني أكبر من أن تحصى ، فهو ينطبق عليه ما جاء في الأثر أن "خيركم من طال عمره وحسن عمله" فقد فهرس مخطوطات العديد من المكتبات: الخزانة الملكية ، الخزانة الحسنية ، الخزانة الناصرية ، الخزانة الحمزاوية. كما حقق وشارك في تحقيق العديد من المخطوطات.

- أنجز بيبليوغرافيا تاريخية شاملة أملاها على طلاب الجامعة ثم طبعت. و سهر على تكوين طلاب في رحاب الجامعات بما ألقاه من عروض ومحاضرات ، وما استقبل في داره وغيرها من باحثين وطلاب ، وأشرف على توجيههم ودراساتهم ومؤلفاتهم. كما شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات والتداريب.[٦]

أما المسار الذي اختاره لنفسه في البحث التاريخي ، فقد اتجه المنوني إلى البحث والتنقيب في التراث المغربي فاستحق أن يكون الخبير والمتخصص والمبرز في شؤون التراث. فقد قصد خزائن الكتب الخاصة والعامة يتطلع بلهف وشوق إلى ما بقي من تراث الأجداد ، وإنه لعمل مضن وشاق بذله الأستاذ في تسجيل التراث المغربي بمختلف علومه وفنونه ، وقد أثمر جهده الطيب عن طائفة قيمة من الفهارس والبيبليوغرافيا أهمها:

- فهرس المخطوطات العربية في الخزانة العامة بالرباط.
- منتخبات من نوادر المخطوطات بالخزانة الحسنية بالرباط.
- فهارس مخطوطات الخزانة الحسنية.
- دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتامكورت.
- المصادر العربية لتاريخ المغرب... وغيرها.[٧]

كانت خبرة المنوني كبيرة في مجال التراث والمخطوطات ، فقد برع في التوسع في الوصف الدقيق للمخطوطات من الغلاف إلى الغلاف ، فهو يصف تجليد الكتاب ، ونوع الورق ، وأنواع المداد ، ثم الخطوط المختلفة ، ويعرّف بالخطاطين ، كما يشير إلى ما نسخوه من كتب ، وفي كل صفحة يصف العناوين والزخارف والطرر والهوامش والملحقات ، زيادة على ما في المخطوطات من شماعات وقراءات وتمليكات وتحبيسات وأختام وتوقيعات...إلخ.[٨]

لقد كان المنوني حجة وعمدة للباحثين في الكتب والمكتبات والفهارس ، فهو الخبير في معرفة أماكن المخطوطات وعدد نسخها وحجمها ومكانها. ولذا فإن خبرته لن تعوض أبدا. فمن ذا يستطيع الآن أن يقوم بتقدير عمر مخطوط غفل من التاريخ ، ورده إلى عصره اعتمادا على معرفته بخطه أو ورقه أو حبره أو تجليده ؟ ؟

وما كان له أن يصل إلى هذا المستوى إلا بعدما عانى و قاسى ، فقد صاحب غبار المخطوطات وحشراتها ورطوبتها ، انتقل من الداخلة إلى العيون ووزان وتمكروت والزاوية الحمزاوية وزاوية تنغملت ، يفتش ويفهرس ويرتب. فقد اعتكف بالزاوية الحمزاوية ووصف محتوياتها بكل دقة ، وأقام شهرا في خزانة الزاوية الناصرية يحصي كتبها ويفهرسها ، ليستوعب الفهرس قرابة ٤٢٠٠ بين مخطوطة مستقلة ومؤلفات أخرى ضمن مجاميع.[٩]

وفي إطار بحثه المصدري اعتنى عناية خاصة بالوراقة ، فأخرج لعشاق المعرفة والباحثين في الحضارة كتابه الفريد "تاريخ الوراقة المغربية: صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة". ولعل البحث في هذا الحقل صعب ومعقد لندرة المعطيات وقلتها فهي لا تعدو إشارات يأتي أغلبها عرضا في المؤلفات والمخطوطات والمقيدات ، ولذلك لم يعرف لا قديما ولا حديثا تأليف أو بحث يستوعب تاريخ الوراقة المغربية ، فقد كان هدف المنوني هو إبراز فن حضاري وطني ظل مغفلا.[١٠]

ما الجديد الذي جاء به المنوني إذن من حيث البحث التاريخي ؟ من الملاحظ أن الفقيه المنوني لم يهتم بالتاريخ للفعل السياسي ، إن مشروعه يتمثل في إبراز الهوية الحضارية والثقافية المغربية وتأصيل الدولة المغربية ومؤسساتها.

لقد كان المنوني صاحب رسالة ، فقد دفعته غيرته على وطنه إلى رد كل المزاعم التي أراد المستعمر أن يرسخها في الأذهان ، ليثبت بالحجة الدامغة ، بالوثيقة ، بالبحث الرصين أن المغرب أمة وحضارة وتاريخ ودولة.[١١]

إن المنوني ينتمي لمدرسة ابن زيدان ، وإذا كان الأخير اهتم بالتاريخ للدفاع عن المخزن والدولة المغربية ، فإن رسالة المنوني كانت هي إثبات وجود الأمة المغربية بحضارتها وثقافتها ومؤسساتها. إن التاريخ عند المنوني ليس تاريخا للبطل ولا تاريخا للسلطة ، بل إنه تاريخ البنيات الثقافية والنظم والخطط الحضارية ، وتاريخ مؤسسات الدولة والمجتمع.[١٢]

ويمكن القول ؛ إن مشروع المنوني العلمي مشروعا متمحورا حول تاريخ الفكر والحضارة ، ولذا فقد اهتم بمواضيع طريفة وجديدة: كالحفلات والأعياد ، وأشكال التصوف واتجاهاته ، والعادات ، والموسيقى ، والرياضة ، وأصول الديانات ، والرايات وصناعة الأسلحة بالمغرب. وهي مواضيع تذكر بتوجه مدرسة الحوليات ، كما أن هذه المواضيع لا يرد ذكرها غالبا إلا عرضا في صيغة إشارة شاردة أو استطراد عابر فيصيرها بفضل براعته وخبرته الواسعة موضوعات متكاملة ومنسجمة في شكلها ومبناها.[١٣]

ومع كل ما أنتجه المنوني فإن ما ميزه عن كثير من المؤرخين والباحثين هو تقديم المساعدة المستمرة والاحتضان الدائم للباحثين. وهي مزية قليلا ما تجدها إلا في من تحلى بخصال الكمال والإيثار.

فلا تكاد تجد صاحب رسالة جامعية أو بحث علمي له علاقة بالتراث المغربي إلا واستفاد من الخدمات العلمية للمرحوم المنوني ، حتى قال المؤرخ المغربي عبد الله العروي أن اسم المنوني يجب أن يسجل في صدر كل مؤلف بأي لغة كان ، حول مغرب القرن ١٩م. لم يكن يأنف عن استقبال الباحثين في داره أو في أي مكان كان. ولم يكن يبخل عليهم بأي توجيه أو نصح ، بل كان يمكّن الباحثين من مخطوطات مكتبته الخاصة في كل وقت وحين.

ولعل تواضعه وتفانيه في خدمة البحث العلمي وتعاونه مع كل طالب علم هي التي منحته هذه المحبة والتقدير العظيمين في قلوب كل الباحثين المغاربة إلا من كان في قلبه مرض.

توفي المنوني ٢٨ غشت ١٩٩٩ بمكناس وبها دفن. مات المنوني. مات رجل من الصالحين كما عبر المؤرخ أحمد التوفيق. ويذكر د.التوفيق أيضا: "تذاكرنا ذات يوم حول الصالحين الذين عَرفوا ، من قبيل الكرامات وبإذن الله ، متى يوفَّى أجلهم ، فقال "أما أنا فقد رأيت رؤيا بعد وفاة الفقيه الرحالي الفاروقي أنني سأموت بعده بأربع عشرة سنة". وكان الرحالي الفاروقي توفي ١٩٨٥م ، وهكذا صدقت رؤياه ، وهذه من آيات الصالحين".[١٤]



الهوامش:

(١) توجد نسخة مرقونة عند الدكتور عمر أفا بها إضافات مفيدة اعتمدت عليها مجلة دعوة الحق لنشر ترجمة للمنوني في عددها ٣٧١ ، السنة ٤٤ ، يناير/فبراير ٢٠٠٣. ص ٢٤ . كما نشر كل من محمد آل رشيد في كتابه:" العلامة محمد بن عبد الهادي المنوني" ، منشورات دار البشائر ودار الامام مالك ، ط ١ ، ٢٠٠٥ ص ٣٣. و عبد العزيز تيلاني في كتابه: الفقيه المنوني ، شهادات وفاء ، منشورات جذور ، ط ١ ، ٢٠٠٦ ، ص ١٠ ، ترجمة للمنوني اعتمادا على النسخة التي كتبها المؤلف بيده .

(٢) المراجع المذكورة.

(٣) " "

(٤) " "

(٥) دعوة الحق ، عدد٣٧١ ، السنة٤٤ ، يناير فبراير٢٠٠٣ ، ص ٤١ . عبد العزيز تيلاني ، مرجع سابق ، ص ٥٣ . محمد آل رشيد ، مرجع سابق ، ص ١٩٧.

(٦) محمد المغراوي ، العلامة محمد المنوني والمخطوط المغربي: رحلة خبرة وعطاء ، مجلة دعوة الحق ،عدد ٣١٧ ، ص.١٤٣.

(٧) نفسه ، ص ١٤٤ .

(٨) إسماعيل الخطيب ،محمد المنوني: الفقيه- المؤرخ- التراثي ،دعوة الحق ،عدد ٣٧٠ ، اكتوبر / نوفمبر / دجنبر ٢٠٠٢ ، ص ٦٠.

(٩) نفسه ، ص ٦١.

(١٠) محمد الطوكي ، الخلفية النظرية للعمل البيبليوغرافي للفقيه محمد المنوني ،دعوة الحق ، عدد ٣٧١ ، صً ١٠٤ .

(١١)إسماعيل الخطيب ،دعوة الحق ، عدد ٣٧١ ، ص ٦١ .

(١٢) الفقيه الادريسي ، منهج الكتابة التاريخية عند العلامة محمد المنوني ، دعوة الحق ،عدد ٣٧١ ، ص ١٤٧.

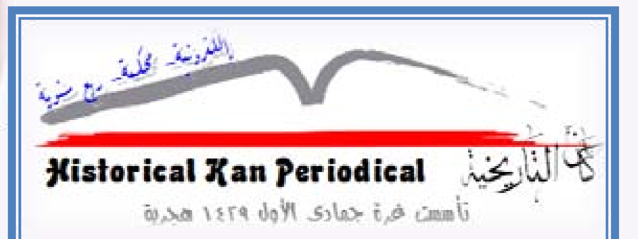
(١٣) إسماعيل الخطيب ، م. س. ص٦٢ .

(١٤) أحمد التوفيق ،مات رجل من الصالحين... مقال ضمن كتاب " الفقيه المنوني شهادات وفاء ، لعبد العزيز تيلاني ، ص ١٢٤.



الأستاذ محمد بكور في سطور:

- كاتب وباحث مغربي وأستاذ التعليم الثانوي التأهيلي لمادة التاريخ والجغرافيا.
- حاصل على دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التاريخ الحديث والمعاصر.
- يحضر أطروحة الدكتوراه تحت عنوان:" الكتابة التاريخية بالمغرب في عهد الحماية".



عام من الدراسات التاريخية

سبتمبر ٢٠٠٨ – سبتمبر ٢٠٠٩

ساعدت التطورات التقنية الهائلة في عصر المعلومات الكثير من الأكاديميين والممارسين، وجماعات الاهتمام، والجمعيات العلمية، على تطوير وسائل الاتصال العلمي والرقي بها، ولعل من أبرز مظاهر استثمار الإنترنت في هذا المجال تنامي أعداد الدوريات الإلكترونية في كثير من المجالات والتخصصات العلمية وبكثير من اللغات الحية.

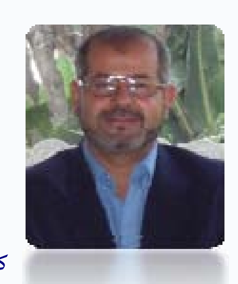
وتتميز الدوريات الإلكترونية بقربها من المستفيد وسرعة وصول المستفيد إليها، وذلك لأنها غالبا ما تكون في جاهزية تامة ومتاحة في كل وقت، خصوصا عندما تكون على الخط المباشر ويمكن الوصول إليها عبر الإنترنت.

وتضيء كان التاريخية مع صدور العدد الخامس ومضة في الفضاء الرقمي تعلن بها عن مرور عام كامل على صدور العدد الأول، عام من الإتاحة المعلوماتية المتناهية، عام من الدراسات التاريخية.

Historical Kan Periodical
Digital Future for Historical Studies ISSN:2090 0449 Online
www.historicalkan.co.nr
أول دورية عربية محكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية، تصدر في شكل إلكتروني، صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨
The first Arabic Refereed Journal Published in Electronic Format, Specialized in Historical Studies and Research.
The First Issue Published on September 2008



الأمير محمد عبد الكريم الخطابي
حياته و كفاحه ضد الاستعمار (١٩٤٧-١٩٦٣)



عرض
حسن البدوي
كاتب وباحث في التاريخ الحديث والمعاصر
دولة قطر
hassan_elbadawy@hotmail.com

رسالة ماجستير غير منشورة
إعداد: حسن محمد حسن البدوي
معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة ٢٠٠٦
إشراف: الأستاذ الدكتور عبد الله عبد الرازق إبراهيم

إننا بصدد الحديث عن فترة من أهم فترات تاريخنا الحديث والمعاصر، فترة شهد فيها العالم أبشع صور التكالب الاستعماري، لنهب واستنزاف خيرات وموارد الشعوب الضعيفة والمغلوبة على أمرها، ولما كان الوطن العربي قد شغل الجزء الشمالي للقارة الإفريقية بأكمله، إضافة إلى منطقة الشمال الغربي لقارة آسيا، لذا فقد عُد من أهم المناطق إستراتيجية في العالم، لما كان العرب قد سيطروا من زمن بعيد، بحكم هذا الموقع المُتميز في طرق تجارة الحرير القادمة من الصين، وتجارة البُهار القادمة من الهند، ولعدة قرون قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح؛ لذا فقد ظل الكيان العربي مطمعاً للغزاة والمغامرين، واندفعت موجات الاستعمار الأوروبي صوب أقرب بلاد العرب إليهم بشمال إفريقيا، فاحتلوا الجزائر عام ١٨٨٠م، وفرضوا الحماية على تونس عام ١٨٨١م، ثم على المغرب عام ١٩١٢م، لذا فقد اكتظت تلك الفترة بالعديد من صور مقاومة السيطرة الأجنبية، وبرزت بعض الشخصيات أمثال الأمير عبد القادر في الجزائر، وسيدي محمد أمزيان وسيدي عبد الكريم الخطابي في المغرب، وكان من المُجاهدين الكثير ممن يضيق المُقام عن ذكرهم، لذا سنعرض لسيرة أحد رموز الكفاح العربي في شمال إفريقيا وهو الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي.

ولد محمد بكراً لأبيه أحد قادة قبيلة بني ورياغل بمنطقة الريف بشمال المغرب، نشأ في كنفه وتلقى عليه هو وشقيقه الأصغر أمحمد مبادئ الدين الحنيف، إضافة إلى العلوم الدنيوية، بُغية الوقوف على أحوال الغرب وطبائعهم، عملاً بمبدأ "من علم لغة قوم أمن غدرهم"، لذا فقد أرسل والده شقيقه الأصغر لتلقي علوم التعدين بالعاصمة الأسبانية مدريد، في الوقت الذي كانت تحتل فيه أسبانيا بعض مناطق شمال المغرب، أما محمد فأرسله والده للعمل بمدينة بمليلة الواقعة ضمن منطقة النفوذ الأسباني أيضاً، فقام بتدريس اللغة العربية للضباط الأسبان، وعمل بالصحافة، فلما رأى منه الأسبان اتزاناً وعدلاً عُين قاضياً في مليلة، فحرص خلال عمله معهم على الوقوف على حقيقة نواياهم، وعلى الهدف من تواجدهم بأرض بلاده، حتى إذا ما تأكد من إصرار الأسبان على الاستمرار في سياسة الظلم والبطش في المناطق التي احتلوها، فضلاً عن عزمهم التوسع في باقي أراضي الريف، استدعاه والده هو وشقيقه، مُعلنين الجهاد ضد أعداء الوطن.

دار صدام بين الفريقين، فلما توفي الأب خلفه ابنه الأكبر في قيادة المُجاهدين، واستمرت المعارك قرابة الخمس سنوات، حقق خلالها الريفيين بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي انتصارات لا تزال مضرباً للأمثال في البراعة وحسن التخطيط، بعد أن تمكنوا من دحر أكبر قوة عسكرية جردها ضدهم الأسبان بقيادة الجنرال "سلفستري" في منطقة أنوال الريفية عام ١٩٢١م، مواصلين تقدمهم للقضاء على باقي مناطق النفوذ الأسباني في المغرب، حتى إذا ما فتح الله عليهم، ودانت لهم القبائل، أعلنوا حكومة ريفية مستقلة، لا تخضع لسلطة المستعمر الغاشم، بل تدين بالولاء للسلطان الشرعي للبلاد.

لما فشلت أسبانيا في القضاء عليهم، عملت على إضعافهم بأن استفزت ضدهم السلطان يوسف سلطان المغرب، وأوقعت في نفسه كذباً أن محمد بن عبد الكريم ما هو إلا ثائر طامع في عرش البلاد، فانطلت اللعبة على السلطان، الذي كانت فرنسا قد وقعت معه عقد الحماية عام ١٩١٢م، فخشي من ضياع سلطانه، وأعلن أن محمد بن عبد الكريم خارج عن طاعته، وبذا أصبح على محمد بن عبد الكريم مواجهة مستعمر غاصب، وسلطان مُغيب، والعديد من الخونة الجهلاء، لكن إصرار المُجاهدين وإيمانهم بحق بلادهم في التمتع بحرية كاملة، لا ينتقص منها احتلال عسكري ولا اتفاقيات، جعلهم يواصلون الكفاح مُحققين النصر تلو الآخر؛ فلما شعر الأسبان بأن سلطانهم في المغرب قرب من الزوال وأن استنفارهم للسلطان ضد ابن عبد الكريم لم يُجدي نفعاً، بحثوا عن من يُعاضدهم للصمود أمام تقدم المُجاهدين، فلم يجدوا سوى فرنسا، المنافس الأول لهم في المنطقة، فتعاهدوا ووضعوا اليد في اليد للقضاء على ابن عبد الكريم ورجاله، ودارت المعارك هنا وهناك، واتسعت ساحات القتال، وفعل الحلفاء كل ما هو مشروع وغير مشروع لإبادة الريفيين، فكانت الغازات السامة والمُحرقة، وقصفت الأسواق بالطائرات، واستبيحت الحُرمات، ومورست كل وسائل البطش والتنكيل بالأهالي العزل وبالمُجاهدين.

حتى إذا ما قضى الله أمره، وكان ما كان من استنفاد المُجاهدين لكل وسائل الصمود أمام هذا الطوفان الجارف، ومع ما لأمير المُجاهدين من حكمة ونباهة، فضل أن يكون كبش فداء ليحفظ على من تبقى من أهل الريف ومن المُجاهدين حياتهم، وقبل أن يُنفى هو وأسرته إلى جزيرة "رينيون" إحدى المستعمرات الفرنسية بالمحيط الهندي عام ١٩٢٦م، وغاب الأمير وأسرته عن بلادهم لأكثر من عشرين عاماً، عانوا خلالها مرارة النفي والبعد عن الأهل والأوطان، أمضى الأمير تلك السنوات في محاولات ومحاولات من أجل العودة إلى بلاده، لكن دون جدوى، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، وما نتج عنها من تغير في موازين القوى العالمية، وافقت فرنسا على التخفيف من قيوده ونقله هو وأسرته إلى أراضيها.

وفي مايو عام ١٩٤٧م وأثناء عبور الأمير وأسرته لقناة السويس المصرية، عرض عليه بعض المغاربة المُقيمين بالقاهرة النزول بمصر، ووافقت الفكرة رغبة الأمير الخطابي، فنزل بمصر مواصلاً كفاحه من جديد؛ التف مُجاهدي شمال إفريقيا (تونس—الجزائر-المغرب)

المُقيمون بالقاهرة حول الأمير ، وعزموا على تكوين هيئة مغربية كبرى توحد جهودهم ، وأن يكون الأمير زعيمهم الأول ، ومرشدهم الخبير ، وتأسست "لجنة تحرير المغرب العربي" بالقاهرة عام ١٩٤٨م ، وأصبحت اللجنة الممثل الشرعي للمغاربة ، بعد أن نالت تأييد ودعم العديد من الدول العربية والإسلامية ، بيد أن تباين أفكار أعضاء اللجنة بدا واضحاً منذ اللحظة الأولى ، ففي الوقت الذي أقر فيه البعض وجهة نظر الأمير المُنادية بالكفاح المُسلح كوسيلة مثلى للتعامل مع الاستعمار - في الوقت ذاته - نادى البعض بالدخول في مباحثات سلمية مع المستعمر ، وألا يتعدى دور الأمير الخطابي في رئاسة اللجنة دوراً شرفياً ، باعتباره أحد رموز الكفاح المغربي وفقط ، فلما رأى الأمير إصرارهم على تهميشه ، وعلى المُضي في تلك السياسة التي تنتقص من كرامة بلادهم ، آثر الانفصال عن اللجنة ، مواصلاً كفاحه مع من تبقى معه من المُجاهدين المُخلصين.

في تلك الأثناء استطاع بعض التونسيين بقيادة الحبيب بورقيبة ، وبعض أعضاء الأحزاب المغربية ، أن يتوصلوا بالتفاوض مع الفرنسيين إلى اتفاقات من شأنها منحهم استقلالاً ذاتياً ، شريطة ألا يتخطى هذا الاستقلال دائرة الارتباط الدائم بفرنسا ، ووجد الأمير الخطابي نفسه وحيداً هو ومن معه من المُجاهدين الجزائريين - وبعض ذوي الهمم والوطنية من المغاربة والتونسيين - لذا كانت تصريحات الأمير ونداءاته تصل إلى شعب شمال إفريقيا منبهة إياه لما يُحاك له ، مُستنفرة همته للتخلص من الاستعمار وأعوانه ، لذا لم تكن تصرفات الأمير الخطابي لتجد قبولاً لدى الذين انخدعوا بما اعتبره الخطابي استقلالاً منقوصا ، فتنكروا له ولجهاده ، وعمل بعضهم على الإيقاع بينه وبين ملك المغرب محمد الخامس ، بالرغم من ذلك فقد أصر الأمير على مواصلة الكفاح.

مضى قطار الحياة بالأمير الخطابي وانقضى أكثر من ثمانية عقود ، قضاها الأمير مُجاهراً برفضه لكل صور الاستعمار ، وفي فبراير ١٩٦٣م وبأرض الكنانة تنتهي رحلة كفاح بطل المغرب وأسد الريف ووري الثرى ، بعد أن سجل لنا وجهة نظره في الفترة التي عاشها مُجاهداً في مذكراته التي خط فيها بسطور من نور رحلة كفاح المغاربة.

وتنقسم الدراسة إلى خمسة فصول:

الفصل الأول
(المغرب تحت السيطرة الأجنبية)

تم الاستعانة في هذا الفصل بجانب كبير من مذكرات الأمير الخطابي ، والفصل يقدم نبذة جغرافية وتاريخية عن المغرب ، إضافة إلى نشأة الأمير ، وتوليه قيادة المُجاهدين بالريف خلفاً لوالده ، وتأسيسه للحكومة الريفية ، ودحره للأسبان في معركة أنوال وما تبع ذلك من تحالفهم مع الفرنسيين ضد المُجاهدين ، حتى انهيار قوة الريفيين ، وما نتج عنها من استسلام الأمير الخطابي ونفيه إلى جزيرة رينيون في المحيط الهندي.

كما يعرض الفصل لرحلة الأمير الخطابي وأسرته إلى منفى جزيرة رينيون ، ولإقامتهم الطويلة بها ، وكيف كان لتغير معايير السياسة الدولية آنذاك تأثير على مجريات حياتهم بالجزيرة ، ويعرض للجهود التي بذلت من أجل تخليص الأمير الخطابي من الأسر الفرنسي ، وما دار في كواليس حركة الجهاد المغربي بالقاهرة ، وكيف تم التنسيق مع السلطات المصرية لتسهيل عملية فرار الأمير وأسرته من الباخرة ، ولكيفية استقبال المصريين الأمير الخطابي وأسرته.

الفصل الثاني
(الأمير الخطابي ولجنة تحرير المغرب العربي)

هذا الفصل يعرض للظروف التي مهدت للجوء الأمير إلى مصر ، وما ترتب على فراره من قبضة الفرنسيين من ردود أفعال ، إضافة إلى إلقاء الضوء على نشاط المغاربة في الفترة التي سبقت تحرر الأمير الخطابي ، وما تلا ذلك من تكوين لجنة تحرير المغرب العربي ، وكيف استطاع الأمير الخطابي من خلال اللجنة تأسيس النواة الأولى لجيش تحرير المغرب ، وإرساله للبعثات من المغاربة لتلقى العلوم العسكرية بالكليات الحربية العربية ، ناهيك عن تدريبه للمجاهدين المغاربة ، بأحد المعسكرات بمنطقة الهايكستيب بالقاهرة. يعرض الفصل أيضاً لما دب من خلافات بين أعضاء اللجنة ، وما نتج عنه من انفصال الأمير الخطابي عن اللجنة ، وممارسته لنشاطه السياسي هو ومن تبقى معه من المخلصين منهم .

الفصل الثالث
(الأمير الخطابي يواصل الكفاح من القاهرة)

يعرض هذا الفصل لموقف الأمير الخطابي من الممارسات الفرنسية في المغرب ، ومن نفى السلطان محمد الخامس ، وتعيين محمد بن عرفة خلفاً له ، ولكيفية قيادة الأمير حملة للضغط على فرنسا ، بواسطة جيش تحرير المغرب ، وتوجيهه للثوار في الأقطار المغربية الثلاث ، ثم لتفجر الثورة التونسية ، والثورة الجزائرية ، مما دفع فرنسا إلى التغيير من سياستها في شمال إفريقيا ، بتحييد التونسيين ، ثم بتحييد المغاربة ، بأن أبدت عدم ممانعتها في التفاوض معهم ، وما نتج عن ذلك من اختلافات في وجهات النظر بين المتفاوضين الذين قبلوا بأنصاف الحلول ، وبين الأمير الخطابي والوطنيين الذين لم يكن ليرضيهم سوى رحيل الاستعمار نهائياً عن شمال إفريقيا بأكمله ، الأمر الذي دفع بالسلطات المغربية إلى قيادة حملة بطش وتنكيل بهؤلاء المعترضين على التفاوض مع فرنسا ، مما زاد الأمور تعقيداً.

الفصل الرابع
(الأمير الخطابي والاستقلال)

يعرض هذا الفصل للأحوال المغرب عقب إعلان الاستقلال ، وما ترتب على ذلك من تفجر الثورة في منطقة الريف ، ولموقف الأمير الخطابي من تلك الثورة ، إضافة إلى إعلان الجنرال ديجول عن عزمه منح الاستقلال للجزائريين ، وكيف تعاونت السلطات في كل من المغرب وتونس معه لتنفيذ مخططه في الجزائر ، بمحاولاتهم الترويج لفكرة الوحدة المغربية.

كما يعرض الفصل للقاء التاريخي بين الأمير الخطابي والملك محمد الخامس بالقاهرة ، وما دار بينهم من حديث انتهى إلى وعد الملك للخطابي بأن يكون عام ١٩٦٠م عام جلاء القوات الأجنبية ، ولما قام به الأمير الخطابي من مجهودات لإجلاء تلك القوات ، إضافة إلى تركيز الجهود من أجل القضية الجزائرية ، بعد أن تخلى حكام تونس والمغرب عنها بطرق مباشرة وغير مباشرة. يعرض الفصل إلى

الأمير تنديد بالتجارب والتفجيرات النووية الفرنسية فى المستعمرات ، وبترحيل الطلبة المغاربة من القاهرة ، وبمعاهدة إيفيان.

الفصل الخامس
(مواقف وقضايا في حياة الأمير الخطابي)

يعرض هذا الفصل لبعض القضايا الهامة في حياة الأمير الخطابي ، مثل موقفه من مشروع الدستور المغربي الجديد ، ومن قضية ولاية العهد كنظام لتوريث الحكم في المغرب ، وموضوع عودته إلى المغرب. ويعرض لأخر بيانات الأمير الخطابي إلى المغاربة ، ولسياسته العربية والعالمية من خلال مواقفه من بعض القضايا والأحداث الدائرة في العالم ، مثل قضية الشرق الأوسط ، والأحداث الدائرة في بعض الدول مثل مصر ، والكنغو ، ومالي ، وموريتانيا ، وإندونيسيا ، وليبيا ، والهند وغيرها ، فضلاً عن شمال إفريقيا.

يعرض الفصل لبعض صفات الأمير الخطابي ، ولكيفية حصول الأسرة الخطابية على مواردها المالية. ثم للأيام الأخيرة في حياة الأمير الخطابي ، ثم لرحيله ، وإصرار أسرته على أن يدفن في مصر ، وكيف أقامت له مصر جنازة رسمية ، ويختتم الفصل بما أثير حول مذكرات الأمير في وسائل الأعلام ، وبما وجده الباحث في المذكرات من معلومات هامة ومفيدة ، إضافة إلى وصف دقيق لماهية تلك المذكرات وما بها من أحداث ، مع إبداء ما تلاحظ بها وعليها من ملاحظات.

وقد توصل الباحث في الخاتمة لعدة نقاط هامة:

- كان انخراط الأمير الخطابي في العمل بالسياسة مبكراً ، إضافة لمرافقته لوالده في رحلة كفاحه الأولى بالريف ، وما تخللها من عمل كمدرس للغة العربية للضباط الأسبان ، ثم قاضياً لقضاة مليلة ، ثم اعتقاله ، إضافة إلى عمله بالصحافة في جريدة تلغراف الريف — أدى ذلك - إلى نضوج فكره وجعله قارئ جيد للأحداث ، وأياً ما كان من أمر هزيمة قواته المتواضعة ، أمام قوات التحالف الأسباني الفرنسي ؛ فإن ذلك لا يُعد هزيمة نهائية ، وإنما هو مُجرد خسران لمعركة.
- لو حاولنا النظر إلى موقف الخطابي أثناء تلك الظروف لوجدناه موقف جدير بكل احترام وتقدير ، إذ كانت مبادرته بأن يجعل حريته طوق نجاة لمن تبقى من رجاله ومن الريفيين ، دليلاً نافياً لأي ادعاء بأنه سعى لتحقيق منفعة شخصية ، أو أهداف دنيوية.
- على هذا لم يكن نفي الأمير الخطابي وأسرته إلى جزيرة رينيون النائية ، ليفت في عضده ، بالرغم من أن سيرته كمتمرد — روكي - كانت قد سبقته إلى الجزيرة ، فنظر إليه أهلها نظرة استياء وحذر ، لذا كانت فترة إقامته الأولى بالجزيرة بمثابة سجن لكل أفراد الأسرة ، إلا أن ذلك لم يحل دون متابعته لما يجري في العالم من أحداث ، وعليه يُمكننا القول بأن فترة المنفى أفادت الخطابي فكرياً بشكل كبير ، إذ كان الحصار المفروض عليه في الريف كافياً للحيلولة بينه وبين الانفتاح على العالم بالشكل المناسب ، أما في الجزيرة فكان بإمكانه الوقوف على ما يدور في العالم من أحداث ، كما كان تخفيف قيوده فيما بعد ، سبباً في اختلاطه بالسكان ، فحقق شهرة واسعة بينهم ، وحاز ثقة الجميع ، بما فيهم الضباط والجنود الذين كُلفوا بحراسته طوال واحد وعشرون عاماً.
- لم يستسلم الأمير لحياة المنفى وحاول جاهداً الخروج من الجزيرة ، وبالرغم من فشل كل محاولاته إلا أنه رفض قبول أي من عروض الدول التي عرضت مساعدته على الخروج من الجزيرة ، لإدراكه أن خروجه بهذه الطريقة لن يعود على بلاده بأي نفع ، وبذا فقد قدم مصلحة بلاده على أي منفعة شخصية ، وبالرغم من موافقة فرنسا المتأخرة على نقله إلى أراضيها ، ولأهداف لا تخدم إلا مصالحها ، إلا أن قدراً ربانياً جرى لإفساد مُخطط فرنسا ، الأمر الذي عبر عنه الأمير الخطابي نفسه من التقاء رغبته مع رغبة من قابلوه على ظهر المركب ؛ وبذا يُحسم الخلاف حول تلك المسألة - فلا هو خطف ، ولا هو حُرض ، ولا هو فر ، ولا هو طلب ، ولا هو أجبر- على النزول بأرض مصر ، إنما توافقت رغبته مع رغبة الذين اقترحوا عليه الإقامة في مصر ، ولم يكن استقبال المصريين له بكل ترحاب ، إلا مؤشراً على ما تمتع به من مكانة في قلوب العرب كافة ، وفي قلوب المصريين خاصة.
- لم تكن الظروف التي نزل فيها الأمير الخطابي بأرض مصر عام ١٩٤٧م لتماثل تلك الظروف التي غادر فيها الريف عام ١٩٢٦م ، إذ كان جهاده بالريف منذ عشرين عاماً النواة الأولى للحركة الوطنية لدى المغاربة ، الذين استطاعوا تكوين عدة تنظيمات نادت بالتخلص من الاستعمار ، والتي سيرتكز عليها الخطابي عندما عاد لممارسة نشاطه الجهادي في القاهرة.
- أدرك الخطابي خلال نشاطه بمكتب المغرب العربي ، ثم بلجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة ، ما أعترى بعض المغاربة من اختلاف في وجهات النظر ، نتج عن تنافسهم وعدم خبرتهم ، ومحاولة بعضهم تحقيق بعض المنافع الشخصية ؛ لذا حاول الأمير الخطابي إزالة ما نشب بينهم من خلافات ، بيد أن الأمر لم يكن يقتصر على التنافس بينهم ، فقد اختلفوا مع الأمير على الطريقة المُثلى للكفاح ، ففي الوقت الذي عمل فيه الخطابي على إنشاء مؤسسة عسكرية مُنظمة لطرد الاستعمار من بلدان شمال إفريقيا — في الوقت ذاته- عمل آخرون على التقليل من أهمية دور الأمير العسكري ، مُركزين الجهود في الحصول على وعد من المستعمر ببعض الحريات ، التي يُمكن أن تكون — من وجهة نظرهم- خطوة أولى إلى تحقيق امتيازات أخرى تالية ، ليس هذا فقط ، بل أن بعضهم عمد إلى تهميش دور الأمير الخطابي في قيادة اللجنة ؛ وجعله مُجرد رمز وفقط ، الأمر الذي دفع الأمير الخطابي إلى الانفصال عن اللجنة ، مُتفرغاً للجهاد على طريقته.
- رغم تحفظ الخطابي على بعض تصرفات ساسة المغرب إلا أن ذلك لم يُوقفه موقف المتفرج من سياسة فرنسا الجائرة في المغرب ، وخلعها للسلطان محمد الخامس ، تولية محمد بن عرفة خلفاً له عام ١٩٥٣م ، لذا بدأ في الضغط عليها عن طريق جيش تحرير المغرب ، مما أسفر عن عودة السلطان محمد الخامس إلى عرشه ، ورغم ما كان يُمكن أن يستثمر من موقف جيش التحرير ومن استقبال الشعب للسلطان ، إلا أن بعض الزعماء المغاربة ركنوا إلى التفاوض مع فرنسا مُخرجين إلى الوجود معاهدة أكس ليبان ، التي حطمت آمال الخطابي ، الأمر الذي دفعه إلى مُعارضة تلك

الاتفاقية ، مُعلناً أنها مؤامرة على مصلحة الشعب ، وأن القائمون عليها مُغيبون.

- كان حصول الزعماء المغاربة على هذا الاستقلال المنقوص عام ١٩٥٦م ، سبباً فيما لاقوه من معارضة الأمير الخطابي وعقلاء المغرب ، وبذا وجدوا مبرراً للقضاء على جيش التحرير ، والبطش والتنكيل بمعارضيهم ، واتخاذ منزل الأمير الخطابي بأجدير مُعتقلاً للمُجاهدين وقادة جيش التحرير ؛ الأمر الذي أدى إلى تفجر الثورة بالريف أواخر عام ١٩٥٨م وأوائل ١٩٥٩م مُطالبة بالاستقلال التام غير المنقوص.
- كان حصول كل من تونس والمغرب على هذا النحو ، إضافة إلى جهر البعض بضرورة التخلي عن قضية الجزائر ، دافعاً للأمير الخطابي للتنديد بتلك التصرفات المتناقضة مع ما نص عليه ميثاق لجنة تحرير المغرب العربي ، الأمر الذي أثار ضده حفيظة العديد من النفعيين ، كما كان وقوفه وراء المُجاهدين الجزائريين في ثورتهم ضد فرنسا ، دافعاً للجنرال ديجول للعب نفس الدور مع الساسة الجزائريين ، بعد أن تم التأثير عليهم بضغط كل من الإدارة المغربية والتونسية ، حتى رضخوا في النهاية لخطة ديجول ، التي انتهت بتوقيع معاهدة إفيان في مارس ١٩٦٢م.
- لم يكن الإعلان عن دستور المغرب الجديد عام ١٩٦٢م ليُرضي ، الأمير الخطابي وكثير من المغاربة ؛ لذا صاح الخطابي مُجاهراً لا للتسلط ، لا لتحكم الفرد ، لا لتزوير آراء الشعب ورغباته ؛ كان هذا الموقف من الخطابي بمثابة المسمار الأخير الذي دق في نعش العلاقة المُضطربة التي ربطت بين الأمير الخطابي وساسة المغرب ، فقطع عنه معاشه الوهمي ، وسبه البعض في الصحف ، وجاهروا بتمنيهم الموت له حيث هو بالقاهرة ، ليس هذا وفقط ، بل أن الحكومة المغربية طلبت رسمياً من مصر أن تحد من نشاط الأمير الخطابي ؛ الأمر الذي أدى إلى التنبيه على الصحف بعدم نشر مقالات وتصريحات الأمير الخطابي التي يُمكن أن تتسبب في اضطراب العلاقات مع الحكومة المغربية.
- لهذا الحد كان المُتحكمون في المغرب يُكنون للخطابي الضغائن ، ولم يكن هذا إلا لمُعارضته سياستهم المُهادنة ، الظالمة للشعب ، برغم تلك التصرفات إلا أنه كان يداوم على مراسلة مسئولي الدولة ذوي المناصب الحساسة ، موجهاً لهم النصح ، واضعاً يدهم على مواطن الخلل في أنظمتهم ، طالباً منهم أن يكونوا عند حسن ظن الشعب بهم ، وعلى الجانب الأخر كان يوجه النداء تلو الأخر للشعب المغربي ذاته ، مبيناً له الطريق الذي سار فيه ساسته ؛ لذا ظلت إشكالية عودة الأمير الخطابي إلى المغرب مثار جدل كبير ، منذ إعلان استقلال المغرب ، فلماذا لم يعد الخطابي عندما دعاه الملك محمد الخامس عام ١٩٦٠م للعودة معه ؟ يقول الخطابي: "بإذن الله سنعود لكن بعد أن يخرج آخر جندي أجنبي من البلاد" كان هذا مطلب الخطابي الوحيد ، والذي لم يتحقق حتى وفاته.
- كان الأمير الخطابي يؤمن بأن حل المشاكل الوطنية مهما كان نوعها ، ينبغي أن يعتمد على القدرات الذاتية بالأساس ، وليس على تجود به الهيئات الدولية التي لا تقيم وزناً للأمم الصغيرة ، لذلك لم يكن كثير التفاؤل بهيئة الأمم ولا بمجلسها الأمني ، بعد أن رأى تحيز "عصبة الأمم" لجانب الأقوياء "إن ما رأيناه من عرض قضايا مصر وفلسطين وإندونيسيا وغيرها على مجلس الأمن وهيئة الأمم ، يجعلني قليل الثقة - بل عديم الثقة - في قيمة الالتجاء إلى هيئات التحكيم الدولي ، إن مشكلاتنا لن تحل إلا بأيدينا ، وداخل أراضينا سلماً كان أم حرباً" ويستنتج الخطابي أن تلك المؤسسة أعجز من أن ترد الحق إلى أهله ، وبالتالي فإن رفع الشكوى إليها لن يُفيد ، وإن من الخير تركها "لأن هاته المؤسسة لا تستطيع حل أية مشكلة".
- تمتع الأمير الخطابي بشخصية محبوبة مُميزة ، ولم يكن من هؤلاء الذين تعج بهم الصالونات وقاعات الاحتفالات ، كان الخطابي لا يحب الأضواء ، ويُفضل العمل في صمت ، وكان قليل الظهور في المجتمعات والمنتديات ، إلا بالمناسبات التي لها علاقة بشكل أو بآخر بقضية الجهاد ، الأمر الذي جعله بمنأى عن الشبهات ، ومحل ثقة من الجميع ، وكان يرحمه لا يتوانى عن مساعدة الآخرين ، فإن لم يكن بيده ما يُقدمه لهم ، فكان يوجههم بما له من مكانة في قلوب المسئولين على اختلاف مناصبهم ، إلى من يقضي لهم حاجتهم ، مُساوياً في ذلك بين من يعرفه ومن لا يعرفه ، ولم تكن اتصالات الخطابي بالمسئولين لتقتصر على القطر المصري فقط ، فقد ربطته علاقات أخوة وصداقة مع معظم رؤساء وملوك الدول آنذاك ، وكان حريصاً على مراسلتهم للتهنئة أو العزاء أو لإبداء النصح لهم ، الأمر الذي توفر لنا من الكثير من المراسلات التي وجدناها ضمن أوراق الأمير الخطابي ، والتي تظهر بجلاء ما كان يتمتع به الأمير من مكانة في قلوب من راسلوه ، إذ لا تخلوا رسالة من تلك الرسائل من الدعاء له أو الثناء عليه ، أو دعوته للزيارة أو مداومة المراسلة ، إلى غير ذلك من معاني الحب والتقدير ، التي بادله إياها كل من راسله سواء من أناس عاديين أو ملوك ورؤساء الدول.
- لم يكن الأمير الخطابي رغم ما تمتع به من مكانة عظيمة لدى الجميع ، ليسمح لنفسه أن يطلب إلى أي شخص أياً كانت حيثيته ، شيئاً لشخصه ، أو شيء يُخالف أو يتحايل على القوانين ، فبالرغم من معاناة الأسرة الخطابية مادياً ، خلال الفترة الأولى لإقامتها بالقاهرة ، إلا أنه لم يسلك أي طريق غير ملائم للتكسب أو المتاجرة بتاريخه الجهادي الكبير ، بل كان على العكس من ذلك تماماً ، فعندما فرضت له الحكومة المصرية راتباً شهرياً قام باقتسامه بين أسرته وبين المجاهدين المغاربة ، الذين كان قد اتصل بهم بمجرد وصوله إلى مصر.



الخطابي

- أضف إلى ذلك عدم خضوع الخطابي للمساومات التي مارسها عليه البعض لإعادة أملاكه التي صادرها الأسبان والفرنسيين ، عقب نفيه إلى جزيرة رينيون ، ومع هذا فضل الخطابي سلك الطريق المشروع لإعادة ممتلكاته السليبة ، دون الخضوع إلى أي من تلك الضغوط ، وفضل أن يُمارس أفراد الأسرة بعض الأعمال بالقاهرة مُعتمدين على الله ، وبنفس الطريقة التي عاشوا بها في جزيرة رينيون.
- كان زهد الأمير الخطابي في ملذات الحياة وترفعه عن مباهجها سبباً فيما تمتع به من ورع ، كان قد أكتسبه من ممارسته لمهنة القضاء ، إذ كان القضاء وما يعتمد عليه من مبادئ الدين ، مُهذباً لنفس الخطابي ، مُنقياً لسريرته ، الأمر الذي يسهُل معه على أي قارئ لبيانات الأمير أو مراسلاته سواء للشعب أو للأفراد ، اكتشاف ما بها من مسحة دينية ، إذ لم تخرج أي من كتابات الأمير يوماً عن فلك الدين بقواعده الثابتة الرصينة ، فلا نلمس فيها أي نوع مما نراه في كتابات الاستعماريين من حقد أو ما شابه ، بل نجده على النقيض يدعوهم إلى العمل بما فيه مصلحتهم أولاً من عدم استعداء الشعوب المستضعفة عليهم ، مُنبهاً إياهم إلى ما يُمكن أن يعود عليهم من ذلك من عواقب.
- لم يضن الأمير الخطابي على شباب أمتنا بثمرة جهاده بالريف ولا بما اكتسبه من خبرة ومهارة خلال تعامله مع الاستعمار ، وترك لنا في مذكراته خلاصة وافية - سهلة مُيسرة — صاغها في حُلة بديعة ، أضفى عليها بروحه الباسلة لمسات دلت في وضوح على ما تمتع به الرجل من حب ونباهة وإيمان ، ترك لنا مُذكراته شاهدة على تلك الملحمة المغربية الجهادية العظيمة ، وبرغم رفض الخطابي نشر المذكرات في حياته ، خشية أن يُدنسها أعداء الحرية بالتحريف والتبديل ، إلا أن عزائنا أنه حفظها لنا ، وقت أن كان للاستعمار ذيول وأعوان هنا وهناك ، أما وقد آن الأوان - لنطلع عليها - فلننهل منها ونتعلم كيف تكون الوطنية والحرية الحقة.



الأستاذحسن البدوي في سطور:

باحث مصري متخصص في تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر ، حاصل على ليسانس الآداب جامعة القاهرة ، ودبلوم الدراسات الأفريقية ، والماجستير في التاريخ الحديث من معهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة ، ومسجل في درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ، مهتم بالتاريخ ويهوى التراث والآثار ، يقيم حالياً في دولة قطر ، ويشارك في جريدة العرب القطرية بمقال في صفحة التاريخ كل أربعاء.

الأندلس
المجد الزائل

تقع الأندلس في الطرف الغربي من أوربا، وتشمل الآن ما يسمى أسبانيا والبرتغال، ويفصلها عن قارة أفريقيا مضيق جبل طارق. ويراد بالأندلس في التاريخ الإسلامي تلك الحقبة الزمنية التي امتدت من فتح العرب لأسبانيا ٩١هـ / ٧١١م حتى سقوط غرناطة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م وهي الفترة التي امتدت نحو ثمانية قرون.

وقد قام بفتح الأندلس ثلاثة من أبطال الفتوح الإسلامية الكبرى؛ هم أسد الصحراء طارق بن زياد، وموسى بن نصير، وابنه عبد العزيز بن موسى. وقد قارن الطبيب الأمريكي المؤرخ فيكتور روبنسون بين الحالة الصحية وغيرها في الأندلس وفي أوربا خلال فترة الفتح الإسلامي للأندلس فقال:" كانت أوربا في ظلام حالك، في حين كانت قرطبة تضيئها المصابيح، وكانت أوربا غارقة في الوحل، في حين كانت قرطبة مرصوفة الشوارع".

وقد علا شأن العروبة والإسلام في الأندلس خلال العصور الممتدة بعد الفتح، حتى عصر آخر ملوك الأندلس وهو أبو عبد الله، الذي ما كاد ينفرد بالحكم حتى خرج عليه فرديناند "ملك النصارى" عازماً على آلا يعود في غرناطة مُلك للمسلمين. وتلاقى الغريمان وتراجع العرب وتم حصارهم في مدينة غرناطة، وأخذوا يعانون عذاب الموت جوعاً حتى اتفقوا على التسليم. وسلم مفاتيح المدينة السلطان أبو عبد الله، ثم ركب جواده مولياً يودع ملكاً ذهب ومجداً ضاع، ورأته أمه عائشة يبكي فقالت: "ابكِ مثل النساء ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال".

ولم يعرف الأسبان عندما نفوا العرب من بلادهم أنهم إنما يخربون بيوتهم بأيديهم، ولم يدركوا أنهم قتلوا الإوَزَّة التي تبيض الذهب، فقد كانت أسبانيا ولقرون طويلة في حكم العرب مركز المدينة، منبع الفنون والعلوم، مصباح الهداية في أوربا.

وإننا لنلمس فضل المسلمين وعظيم أثر مجدهم حينما نرى بأسبانيا الأراضي المهجورة التي كانت أيام المسلمين جنات تجري من تحتها الأنهار، فحينما نذكر تلك البلاد التي كانت في عصور العرب تموج بالعلم والعلماء، نشعر بالركود العام بعد الرفعة والازدهار.

مقال منشور مجلة نسمات.- العدد الثاني؛ ابريل ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.- القاهرة: كلية الآداب- جامعة عين شمس، ٢٠٠٠.



المدن والمراكز الحضارية بالسوس

(٦٦٨-١٠٨١هـ / ١٢٦٩ -١٦٧٠م)

أطروحة دكتوراه غير منشورة
إعداد الباحث: عبد الباسط المستعين
جامعة سيدي محمد بن عبد الله (المغرب)
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس - فاس ٢٠٠٩
إشراف: الدكتورة ماجدة كريمي
نال الباحث درجة الدكتوراه بميزة مشرف جدا



عرض
عبد الباسط المستعين
كاتب وباحث في تاريخ المدينة المغربية
المملكة المغربية
abdelbasset73@yahoo.fr

تندرج هذه الأطروحة في إطار الدراسات المونوغرافية الهادفة إلى تسليط الضوء على السوس (منطقة تقع جنوب جبال الأطلس الكبير بالمغرب كانت لها أهمية خاصة في تاريخ المغرب الأقصى) باعتبار تاريخها الأكثر إثارة من بين جهات المغرب و افتقارها إلى الدراسات الحضرية الكافية خاصة في الحقب الخالية. لذلك تناولت الدراسة كل ما يرتبط بمدنها ومراكزها من قضايا خلال الحقبة المنحصرة بين فترتي حكم المرينيين والسعديين. فما هي الدوافع التي كانت وراء هذا الاختيار؟

دواعي اختيار الموضوع

من الدوافع التي كانت وراء الاهتمام بهذا الموضوع ما يلي:

- خصوصية الجنوب المغربي عامة و السوس خاصة التي تجلت في الانفراد ببعض التطورات الخاصة سياسيا واقتصاديا وحتى اجتماعيا مما يولد الفضول للكشف عن العوامل الواقفة وراء هذه الظاهرة وأسبابها المباشرة وغير المباشرة، القريبة والبعيدة، الداخلية والخارجية، الذاتية والموضوعية.
- المكانة التي تبوأتها منطقة السوس باستمرار، مكانة لم تشمل جانبا دون آخر، وهي متميزة، إن على المستوى الطبيعي حيث الغنى والتنوع الذي يجمع بين مؤهلات السهل والجبل والصحراء والبحر، مما لا يجتمع في منطقة غيرها بالمغرب الأقصى، أو الاقتصادي حيث تعدد الموارد الفلاحية والمعدنية والحرفية فضلا عن الأهمية التجارية، أو الاستراتيجي إذ شكلت المنطقة عبر العصور محط تنافس سياسي وعسكري كبير .
- الاضطراب المصدري اللافت، حيث تتوفر المعلومات في إحدى المجالات المرتبطة بالسوس إلى حد الملل، وتندر في أخرى لحد الاستغراب، كما تتواطأ لحد التواتر وتتباين لدرجة التناقض، مما يجعل الخوض في سبيل الكشف عن حقيقتها يتميز بطابع الجدة والتشويق.
- فقر المادة المرجعية المرتبطة بالظاهرة الحضرية بالسوس. فبقدر ما تتعدد الدراسات المنجزة حولها بقدر ما يندر الاهتمام بمدنها ومراكزها حيث ما زالت في حاجة إلى جهود كبرى لتغطية كل المجال السوسي وفي جميع المراحل التاريخية.

و قد شملت هذه الدراسة كل التجمعات الحضرية والشبيهة في السوس، من مدن و مراكز، نظرا لصعوبة تحديد مواصفات دقيقة للمدينة في الإطار الزمني المدروس الذي يتراوح بين سنة ٦٦٨هـ-١٢٦٩م، وهو تاريخ سقوط مراكش بيد المرينيين، أي تاريخ التأسيس الفعلي لهذه الدولة بعد القضاء على آخر معالم الحكم الموحدي، ثم سنة ١٠٨١هـ- ١٦٧٠م، تاريخ سقوط إيليغ بيد الدولة العلوية وانتهاء الإمارة السملالية بالسوس. ولا يخفى ما لهذه الحقبة من أهمية خاصة، فهي حبلى بالمتغيرات، وكانت مخالفة إلى حد كبير لما سبقها، على مستوى حجم التطورات التي عاشها المغرب برمته وانعكاساتها على المنطقة، وكذلك التطورات الحاسمة التي عاشتها السوس وكان لها أثر واضح على مجموع البلاد.

منهج البحث

أثناء تناول قضايا هذا الموضوع، تم اعتماد مختلف أدوات المنهج التاريخي من وصف واستقراء ثم تحليل وتفسير فاستنتاج وتعميم بناء على ما توفره المادة المصدرية من معطيات دون إلغاء حق التدخل وإعمال النقد والتفكيك مع توخي مقتضيات المناهج العلمية من موضوعية وتجرد في معالجة كل القضايا الشائكة.

كما اقتضت طبيعة إشكالية الدراسة أن يتم تناول الموضوع على شكل قضايا مستقلة، تفاديا لرتابة المعالجة الكرنولوجية، وقد استحضر العامل الزمني أثناء دراسة كل قضية على حدة مع إبراز انعكاساته على الظواهر المدروسة.

وفي حالة اختلاف المعلومات المصدرية وآراء الدارسين والمهتمين حول قضية معينة، فإن عرض تلك الآراء المختلفة يكون من منطلق صحة كل الفرضيات قبل تحليلها وتمحيصها واستخلاص حكم معين أو الترجيح بين الآراء المتضاربة في حالة غياب الأدلة الكافية والحجج المقنعة مع إعمال المنطق العقلاني في تدعيم الرأي أو تفنيده .

ومن ثم فإن مهمة البحث لم يقتصر على حشد الشواهد المصدرية والمرجعية، بل تعدت ذلك إلى تقييم تلك النصوص واستخلاص الموقف الشخصي المناسب الذي لا يتقاطع أو يختلف بالضرورة مع مضمون النصوص التاريخية.

لقد أنبنى المنهج الذي ارتكزت عليه هذه الدراسة على ثلاثة عناصر أساسية:

أولا: وصف الظاهرة المدروسة وتناولها بالجرد والترتيب والتصنيف حتى يسهل التعرف على حدود التطور الحاصل بالمدن والمراكز السوسية في الحقبة المذكورة ورصد كل المعطيات المرتبطة بها طبيعيا واقتصاديا واجتماعيا وسياسياً.

ثانيا: تحليل العوامل المحددة لنوعية التطور الذي شهدته هذه المراكز الحضرية وتفسيرها.



ثالثا: إعادة تركيب عناصر التحليل للخروج بخلاصات عامة في موضوع الدراسة.

وهذه العناصر ليست متتالية في الموضوع وإنما موزعة بكل فصول الدراسة.

المضامين الكبرى للأطروحة

لقد أفضت أعمال البحث إلى تناول الموضوع عبر ثلاثة أبواب وتسعة فصول واثنين وعشرين مبحثا.

تم التمهيد لهذه الدراسة بتوضيح الإطار التاريخي العام الذي عاش المغرب الأقصى وضمنه السوس ومحيطهما الدولي في ظله ، وتبين أن الحقبة المدروسة مثلت منعطفا حاسما ساهم في انحراف المسار الحضاري والحضري للبلاد التي تحولت من مركز القوة و الريادة على المستوى السياسي والعسكري إلى محط أطماع قوى قريبة تتربص بها وتحين الفرص للانقضاض على أطرافها. حيث عاش المغرب الأقصى ابتداء من الشطر الثاني من عصر بني مرين معادلة معكوسة تماما مع الأقطار الأروبية. ففي الوقت الذي شرعت فيه تلك الدول في استجماع قواها والتفوق في الميادين العلمية والصناعية والبحرية ، والتكتل السياسي ، كان المغرب ينحدر بسرعة نحو التجزئة والضعف السياسي والاضطراب الاجتماعي والانكماش الاقتصادي والتراجع العلمي ، وقد شكلت هذه الظروف مناسبة غير قابلة للتفويت استغلت بشكل جيد من قبل الممالك الإيبيرية المتعاظمة باستمرار والمزهوة بالنجاحات الباهرة التي حققتها عسكريا وسياسيا ، وفي ميدان الكشوف وامتطاء البحار ، فساهمت الأحقاد التاريخية والنزعة الصليبية وتحول ميزان القوة لصالحها في التكالب على مدن الواجهات البحرية المغربية ، وأصبح المغرب لأول مرة منذ نهاية الوجود الروماني في مواجهة إحدى أخطر التحديات التي صارت تهدد كيانه ووجوده .

في هذا السياق التاريخي الذي انقلبت فيه أوضاع البلاد من الصولة الخارجية إلى المعاناة من احتلال جل الثغور الساحلية بالمغرب الأقصى على امتداد الشواطئ المتوسطية والأطلسية ، تطلعت الدراسة إلى كشف نوع التطور والتأثير الحاصل على مدن ومراكز السوس التي كان طبيعيا أن يصلها صدى هذه التحولات.

بعد ذلك خصص المبحث الثاني من الفصل التمهيدي لمحاولة رسم الإطار الجغرافي للدراسة و مناقشة كافة الإشكالات التي يطرحها تحديد المجال السوسي في ظل تباين وتناقض المعلومات المصدرية واختلاف آراء الدارسين ، و مكن تمحيص الروايات المصدرية من رصد تطور استعمال مفردات: السوس و السوس الأدنى ثم السوس الأقصى ، كما تم الوقوف على الأخطاء التي انزلقت إليها بعض الدراسات نتيجة عدم الانتباه إلى الخلط الحاصل في العديد من معلومات المصادر بين مواقع كثيرة تحمل اسم السوس سواء في المشرق أو إفريقية أو المغرب الأقصى ، و الانتهاء إلى وضع إطار تقريبي لحدود المجال السوسي منحصرة بين جبال الأطلس شمالا مع اعتبار واجهتها الجنوبية جزء لا يتجزأ من السوس ، ثم منطقة درعة شرقا ، ونول جنوبا مع استحضار التمدد المتواصل للحدود الجنوبية بمرور الوقت ، فالمحيط الأطلسي غربا.

بعد المدخلين: التاريخي والجغرافي ، الضروريين لتأطير الموضوع زمنيا و مجاليا ، خصصنا الباب الأول لتشريح جزء من الإشكالية العامة مرتبط بدراسة الجوانب العامة المحددة لمسار التطور في مدن ومراكز السوس ، وتناول في البداية إشكالية مفهوم المدينة وما يطرحه من جدل واسع ، وتداخل مع غيره من المفاهيم ، كالقرية والكفر والقصبة و الكورة والقصر وغيرها ، ليتم استخلاص محددات خاصة للمدن رغم طابعها النسبي ، مع توسيع مجال الموضوع ليشمل بعض المراكز التي لا ترقى إلى مصاف الحواضر لكنها بناء على المعايير الحضرية تعتبر أقرب إليها مما سواها. وبعد ذلك تم تناول إشكالية أسماء مدن ومراكز السوس على مستوى صيغها وأصولها و دلالاتها ، خلص إلى أن بعضها مغرق في القدم ، غامض في معانيه دون إلغاء بعض المقاربات الافتراضية ، و الوقوف على هيمنة التسميات ذات الأصول الأمازيغية كانعكاس طبيعي للمكونات الإثنية ، مع تسجيل بداية التأثير العربي والأوربي في هذه الأسماء منذ القرن الثالث عشر و الخامس عشر الميلادي على التوالي. ثم انتقلت الدراسة إلى تناول إشكالية مواقع ومواضع المدن والمراكز السوسية ، كلا على حدة ، قادت إلى تحديد على أربعة أصناف من هذه المواقع هي: الكتلة الشمالية والشريط الشمال شرقي والجزء الجنوبي ثم المنطقة الوسطى ، وأربعة أصناف كذلك من المواضع ، هي: المواضع السهلية والجبلية ثم الساحلية فمواضع النطاق الجاف وشبه الصحراوي ، وقد تبين من خلال ذلك مدى الأهمية القصوى لهذين العنصرين في مسار المراكز الحضرية بالسوس ، غير أن تأثيرها لا يستقل عن عدة عوامل أخرى.

وبعد ذلك تمت دراسة التركيب الإثني والاجتماعي لهذه المدن والمراكز حيث تبين مدى غناها التاريخي من حيث العناصر الإثنية ما بين عبريين وزنوج وحراطين وأندلسيين و أتراك وأروبيين ، غير أن الأمازيغ شكلوا أهم هذه المكونات ، يليهم العرب ،خاصة ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي. كما تم الوقوف على تباين الفئات الاجتماعية المكونة لساكنة هذه المراكز ما بين فئات ذات مكانة اجتماعية مرموقة ضمت من جهة رموز السلطة الذين اكتسبوا الثروة والجاه بفضل مسؤولياتهم القيادية في الإدارة أو الجيش ، ومن جهة ثانية العلماء والصلحاء والشرفاء الذين مارسوا ثقلا روحيا يضاهي الفئة السابقة. وفئة وسطى ضمت شرائح اجتماعية مختلفة ، ثم الفئات الدنيا التي تمثلت في العبيد والخدم والأسرى. وإلى جانب ذلك رامت الدراسة تشكيل صورة حول وضعية النساء والأطفال بهذا المجتمع الحضري ، ووقفت على مساهمتهما المتواضعة في رسم أحداث المنطقة إلا أنهما كانا أكبر و أهون ضحايا النزاعات و الحروب.

وقد خُتم الباب الأول بمعالجة إشكالية نشأة المدن والمراكز السوسية ثم مسارات تطورها. و مكنت هذه الخطوة من تقسيم المدن من حيث نشأتها إلى صنف قديم يصعب تحديد زمن نشأته و الجهة المؤسسة له ، أو نشأ في الحقبة الإسلامية السابقة عن فترة الدراسة ، وصنف ثان ارتبط بالمدن والمراكز المستحدثة خلال الحقبة المدروسة والتي تم التمييز ضمنها بين المراكز الأجنبية ذات الصلة بالاحتلال ، والمراكز المحلية ؛ واتضح أن هناك اختلاف حول تاريخ تأسيس معظمها وأحيانا حتى حول المؤسس ، كما تم تتبع المسار المتعرج والمضطرب لنموها بالفصل بين مراكز الحقبة السابقة عن الاحتلال الإيبيري لمراكز السوس(سنة ١٤٧٦م) و الحقبة الموالية لها.

أما الباب الثاني من هذه الدراسة فقد خصص لرصد الوظائف والأنشطة التي قامت بها هذه المراكز وشبكة علاقتها ، وقسمت إلى ثلاث وظائف رئيسية إلى ، هي: الوظائف الإدارية والعسكرية البارزة من خلال العواصم الإقليمية والمحلية ذات العلاقة بالدول الحاكمة والإمارات السوسية ، أو بالبطون القبلية الكبرى و أهمها حاضرة السوس

و حاضرة نـول و حاضرة جزولـة و حاضرة تازروالـت و حاضرة طاطا. وكذلك الحصون العسكرية سـواء منها المنفردة أو المرتبطـة بـبعض المـدن أو الأجنبيـة المرتبطـة بـالاحتلال ، ثـم الوظـائف الاقتصـادية المتعددة ، الشاملة للأنشطة المنجمية والحرفية والفلاحية والتجارية الدالة على تنوع و أهمية الأسس الاقتصادية للمراكز السوسية ، إضافة إلـى الوظـائف الدينيـة التـي قامـت بهـا الرباطـات والزوايـا والمسـاجد والمـدارس والتـي كـان حضـورها متميـزا بالعديـد مـن مـدن السـوس. وخصص الفصل الثاني من هذا الباب إلى العلاقات المتعددة الأبعاد للمدن والمراكز السوسية سواء على مستوى علاقتها بمحيطها القبلي التي تباينت من حيث نوعيتها بين علاقة سلم وتعاون ، وعلاقة حرب ومواجهة ، دون إلغاء للمصالح بين الطرفين ، ومن حيث مجالاتها التي شملت الجوانب الاجتماعية والاقتصادية الشديدة الصلة بهذه المراكز ثـم العلاقـات السياسـية والعسـكرية. وكـذلك علـى مسـتوى علاقتهـا بالمخزن التي اتخذت ثلاث صور أساسية هي: علاقة الخضوع والولاء الطـوعي منه و الإجبـاري ، الناجمـة عـن قـوة الدولـة المركزيـة ، وعلاقـة التمرد التي ميزت فترات طويلة و متقطعة من تاريخ السـوس ، ثم حالة القطيعة مع الدول الحاكمة بالمغرب والتي ارتبطت في الغالب بأوقات ضعف السلطات المركزية أو انشغالها بالنزاع بين الأمراء حول العرش. كما تم رصد علاقة المدن والمراكز السوسية بالعالم الإسلامي التي تعود جـذورها إلـى مراحـل قديمـة لكنهـا تتغيـر حسـب الظـروف المحليـة والإقليميـة ، و علاقـة هـذه المراكـز مـع أروبـا المتراوحـة بيـن الاصـطدام المميز لحقبة الاحتلال البرتغالي والقشتالي ، ثم روابط الحماية مع هذه الـدول فـي فتـرات معينـة وكـذا الـروابط التجاريـة المتزايـدة مـع مـرور الوقت ، و المتسعة لتشمل عدة بلدان أروبية.

أما الباب الثالث فقد تناول المميزات العمرانية والمعمارية لمراكز السوس وكذا العوامل المؤثرة فيها ، حيث تمت دراسة طابعها الحضري عبر محاولة إسقاط أربعـة معايير أساسية لتمييز الحواضر عما سواها علـى مـدن ومراكـز السـوس ، وهـي: ارتفـاع الكثافـة السـكانية والـدور القيـادي للمدينـة باعتبارهـا مقر السـلطة الحاكمـة والقضـاء وكـل رمـوز الدولة ، وأهمية السوق والنشاط التجاري ، بالإضافة إلى هيمنة الأنشطة غير الفلاحيـة ، و هذه المعايير تتوفر بنسـب متفاوتـة في جل المراكز السوسـية ، باسـتثناء الأنشـطة الفلاحيـة التـي شـكلت حيـزا مهمـا مـن اهتمامات جل المدن و المراكز السوسية شأنها في ذلك شأن معظم مدن ذلك العصر. و بعد ذلك تناولت الدراسة مميزات البنية الداخلية لهذه المراكز عبر رصد أهم المعالم الدالة على غناها بالمرافق الكبرى والأساسية ، سواء منها المرافق الاقتصادية من أسواق و معاصر ودور الدباغة و المحلات التجارية و الفنادق و دور السكة... أوالمرافق الدينية مثل المساجد و الزوايا و المدارس و الكنائس... أوالمرافق المدنية من شـوارع و دور و ملاحـات وأبـواب...أوالمرافـق العسـكرية مـن أسـوار وحصون وأبراج و غيرها.

ثم خصص الفصل الثاني من هذا الباب لفن العمارة بالسوس ، واستهل بإطلالة على أهم الأنماط العمرانية المشكلة لمراكز السوس والتي تجلت في المدن الجامعة ، أي المكونة من نسيج عمراني موحد ، وظاهرة الكتل المنفصلة التي تألفت منها المدينة الواحدة ،حيث تضم السـوس مراكـز مؤلفـة مـن عـدة وحـدات عمرانيـة مسـتقلة بأسـوارها الخاصة ، ثم الحصون المختلفة والمتنوعة بين حصون "رسمية" يعود إنشاؤها إلى الدول المركزية ، وأخرى خاصة بالثوار يلجئون إليها لاتقاء الحمـلات المخزنيـة ، والحصـون المدنيـة التـي لـم تضـطلع بـأي دور عسكري ، وحصـون الاحتلال الإيبيري ، ثـم القصبات والقصـور داخل المدن.

و تم التطرق أيضا إلى مواد البناء المتنوعة و تقنياته بين التراب المسـتخدم فـي بنـاءات الطابيـة و صـناعة الطـوب و الآجـر ، والحجـر والخشب وغيرها ، ثم العناصر الزخرفية التي تفاعلت فيها عدة مكونات حضارية ، فبقدر ما جسدت بعض الخصوصيات المحلية العريقة بقدر مـا تـأثرت بعناصـر فنيـة خارجيـة ، أندلسـية و مشـرقية و صـحراوية وأوربيـة ، وكـان لهـا أيضـا إشـعاع خـارج السـوس ، و اسـتمرت الفنـون المعمارية بالسوس في التطور الداخلي و التفاعل الخارجي عبر مختلف الحقب.

أما الفصل الأخير من هذا الباب فقد انصب على تحليل العوامل الفاعلـة فـي الظـاهرة الحضـرية بالسـوس مـن خـلال اسـتنباط العوامـل الإيجابية التي أثرت فيها و التي تباينت بين ما هو طبيعي مرتبط بتعدد مؤهلات الوسط الطبيعي بالسـوس ، إن على مستوى إيجابيات مواقع ومواضع المراكز ، أو أهمية المـوارد المائية وتنوع المنتجات الفلاحية خاصة في القسم السهلي الشمالي ، أو وفرة الثروات المعدنية. ومنها ما هـو اقتصـادي يكمـن فـي تعـدد الصـنائع والأنشـطة الحرفيـة بـالمراكز السوسـية علـى مـر العصـور. ومنهـا مـا هـو سياسـي يتعلـق بـإقرار الأمـن وتوفير الاستقرار خاصة في فترات قوة الدولة الحاكمة.ومن ثم استفادت المراكـز السوسـية كثيـرا مـن الغنـى الطبيعـي ومـن فتـرات الرخـاء الاقتصادي والاستقرار السياسي.

وبالمقابل كانت هناك عوامل سلبية عرقلت نمو المراكز وساهمت كثيرا في تعطيل مسيرتها. وأهمها غياب الاسـتقرار السياسي و تعاقب الثورات والحملات المخزنية المضادة ، إضافة إلى التوتر الاجتماعي من خـلال الصـراعات القبليـة حـول مصـادر المـاء والمراعـي ، ثـم الكـوارث الطبيعية التي كان للسوس منها نصيب وافر. وقد أثرت هذه العوامل وغيرها بشكل سلبي على العمران البشري بمراكز السوس.

أهم الاستنتاجات

بعـدما الوقـوف مـع جوانـب شـتى ذات الصـلة بمـدن و مراكـز السـوس مـن أواخـر القـرن ٧هـ / ١٣م إلـى أواخر القرن ١١هـ / ١٧م ، وبسـط مختلف القضايا التي ترتبط بها ، يبدو أنها ما زالت بحاجة إلى تذييل يلخص جملة النتائج المتوصل إليها و يبسط أهم الاستنتاجات و الآفاق التي تفتحت جراء ذلك. و فيما يلي الخطوط العريضة لنتائج هذه الأطروحة:

- كشف النقاب عن دلالة مصطلح السوس و ضبط نطاقه الجغرافي. فمن خلال ما تأتى من معلومات مصدرية و دراسات حديثة ، تمت مناقشـة مسـار تطـور اسـتعمال هـذا المصـطلح الـذي تغيـر حسـب الحقب و انتهى إلى الانحصار في المنطقة المخصوصة بالدراسة خلال الحقبة المحددة. و تم استخلاص معالم حدود السوس من الجهات الأربع مع استحضار التغيير الذي يطالها مع مرور الزمن خاصة من جهة الجنوب حيث ظلت في تمدد مستمر نحو أعماق الصحراء.
- إثبات نسبية الظاهرة الحضرية المتسمة بالتداخل مع غيرها خاصة الحصون والقرى و غيرها ، وتباين مفهومها حسب الظرفين الزماني

و المكاني ، و من ثم صعوبة تحصيل إجماع الباحثين حول تقديم تعريف موحد للمدينة.

- تقصي أصول و دلالات أسماء المدن و المراكز السوسية المعبرة عن جذور الظاهرة المدينية بالمنطقة وعمقها الأمازيغي مع تأثرها بما استجد من عناصر فاعلة ارتباطا بوصول القبائل العربية والتدخل الإيبيري.
- كشف أهم جوانب القوة و الضعف في خصائص مواقع ومواضع مختلف المراكز الحضرية السوسية وتصنيفها إلى مجموعات متقاربة من حيث هذه المميزات.
- إبراز الثراء العرقي و التنوع الثقافي و الديني لساكنة مدن و مراكز السوس مع إبراز سياق أهم التحولات الاجتماعية التي شهدتها.
- استجلاء واقع مختلف فئات المجتمع الحضري بالسوس.
- رصد مستوى النمو الحضري وعملية استحداث المدن و المراكز بالسوس وتتبع أهم التطورات التي عاشتها كل هذه التجمعات الحضرية خلال الحقبة المدروسة في ارتباط وتفاعل مع التحولات الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية التي ميزت المنطقة في محاولة لاستخلاص الخريطة الحضرية للسوس.
- دراسة وظائف مدن و مراكز السوس باعتبارها السبب الأساس لاستمرارها و نمائها.
- تحليل علاقة المراكز السوسية بمحيطها المتشعب من أجل فهم انعكاسات ذلك سلبا و إيجابا على هذه المراكز.
- مناقشة الخصائص الحضرية لمدن و مراكز السوس وعرضها على المعايير الحديثة لتصنيف الحواضر و بيان نصيبها منها واستخلاص حدود انطباقها عليها.
- رصد البنيات الداخلية و المرافق الكبرى لمراكز السوس مصنفة حسب وظائفها باعتبار هذه المؤسسات من مميزات الوسط الحضري.
- تصنيف الأنماط العمرانية لمراكز السوس من أجل الوقوف على الغنى و التنوع المميز للملامح الخارجية لهذه التجمعات الحضرية.
- دراسة مواد البناء وفنون العمارة من أجل استخلاص حدود التأثير و التأثر في هذا المجال.
- بيان و تحليل العوامل الفاعلة في مدن و مراكز السوس للتعرف على مصادر التأثير السلبي وعوامل النماء والازدهار.

هذه أهم الفوائد لا تكتمل صورتها إلا إذا تعززت بخلاصات إضافية عبارة عن استنتاجات كبرى تولدت عن هذا العمل وأيضا كقضايا جديدة تفتح آفاقا رحبة للبحث و تدعو الضرورة لاستيفاء حقها ، إلى أن تفرد بالدراسة من أجل تناولها بعمق و دقة أكبر ، وهي كالآتي:

على المستوى السياسي

- تجربة الإمارات المحلية(بنو يدر-الحاحيون .السملاليون...) تحتاج إلى تناول تحليلي خاص يسلط الضوء على أبعادها ونتائجها و دوافعها ، خاصة وأن عدة مؤشرات تبين أن تشكيل هذه الإمارات لم يكن بدافع الاستقلال بقدر ما كان نوعا من رد الفعل تجاه ما كان يحصل من اضطراب في السلطات المركزية.
- مسألة شرف النسب بالسوس ، وكعادة المغاربة ، فرغم هيمنة الأصول الأمازيغية على معظم ساكنة المراكز السوسية ، فإن الشرفاء منهم حظوا بتبجيل خاص و مكانة لا تضاهى. لكن ما يحتاج إلى تدقيق أكبر هو تتبع علاقة السوسيين بالشرفاء في حالة تقلدهم لمسؤولية حكم الدولة السعدية ، وهل تتساوى نظرتهم للفقيه الشريف بنظرتهم إلى الحاكم الشريف ؟ وإن كان هناك اختلاف ، فما هي أسبابه و عواقبه ؟
- نفوذ الزوايا بالسوس على المستوى الروحي و السياسي ، رغم أنها ليست ميزة تنفرد بها المنطقة ، إلا أن المثير هو تحول السوس خلال الحقبة المدروسة إلى مركز لتخريج أقطاب التصوف أكثر من أي وقت مضى. هؤلاء الشيوخ الذين غدوا قبلة لأفواج الطلبة و المريدين. فما هو السر وراء هذا المد الصوفي ؟ وما هي تداعياته و مخلفاته ؟ ثم كيف يمكن تفسير نزوع بعض هذه الشخصيات الصوفية إلى الانخراط في العمل السياسي ، إن بتنظيم صفوف الجهاد ضد الغزو الإيبيري أو بتزعم تمردات ضد السلطة الحاكمة ؟ وإحجام أخرى واكتفائها بتربية وتعليم وإيواء الأتباع و اقتصارها على أعمال البر والإحسان.
- قضية علاقة السوسيين بالإيبيريين ، وما يرتبط بمسألة الحماية مع الطرف الإسباني خاصة ، في حاجة إلى تمحيص كبير. فمعاهدة بوطاط الغامضة المقاصد ، وردت مبتورة السياق ، متضاربة بنودها مع ما تلاها من وقائع. فما مدى مصداقية هذه المعاهدة ؟ وفي حالة الإيجاب ، ما هي دوافع الأطراف السوسية الموقعة ؟ و ما حدود الالتزام بمقتضياتها ؟
- مسألة الحكم المحلي كظاهرة مثيرة تكاد تنفرد بها المنطقة ، وتعود إلى أزمنة سابقة ، كما أنها ذائعة الانتشار في عدة مراكز من السوس. وعلى حد علمنا فإذا استثنينا تجربة ديوان سلا والرباط و القصبة الذي أنشأه الأندلسيون غداة ضعف الحكم السعدي ، فإننا لا نكاد نجد نظيرا لنمط الحكم التداولي بمدن السوس في مرحلة الفراغ السياسي خلال العصر الوطاسي. فما هي إذن جذور هذه التجربة ؟ و ما دوافعها و نتائجها ؟ ولماذا عجزت عن الامتداد إلى الإمارات المحلية و الدول المركزية ؟
- عوامل تحول دور المغرب الأقصى و منه السوس في حقبة الدراسة إلى مجال أكثر تأثرا بما يحيط به من تطورات ، بعدما كان في فترات سابقة ، خاصة إبان العصرين المرابطي والموحدي ، هو المؤثر في الأحداث من حوله. و لماذا استمر العجز عن استرجاع هذه المكانة قائما حتى بعد بناء دولة مركزية قوية في إحدى فترات الحكم السعدي ؟

صحيح أن المنصور أقدم على غزو السودان ، لكن لماذا عجز المغاربة عن استرجاع سبتة و تقبلوا الأمر الواقع في الأندلس ؟ واضح أيضا أن ميزان القوى العسكري صار يميل لصالح الممالك المسيحية على مستوى الأسطول و صناعة السلاح الناري ، ولكن لم بقي المغرب بمعزل عن هذه التحولات ولم يواكب ما تعاظم حوله من أخطار ؟

- مسألة الجهاد البحري في عرض السواحل السوسية والصحراوية تستحق الاهتمام لما يتوفر من إشارات مثيرة في الموضوع. فقد

أثبتت محاضر محاكم التفتيش البرتغالية إلمام أشخاص ينتمون إلى مناطق غير ساحلية بشؤون الملاحة البحرية ،وقد أقر المؤرخ البرتغالي فيكانيي بحقيقة جهاد أهل السوس البحري ضد البرتغاليين و الإسبان ، كما أحدثت حملة سنة ١٦١٨م "هزة عنيفة في أوساط هذه الجزر[الكناري] و شبه الجزيرة الإيبيرية. وكانت الهزة واضحة المعالم .... فقد وصلت إلى سواحل جزيرة لانزروتي Lanzarote خلال هذه العملية وحدها ستون سفينة شراعية يرأسها كل من المسمى تابان والمسمى سليمان. وقد نزل هناك ٥٠٠٠ محارب توجهوا مباشرة نحو مدينة تيگيس Tigis ، فهرب السكان إلى جزيرة فويرتوفونتورا Fuertaventura. تمكن المهاجمون من سجن ٩٠٠ مسيحي إسباني بعدما هدموا و أحرقوا منازل و كنائس تيگيس. ثم توجهوا بعد ذلك إلى گوميرا Gomera فغزوا و أحرقوا مدينة سان سيباستيان San sebastian التي غادروها متوجهين نحو جزيرة لابالما La Palma بميناء تازكوغت.... وقد كان من شأن المجابهة العنيفة أن صدتهم عن أهدافهم فعادوا إلى قواعدهم." واضح إذن أن مثل هذه العمليات لا يمكن تنظيمها من فراغ ، لذلك وجب الكشف عمن يقف وراءها و ما يقترن بها قبل و بعد تنفيذها.

على المستوى الاقتصادي

- قضية التفاوت في المؤهلات الطبيعية بين صنفين من المراكز و الجهات داخل السوس. أحدهما يزخر بثروات مائية و زراعية وحيوانية متعددة ، يقابله صنف ثان يعاني من شح و ندرة هذه الموارد.فكيف تمكنت المراكز ذات الإمكانيات المتواضعة من تأمين حاجياتها و حفظ وجودها لزمن طويل ؟
- مسألة التجارة الصحراوية في القرنين الأولين للكشوفات الجغرافية وتحول السوس إلى أهم جهة مغربية تقوم بدور الوسيط في تصريف بضائعها ، تفرض التساؤل حول حدود صمودها في وجه منافسة الأساطيل الأوربية و نوع التغير الحاصل في بنيتها حجما و قيمة وتنظيما.
- قضية العلاقات التجارية الأوربية مع السوس بحاجة إلى تناول خاص يتتبع كل مراحلها وبنيتها ومحركاتها الأساسية.
- الملاحة المغربية بالسواحل السوسية والأطلسية عموما تعد من القضايا العالقة التي تنتظر من يكشف النقاب عن جوانب الغموض فيها. فالمؤشرات الدالة على قيام علاقات بحرية بين السودان و المغرب الأقصى في إحدى مراحل العصر الوسيط في حاجة إلى كشف حيثياتها ومداها وسر اختفائها التام والنهائي بعد ذلك.
- الأنشطة الصناعية و الحرفية بالمدن و المراكز السوسية لم تنل بعد الحظ الوافي من الدراسات الكفيلة بالإجابة عن مختلف الإشكالات المرتبطة بها.

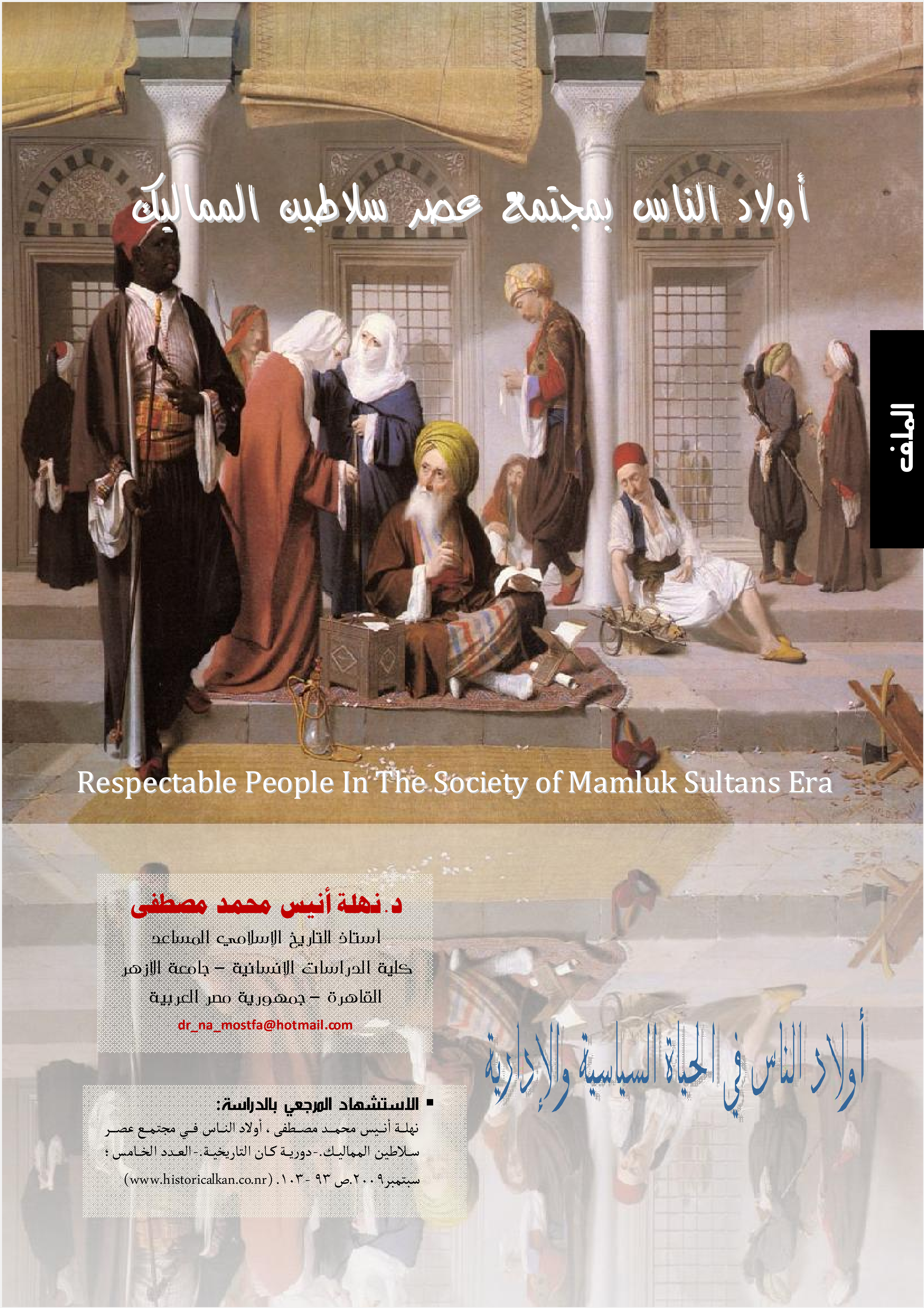
على المستوى الاجتماعي

- ما تزال خصوصية التأثير المعقلي على منطقة السوس حبيسة الأحكام الجاهزة ، بالتركيز على الجوانب السلبية منها وتحميل القبائل العربية مسؤولية كل دمار أو خراب مع إغفال ما كان لهؤلاء من آثار إيجابية أيضا ، كمساهمتها في تعمير بعض المراكز وإنشاء أخرى جديدة. لذلك لا بد من عمل ينصف هذه الفئة.
- الوظائف التي قام بها الأسرى الأوربيون بالسوس هي الأخرى ما تزال بحاجة إلى من يضعها تحت مجهر البحث المتأني و الرزين.
- أدوار العبيد(البيض و السود) في المجتمع الحضري بالسوس تتطلب فحصا يتناولها من كل الجوانب.
- تاريخ ومكانة الحراطين في مدن ومراكز السوس ليست بالوضوح الذي من شأنه تبيين نوعية و حجم الأدوار التي أنيطت بهم و تفسير ذلك.
- حدود مساهمة الأندلسيين على قلتهم في إفادة السوس من الخبرات التي حملوها من موطنهم الأصلي هي الأخرى بحاجة إلى إثبات أو نفي.
- لازالت هناك بعض المواضع بكر ترتبط بالفئات المهمشة في الكتابات التاريخية ، وتحتاج إلى تناول مستفيض مثل النساء والأطفال: وضعيتهم بين باقي الشرائح الاجتماعية ، ومشاركتهم الإيجابية في صنع الأحداث ، والعبء الكبير الذي تحملوه على مر الأحقاب و العصور باعتبارهم أكبر ضحايا الأحداث التاريخية.
- الحركية و الدينامية البشرية بحواضر السوس وجدلية التنقل والاستقرار لدى أهلها لم تطرق من زاوية علاقة الحضارة بالبداوة و تأثير إحداهما على الأخرى.

على المستوى المعماري

- مسألة تأثير العمارة الإيبيرية في العمارة السوسية تفتقر إلى الأدلة الكافية وتحتاج إلى تقصّ أكبر من أجل البث فيها.
- العمارة السوسية غنية بزخارفها وعناصرها الفنية التي تستحق دراسة منفردة تحيط بالموضوع من جميع أطرافه.
- ظاهرة المدن المندرسة ذائعة بكل جهات السوس ، نذكر منها على سبيل المثال: إيجلي .نول .تكاوصت .تييوت .تيدسي... مما يقتضي البحث عن أسباب هذا الاندراس و إمكانيات تحديد مواضع هذه المدن والسبل الكفيلة بنفض تراب النسيان عنها وعن أنقاضها.
- قضية حفظ التراث المحلي ، القائم من الضياع ، وإنقاذ المتلاشي والمهمل. فالسوس حافلة بالعديد من المواقع الأثرية إلا أن المصنّف منها ما زال قليلا جدا بالنظر لما هو موجود.
- مسألة إنجاز مسح أركيولوجي لمنطقة السوس و تنظيم عمليات تنقيب أثري واسعة تعد مطلبا ملحا بالنظر إلى العدد الهائل من المواقع الأثرية التي تزخر بها المنطقة.

و في الختام فإن العناصر أعلاه ليست هي كل ما يمكن استنتاجه من هذه الدراسة، وإنما تمثل أهم ما استدعت الضرورة استحضاره. كما تبقى هذه الأطروحة مجرد مساهمة متواضعة في دراسة القضايا الحضرية التاريخية بإحدى جهات المغرب الأقصى.



أولاد الناس بمجتمع عصر سلاطين المماليك

الملف

Respectable People In The Society of Mamluk Sultans Era

د.نهلة أنيس محمد مصطفى
أستاذ التاريخ الاسلامي المساعد
كلية الدراسات الانسانية – جامعة الأزهر
القاهرة – جمهورية مصر العربية
dr_na_mostfa@hotmail.com

▪ الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
نهلة أنيس محمد مصطفى ، أولاد الناس في مجتمع عصر سلاطين المماليك.-دورية كان التاريخية.-العدد الخامس ؛ سبتمبر٢٠٠٩.ص ٩٣ -١٠٣. (www.historicalkan.co.nr)

أولاد الناس في الحياة السياسية والإدارية

تمتعت مصر والشام بين دول العصور الوسطى في الشرق والغرب بمكانة مرموقة خلال عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) بل يمكن القول أن المماليك شكلوا قوة عالمية عظمى ذات مكانة متفردة إذ تبوأت زعامة العالم الإسلامي سياسيا وثقافيا وحضاريا ، ويعود ذلك إلى أن مصر كانت تملك معطيات الزعامة التي تجعلها قوة سياسية وعسكرية يخشى جانبها ، ويمكن القول أن مصر تمتعت باحترام القوى السياسية المعاصرة لها والتي كانت تخطب ود سلاطين المماليك ، وذلك بسبب وجود الخلافة العباسية في القاهرة ، والكيان العسكري الكبير الذي شكلته قوة المماليك الحربية آنذاك.

ومع ما شكلته هذه الدولة من بناء سياسي كبير إلا أنها اشتملت على بناء اجتماعي متباين وطبقات شعب متعددة شغل السلطان المملوكي والأمراء المماليك الطبقة العليا فيها ثم تبعهم بقية طبقات الشعب المصري ، وكان طبيعياً أن يحتل هؤلاء المماليك أعلى وظائف الدولة ، أما حياتهم الاجتماعية فقد كانوا منعزلين نسبيا عن المجتمع الذي حكموه وظلوا لسنوات عديدة ومنذ نشأتهم لا يشاركون في الحياة الاجتماعية المصرية إلا من خلال المواكب السلطانية والأعياد الدينية والاحتفالات ، ومنذ عصر السلطان الظاهر برقوق بدأ المماليك ينزلون من طباقات القلعة ويسكنون القاهرة ويتزوجون من المصريات.

أما أبناء المماليك الذين ولدوا في مصر ولم يمسهم الرق منذ عُرفوا في مصطلح ذلك العصر باسم (أولاد الناس) وكانت مكانتهم الاجتماعية أدنى من الأمراء المماليك ، فهم فئة خرجت من قلب طبقة المماليك لتصبح فئة من فئات الشعب المصري في العصر المملوكي.

ويرجع اهتمامي للبحث والتنقيب في أخبار هذه الفئة إلى أسباب عدة.

- تبعثر أخبار هؤلاء أولاد الناس في المصادر المملوكية وعدم التركيز على أحوالهم بل كانت أخبارهم شذرات بسيطة تضئ أحيانا الطريق في وسط الكم الهائل من الأخبار التي تتناول الأحداث السياسية.
- عدم تركيز الدراسات التاريخية الحديثة على أولاد الناس بوصفهم فئة عاملة من فئات الشعب المصري ، وكانت الإشارة إليهم تأتي في سياق الحديث عن طبقة المماليك ، فقد ذكرت بعض لمحات بسيطة عن حياتهم في مؤلفات لأساتذة أفاضل قاموا بدراسة التاريخ الاجتماعي لمصر المملوكية.
- تعرض فئة أولاد الناس في بعض الدراسات لكثير من الغُبن الذي أصابهم وعرفوا بأنهم كانوا مترفين ينعمون بحياة هادئة وسعيدة وتربوا في حجور النساء (أو حجر السعادة) وأنهم لم يقدموا لمصر بمقدار ما أعطتهم ولم يشاركوا في الذود عنها وغير ذلك من الاتهامات التي قُذفوا بها وأصبحوا في موضع الاتهام سواء في بعض الكتابات العربية أو الإفرنجية.

أولاد الناس ومشاركتهم في الحياة السياسية والإدارية

قد ظهرت دراسات كثيرة تناولت دراسة تاريخ الدولة المملوكية - ونحن لهم تبع في ذلك- في كافة جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتناولوا المماليك من السلاطين والأمراء والأجناد من حيث نشأتهم وتكويناتهم العرقية وإقامتهم لسلطنتهم على أنقاض الدولة الأيوبية وكذلك بناء المجتمع المصري . وأهمية طبقة المماليك في تشكيل هذا المجتمع باعتبارهم قد عاشوا فيه كطبقة ممتازة منفصلة عن سائر السكان في البلاد ، الأمر الذي ساعد على قيام مجتمع مملوكي يقوم على النظام الطبقي ، وضحت فيه معالم وسمات كل طبقة على حده ، ومن هنا شُغل كثير من المؤرخين القُدامى منهم والمحدَثين بدراسة المجتمع المصري في العصر المماليكي للتعرف على هذه الطبقات التي شكلت البناء الاجتماعي خلال تلك الفترة .

وما يعنينا في سياق هذه الدراسة هم المماليك من السلاطين والأُمراء بشكل عام وأولادهم بشكل خاص ، فقد اصطلح على تسمية أبناء المماليك بلقب " أولاد الناس " ، وقد اشترك في هذا اللقب أبناء السلاطين وأبناء الأمراء ، غير أن أبناء السلاطين تميزوا عن الأخيرين بلقب الأسياد وأولاد الناس هؤلاء لم يمسهم الرق وعاشوا وتربوا في بيوت الإمارة والنعمة لا على طريقة المماليك في الطباق والتربية الحربية الخشنة ، وكوَّنوا بذاتهم فئة من فئات طبقة المماليك كان لها دورها في كثير من مناحي حياة المجتمع المملوكي بكافة جوانبه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية .

قسم المؤرخون الأمراء المماليك إلى طبقات ذات مراتب عسكرية وكان لكل مرتبة وظيفة يقوم صاحبها بالاطلاع بمهامها ، وله إقطاع ينعم به السلطان عليه حتى يستطيع القيام بهذه المهام .

فالطبقة الأولى من الأمراء : أمراء المئين ومقدمي الألوف ويقوم في خدمتهم مئة فارس يكونون في خدمة جيش السلطان إذا ما دق نفير الحرب . ويبلغ عدد الأمراء المئين في الجيش المملوكي وفقاً لما جاء في الروك الناصري أربعة وعشرون مقدما غير أن هذا العدد نقص في عهد السلطان الظاهر برقوق بسبب توفير بعض الإقطاعات ، فأصبح عدد المقدمين ما بين ثمانية عشر وعشرون مقدماً ، ويمثل هؤلاء في الوظائف السياسية العليا في السلطنة المملوكية.

والطبقة الثانية من الأمراء: هم أمراء الطبلخاناة ويقوم في خدمتهم أربعين فارساً يكونون في خدمة جيش السلطان ، وربما زاد عددهم إلى خمسين أو سبعين أو ثمانين كل أمير حسب إقطاعه وذلك بشرط ألا يقل عدد فرسان أمير الطبلخاناة عن أربعين فارساً وعدد أمراء الطبلخاناة في السلطنة المملوكية ليس له حد معين ، وهم أصحاب الرتبة الثانية من أرباب الوظائف السلطانية.

أما الطبقة الثالثة من الأمراء: فهم أمراء العشرات ، وربما وجد بين هذه الطبقة من هم أمراء عشرين فارساً ، ولكنهم يعدون من جملة طبقة أمراء العشرات ، ولا عدد محدد لأمراء هذه الطبقة بل تزيد وتنقص حالها كحال طبقة الطبلخاناه ، ومنها يكون أرباب الوظائف الصغيرة

والطبقة الرابعة من الأمراء المماليك: أمراء الخمسات وعدة كل أمير منهم خمسة مماليك يذهب بهم إلى جيش السلطان ، وأهم ما يشكل قوام هذه الطبقة هم الأمراء أولاد الأمراء "المندرجين بالوفاة رعاية لسلفهم وهم في الحقيقة كأكابر الأجناد" وأطلق المؤرخون للسلطنة المملوكية عليهم اسم طبقة أولاد الناس .

ومن الممكن القول أن هذه الطبقة من المماليك لم تظهر إلا بعد جيل على الأقل من قيام الدولة المملوكية ، حيث نلحظ ذلك بوضوح في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وعهود ، أبنائه وأحفاده ، إنما لم يرتفع شأنهم إلا في عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون بعد أن تخلص من خصميه الأميرين الكبيرين شيخون العمري وصرغتمش عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م . فأخذ في ترقية أولاد الناس إلى الرتب العالية ، لا محبة لهم بل كان يقول " هؤلاء مأمونوا العاقبة وهم في

طي علمي، وحيث وجهتهم إليه توجه ،وإن أحببت عزلهم أمكنني ذلك بسهولة وفيهم أيضاً رفق بالرعية"

أولاد الناس من أرباب السيوف في السلطنة المملوكية

من المعروف تاريخياً أن أرباب السيوف في سلطنة المماليك هم الأمراء على أقسامهم من أمراء مئين وأمراء طبلخاناة وأمراء عشرات وخمسات ، وبالبحث في كتب المصادر المملوكية الكثيرة أدركنا أن أولاد الناس قد شغلوا العديد من هذه الإمارات ، فقد أُعطي أولاد الناس الجوامك ومُنحوا الإمرات المختلفة بإقطاعاتها، ولِنتناول كل إمرة على حده حتى نوضح مدى تواجد أولاد الناس بها .

أولاً: أمراء المئين ومقدمي الألوف.

اعتبر أمراء المئين ومقدمي الألوف من أسمى المراتب العسكرية في جيش السلطان المملوكي ، ولأن المماليك لا يرقون إلى هذه الرتب العالية والمقام الرفيع إلا بعد أن يمروا بمراحل طويلة منذ شرائهم إلى أن يدخلوا الطباق

ونظام الترقية إلى هذه الإمارات في الجيش المملوكي لم يخضع لقاعدة ثابتة فيبدو أن هناك طريقين للترقية ، الأولى وهي الطريقة العادية حيث يندرج المملوك في الترقي الطبيعي من رتبة إلى الأعلى منها، فبعد تدريبه في الطباق على أعمال الفروسية كالرمي بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل ، ثم يدرج بعد ذلك في الجامكية ويكون راتبه من ثلاثة إلى سبعة دنانير في الشهر فإذا ما وصل إلى درجة الفروسية وبلغ مبلغ الرجال أعتقه السلطان، وأخرج له خيلاً وقماشاً وجعله أمير خمسة بإقطاع ووظيفة لائقة ، ثم يرقى بعد ذلك في رتب الإمرة إلى أن يصل إلى أمير مئة ومقدم ألف وربما أصبح سلطاناً ، والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ دولة المماليك ، مثل السلطان المؤيد شيخ المحمودي.

أما الطريقة الثانية والذي أطلق عليها د. إبراهيم طرخان طريق الطفرة فكان يمكن للأمير أن يرقى من رتب الجندية أو أمير عشرة إلى أمير مئة دفعة واحدة ، مثال ذلك السلطان برقوق الذي رُقيَّ من الجندية إلى إمرة أربعين دفعة واحدة.

غير أن أولاد الناس قد وصل البعض منهم إلى إمرة مئة وتقدمه ألف دون التدرج الطبيعي الذي كان يلزم هذه المرتبة العسكرية ، وكان شفيعهم في ذلك عدة أسباب:

١) إما لكونهم أبناء سلاطين (أسياد). ومن الأمثلة على ذلك من الأسياد الأمير آنوك بن الناصر محمد بن قلاوون عندما أمره أبوه مئة وقدمه على إخوته بالرغم من كونهم " أسن منه " ، وفي دولة الجراكسة ، أمر السلطان الظاهر جقمق العلائي ابنه المقام الفخري عثمان بن جقمق أمير مئة.

٢) وإما لقربهم من السلطان عن طريق القرابة أو المصاهرة أو محبة السلطان لبعض أولاد الناس ، ومن الأمثلة على ذلك الأمير أحمد بن بُكتُمر الساقي الذي كان شديد القرب من السلطان الناصر محمد بن قلاوون

٣) وإما لكونهم أبناء أمراء ومدبري مملكة ، ومنهم ابن الأمير طشتمر حمص أخضر في عهد الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون ،

٤) والسبب الأخير لمهاراتهم وكفائتهم فيما أسدى إليهم من وظائف ، مثال ذلك : تأمير الأمير محمد بن أمير سلاح بكتاش الفخري في عهد السلطان قلاوون بسبب أنه اشترك رغم صغر سنه في محاربة الأمير سنقر الأشقر الذي خرج عن طاعة المنصور قلاوون وأعلن نفسه سلطاناً بدمشق والأمير ناصر الدين محمد بن رجب بن كلفت التركماني الأصل والذي ترقى في عدة مناصب ديوانية حتى وصل إلى الوزارة فأنعم عليه السلطان برقوق بإمرة مئة وتقدمه ألف .

(أ) الأسياد

ترقى العديد من أبناء السلاطين إلى رتبة أمير مئة ومقدم ألف وجلس البعض منهم في مرتبة أتابك العساكر وهي المرتبة العظيمة التي تعد أهم مراتب الجيش المملوكي .

في دولة السلطان الناصر محمد بن قلاوون قلد ابنه الأمير آنوك إمرة مئة وكان مقدماً عند أبيه عن سائر أخوته ، ولم يرقى أحد منهم إلى هذه المرتبة ، غير أن هذا الأمير لم ينعم بما وصل إليه ، ومرض ومات في عام ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩م.

ومن أولاد الأسياد أبناء السلاطين ، الأمير إبراهيم بن المؤيد شيخ المحمودي ، بلغ هذا الأمير من الأهمية في دولة أبيه بمكان ، فقد جرده أبوه على رأس حملة إلى القبائل التركمانية في شمال الشام عام ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م ولم يَعُد إبراهيم إلى مصر إلا بعد أن أحرز نصراً مؤزراً على هذه القبائل ، وضم إلى دولة المماليك بعض المناطق الجديدة وسك العملة باسم المؤيد شيخ.

وأعطي الأشرف برسباي ابنه المقام الجمالي يوسف إمرة مئة وتقدمه ألف وعلى قول أبي المحاسن أنه كان " أعظم مُقدمي الألوف " وكان الجمالي يوسف ابن السلطان ينوب عن أبيه أثناء سفره في قلعة الجبل.

(ب) أولاد الأمراء

تميز العديد من أولاد الناس بترقيهم إلى رتبة أمرة مئة وتقدمه ألف في سلطنة المماليك ، ورعى بعض سلاطين المماليك أولاد الناس رعاية كبيرة، وقربوهم إليهم سواء في دولة المماليك البحرية أو البرجية فظهر لنا جملة من أولاد الناس في عهد الناصر محمد بن قلاوون، والناصر حسن بن محمد بن قلاوون والأشرف شعبان بن حسين، وكذلك في عهد الظاهر برقوق، والناصر فرج بن برقوق ، والظاهر ططر، والظاهر جقمق وعد أبو المحاسن ترقية ططر لبعض أخصائه إلى الرتب العالية من حسن فطنته وقوة جنانه.

ثانيا :أمراء الطبلخاناة

أ:الأسياد

ترقى بعض أولاد الناس من الأسياد إلى رتبة طبلخاناة في جيش السلطنة المملوكية ، فمن جملة أولاد السلاطين ، تأمير السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعض أولاده إمرة طبلخاناة منذ عام ٧٣١هـ/١٣٢١م أمر السلطان إحضار ابنه احمد من الكرك. حيث كان أُخرج إليها، وخلع عليه إمرة طبلخاناة، أمر معه ثلاثة أمراء عشرات دفعة واحدة وفي عام ٧٣٥-٧٣٦هـ/١٣٣٤-١٣٣٥م أعاد السلطان الناصر محمد ولديه أبو بكر وإبراهيم إلى القاهرة من الكرك وأمرهما كل واحد إمرة طبلخاناة، ولم يسم أحد منهما بملك بل كان الناس يقولون "سيدي إبراهيم وسيدي أبا بكر على عادة الأسياد".

ومن الجدير بالملاحظة أن أربعة من الأسياد أولاد الناصر محمد بن قلاوون تقلدوا منصب السلطنة ولم يرقوا إلي رتبة أمير مئة ومقدم ألف، بل ترقوا فقط إلى رتبة طبلخاناة وهم الأسياد المنصور أبو بكر والناصر احمد والكامل شعبان والمظفر حاجي.

(ب) أولاد الأمراء

أما أولاد الناس من أبناء الأمراء الذين كانوا من جملة أمراء الطبلخاناة فذكرت لنا المصادر العديد منهم طوال تاريخ سلاطين المماليك، فقد شاركوا مشاركة فاعلة في مناصبهم التي رقوا إليها، ولنحاول تتبع هؤلاء الأمراء لنقف على مدى مشاركتهم هذه.

في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الأولى، كان زين الدين كتبغا نائب السلطنة وصاحب السلطة الفعلية في البلاد. فرقي بعض خواصه إلى إمرات بإنعام من السلطان، فكان من بينهم ابنه آنص الذي رُقي إلى إمرة طبلخاناة ،وعندما استطاع السلطان الناصر الانفراد بأمور السلطنة عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م وطوال فترة حكمه نراه ينعم على جملة من أولاد الناس أبناء الأمراء بإمرات مختلفة منها إمرة طبلخاناة، فممن رُقي إلى هذه الرتبة العسكرية في عهده، الأمير ناصر الدين محمد بن أرغون النائب المتوفى عام ٧٢٧هـ/١٣٢٦م. وأيضا عندما توفي الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري وورد الخبر بموته في عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧بالمراغة من إقليم أذربيجان، انعم السلطان على ولده الأمير علي بن قرا سنقر بإمرة طبلخاناة أبقاه على عادته في دمشق.

أما في دولة المماليك الجراكسة فقد رُقي بعض أولاد الأمراء إلى رتبة إمرة طبلخاناة ويعتبر العصر الجراكسي امتداد للعصر التركي في الدولة المملوكية لان جملة من الأمراء الجراكسة من مقدمي الألوف والأتابكة ونواب السلطنة هم الذين كانوا مسيطرين على مقدرات أحوال أحفاد الناصر محمد بن قلاوون، ونجد في هذه الحقبة تواجد لا بأس به بين الأمراء المماليك من أولاد الناس من أبناء الأمراء بل إننا لم نلحظ أن عدد من الأحفاد قد ظهر في فئة أولاد الناس، وولي إمرات في عهد أحفاد الناصر من هؤلاء، الأمير ناصر الدين محمد بن محمد بن تنكز نائب الشام الذي أمر طبلخاناة في عهد الأشرف شعبان واستمر إلى عهد السلطان برقوق. ومنهم الأمير ناصر الدين محمد بن جُمق بن الأمير الكبير أيتمش البجاسي الذي كان من أمراء الطبلخاناة وتوفي في عام٧٩٨هـ/١٣٩٥م. في عهد السلطان الظاهر برقوق.

ثالثا: أمراء العشرات

تأتي رتبة أمراء العشرات في الدولة المملوكية في المرتبة الثالثة من الأمراء أرباب السيوف، ويصل عدد من أولاد الناس إلى هذه المرتبة في الدولة المملوكية بعصريها التركي والجر كسي.

في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون رقي عدد من أولاد الناس أبناء الأمراء إلى رتبة أمير عشرة، في عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م وبعد وفاة الأمير قراسنقر المنصوري انعم السلطان على ولده" الأمير فرج بن قراسنقر بإمرة عشرة"ورسم بسفره من القاهرة إلى دمشق، وفي نفس العام توفي الأمير سيف الدين بكتمر الحسامي المعروف بالحاجب، فأنعم السلطان على ولده ناصر الدين محمد بإمرة عشرة مع انه لم يكن تجاوز الثالثة عشر من عمره.

ومن الأمراء العشرات في دولة الظاهر برقوق الأمير ناصر الدين محمد بن بزلار، والأمير حسام الدين حسن بن الأمير علاء الدين علي بن سيف الدين قشتمر ولم يتأمر من أبناء الأمير على بن قشتمر غيره. وفي عام ٧٩٥هـ/١٣٩٢م قلد السلطان برقوق الأمير موسى بن قماري أمير شكار إمرة عشرين زيادة على ما كان بيده من إقطاع عشرة، وكذلك انعم في عام ٧٩٦هـ/١٣٩٣م بإمرة عشرين على الأمير شهاب الدين احمد بن الوزير ناصر الدين محمد بن رجب بن كلفت وأقر الأمير خضر بن عمر بن احمد بن بكتمر الساقي على ما كان بيده من إمرة عشرة بالرغم من أن الذي قلده الإمرة الأمير منطاش، وقلد الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير شرف الدين موسى بن أرقطاي إمرة عشر، وكذلك الأمير موسى بن أبي بكر بن سلار، وانعم في عام ٨٠٠هـ/١٣٩٧م على الأمير محمد بن قلمطاي بإمرة عشرة وكذلك من جملة أمراء العشرات الأمير علي بن بلاط الفخري، الأمير احمد بن أرغون شاه الأشرفي، والأمير خليل بن دنكز بغا.

رابعاً: أجناد الحلقة

وأجناد الحلقة في دولة سلاطين المماليك هم أول أقسام الجيش المملوكي كما حدد ذلك أبو المحاسن بقوله (قسم يقال له أجناد الحلقة وموضوعهم أن يكونوا في خدمة السلطان، ولكل منهم إقطاع في أعمال مصر، وكل ألف منهم مضافة إلى أمير مئة ومقدم ألف، ولهذا المعنى سمي الأمير بمصر أمير مئة، اعني صاحب مئة مملوك في خدمته ومقدم ألف من هؤلاء أجناد الحلقة).

هذا وعرف من خلال دراسة تكوين الجيش المملوكي أن قوام جند الحلقة يؤلف من المقاتلين الأحرار من أبناء المماليك الذين عرفوا في مصطلح ذلك العصر باسم أولاد الناس، والمماليك، والتركمان، وبعض المصريين الذين انضموا للجيش، ومناشير إقطاع هذا القسم من الجند تصدر من السلطان مباشرة وتراوحت قيمة إقطاع مقدم الحلقة ما بين ألف وألف وخمس مئة دينار في السنة ومتوسط قيمة إقطاع الجندي مئتان وخمسين ديناراً في السنة. ومن الممكن أن يشترك عدد من أجناد الحلقة في الإقطاع الواحد، أما من لم يكن منهم له إقطاع فتصرف رواتبهم من ديوان الجيش والبعض من المؤرخين يصفهم بأنهم اقرب الأقسام شبه إلى نظام الجيش في العصور الحديثة، فهم جيش الدولة الذي لا يتغير بتغير السلطان، ويشرف على كل ألف منهم أحد أمراء المئين، ولكل مئة منهم نقيب(باشا) ولكل أربعون مقدماً

ورد في المصادر أسماء بعض أولاد الناس من أجناد الحلقة مثل احمد بن كشتغدي بن عبد الله المعزي، ذكره ابن حجر" من أجناد الحلقة من أهل الخير والعفاف والوقار"وذكر كذلك فرج بن طوغان أحد مقدمي الحلقة.

وبهذا العرض يتبين لنا أن فئة أولاد الناس قد مثلت في الجيش المملوكي في طبقة الأمراء أرباب السيوف وكان لهم تواجد في كافة أقسامها من أمراء المئين ومقدمي الألوف، وأمراء الطبلخاناة، وأمراء العشرات حتى في طوائف قسم أجناد الحلقة، وبالرغم من انه لم يكن هناك توضيح مفصل لأحوال أولاد الناس في جند الحلقة إلا ما ساقه لنا ابن إياس في الجزء الرابع من بدائعه وتتبعه لأحوال أولاد الناس، وذلك باعتباره واحداً منهم وما ألم بهم من عسف السلاطين المتأخرين في دولة سلاطين المماليك وكذلك وضح كيفية مشاركتهم في الحملات التي كانت تخرج إلى جدة أو حلب أو لملاقاة بني عثمان، وهذه المشاركة إما أن تكون فاعلة فيخرجون بأنفسهم في الأطلاب المسافرة، أو يدفعون أموالا ليخرج بدلاً عنهم، وهذا ما سوف نوضحه بشكل أدق في الصفحات التالية من هذا الفصل.

أولاد الناس في الإدارة المملوكية

اهتم سلاطين المماليك بإدارة شؤون السلطنة المملوكية اهتماما كبيراً، وانسحب ذلك على النظم الإدارية المملوكية التي بلغت درجة عالية من الدقة الإحكام بسبب وجود إدارة مركزية في القاهرة، تقوم عليها عدة دواوين بها كبار موظفي الدولة، وإدارة محلية تشرف

على أقاليم السلطنة يترأسها مجموعة من النواب والولاة ، وكل هؤلاء يعملون بتوجيه تام من السلطان المملوكي.

أولاً: وظائف أرباب السيوف

أ. من هو بحضرة السلطان المملوكي

شارك الأمراء أرباب السيوف في عدة وظائف في الدولة ، كلها أسهمت في إدارة النظام الإداري للسلطنة بشكل ابرز الجهاز الإداري كنظام متكامل ، حيث وجدت إدارة مركزية مقرها القاهرة ، وعمادها مجموعة من الوظائف وكبار موظفين تمثلوا في الوظائف التالية:

(١) نائب السلطنة يأتي حسب ترتيب القلقشندي على راس قائمة الوظائف السلطانية باعتباره وكيل السلطان وساعده الأيمن في تصريف شئون الدولة ، ويشترك مع السلطان في إصدار القرارات ومنح الألقاب والإقطاعات والمناشير ومن سلطته تعيين كبار الموظفين ومن هنا اتخذ لقب"كافل الممالك الإسلامية"والنيابة في دولة سلاطين المماليك على نوعين ، نائب الحضرة ، وهو الذي ينوب عن السلطان في أعماله مع وجود السلطان في القاهرة ، ونائب الغيبة وهو اقل درجة من الأول وينوب عن السلطان أثناء غيبته خارج الديار المصرية

وبالنسبة لأولاد الناس من أبناء الأمراء فلم تمدنا المصادر المملوكية بمعلومات تفيد تولي أحد منهم هذا المنصب إلا ما ذكره المقريزي في حوادث عام٧٦٢هـ/١٣٦٠م. وهي الأحداث الخاصة بمقتل السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، حيث "أقيم الأمير شرف الدين موسى بن الأزكشي نائب الغيبة"وكان يشغل في ذلك الوقت منصب إستادار العالية. ولم نعثر على نص آخر يفيد أن أحد من أولاد الناس تولى وظيفة نيابة السلطنة أو نيابة الغيبة.

(٢) الأتابكية: أما الأتابكية فهي الوظيفة الثانية من جملة وظائف الأمراء أرباب السيوف ، فلم تذكر المصادر أي معلومات تدل على تولي أحد من أولاد الناس هذه الوظيفة ، إلا ما جاء في حوادث ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ، عندما أشيعت الأخبار أن السلطان إينال العلائي ولى ابنه الشهابي احمد في الأتابكية عوضا عنه بعد سلطنته ، ولعدم رضا كبار الأمراء عن هذه الترقية رأى الأشرف إينال الرجوع في اليوم التالي عن قراره في تولي الشهاب احمد ، وخلع على الأمير تنبك البُرْدَبكي هذا المنصب ، واصبح أتابك العساكر ، وفي أحداث عام ٨٦٢هـ/١٤٥٧م وبعد وفاة الأمير تنبك البُرْدَبكي ، خلع مرة أخرى على الشهابي احمد بن إينال أولاد واستقر في أتابكية العساكر وظل بها إلى أن قلد السلطنة فى ٨٦٥هـ/١٤٦٠م.

(٣) رأس النوبة: وهي أهم ثالث وظيفة بعد الأتابكية ، وبعد البحث في المصادر عمن تقلد هذه الوظيفة من أولاد الناس لم نجد إلا ما أشار إليه ابن إياس في وفيات عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م حيث ذكر وفاة "الشهابي احمد بن الأمير تَمُر باي راس نوبة النوب وكان قد كبر وشا خ وقارب التسعين سنة من العمر".

ولعل سبب عدم تولي أولاد الناس هذه المناصب الثلاثة الهامة في السلطنة المملوكية يرجع لشغل هذه المناصب من قبل الأمراء الكبار في الدولة ، وخاصة المماليك الأجلاب والسلطانية ، وقصر الوظائف الهامة عليهم وعلى خشداشية السلطان .

(٤) إمرة مجلس: ويأتي ترتيب وظيفة إمرة مجلس في الترتيب الرابع للقلقشندي وبرز غير واحد من أولاد الناس أبناء الأمراء في هذه الوظيفة منهم ، الأمير خليل بن قوصون في عهد السلطان الأشرف شعبان ، وكان الأمير خليل قد تولى إمرة مجلس عوضاً عن الأمير عشقتمر الماردينى بحكم انتقاله إلى نيابة حلب. وتولاها أيضا الأمير أحمد بن يلبغا العمري أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية ، وعندما تولى السلطان الظاهر برقوق ولاه إمرة مجلس لكونه ابن أستاذه يلبغا الخاصكي وكان معظما في دولة الظاهر برقوق .

وتولى أيضاً إمرة مجلس الأمير صارم الدين ابراهيم بن الأمير سيف الدين قطلو أقتمر عندما أنعم عليه بها الأمير منطاش عوضاً عن الأمير أحمد بن يلبغا بعدما أنضم للناصري وقبض عليهما منطاش وسجنهما

(٥) إمرة أخورية: وهي كذلك من الوظائف الهامة في سلك الإدارة المملوكية ، فلم نعثر إلا على أمير واحد من أولاد الناس تقلد هذا المنصب ، وهو الأمير سيف الدين اسَنْبُغا بن بكتمر الأبوبكري ،((وهو من عظماء أمراء الديار المصرية)) وكان خصيصا عند السلطان الناصر محمد وولاه إمرة طبلخاناة ، ثم ترقى بعد مدة إلى أن ولي الأمير آخورية الكبرى للسلطان حسن بن الناصر محمد.

(٦) الحجوبية: من الوظائف التي تولاها العديد من أولاد الناس أبناء الأمراء بأقسامها المختلفة ، وقد شغل غير واحد من الأمراء منصب حاجب الحجاب ، ففي سلطنة السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجي٧٦٢-٧٦٤هـ/١٣٦٠-١٣٦٢م. تقلد الأمير اسُنْبُغا بن بكتمر الايوبكري حاجب الحجاب عام ٧٦٣هـ/١٣٦١م.

كذلك استقر عدد من أولاد الناس في الحجوبية الثانية منهم الأمير حمال الدين عبد الله بن بكتمر الحسامي في عام٧٧٩هـ/١٣٧٧م واستقر بها حتى قلد عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م حاجباً ثالثاً ، وقد وصفه أبو المحاسن بأنه من جملة الأمراء" الطبلخانات بالديار المصرية وحاجبا بها". ووصف الأمير شهاب الدين أحمد بن الأمير سيف الدين الحاج آل ملك انه من جملة الحجاب في القاهرة بعد عودته من مباشرة نيابة غزة على إمرة مائة وتقدمة ألف فاستقر بالقاهرة على إمرة أربعين.

أما من وُصف في المصادر بكونه أحد الحجاب ، أن تولى الحجوبية ، أو من الحجاب الصغار جملة من أولاد الناس هم ، الأمير ناصر الدين محمد بن جلبان الحاجب ،والأمير ناصر الدين محمد بن أرغون الماردينى"ولي الحجوبية" والزيني فرج بن بروبك السيفي" أحد الحجاب" بالديار المصرية ، والأمير شهاب الدين احمد بن الأمير ناصر الدين محمد بن رجب "أحد الحجاب الصغار بها"

(٧) الإستدارية: من الوظائف الهامة التي تولاها عدد من أولاد الناس أبناء الأمراء في سلك وظائف أرباب السيوف في السلطنة المملوكية ، ومن الذين تولوا هذا المنصب الأمير شرف الدين موسى بن الأزكشي ، إستادار العالية في عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، وفي عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م انعم السلطان الأشرف شعبان بن حسين على الأمير ناصر الدين محمد بن آقبغا آص بتقدمة ألف ، واستقر أستاداراً وفي عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م أثناء فتنة منطاش ويلبغا الناصري ، تولي الأمير حاج بن مغلطاي الحاجب أستادار السلطان المنصور حاجي ، وكان غير واحد في عهد السلطان برقوق من أولاد الناس تولى الإستدارية منهم الأمير ناصر الدين محمد بن سنقر البكجاوي وكان امير خمسين. والأمير عمر بن محمد بن قايماز وظل يتناوب الإستدارية مع سعد الدين بن غراب في عهد الناصر فرج بن برقوق حتى عام٨٠٧هـ/١٤٠٤م.

هذا وكانت تفصل إستدارية الأملاك والذخيرة أحيانا عن الإستدارية العالية بأن يتولاها أمير من الأمراء ، ومن أولاد الناس أبناء

الأمراء الذين تولوا هذه الوظيفة الأمير ناصر الدين محمد بن سنقر عندما عزل عن الإستدارية والأمير يلبغا المجنون، واستقر استادار الأملاك والذخيرة ، والأمير صلاح الدين محمد ابن تنكز الذي تولى إستدارية الذخيرة ثم خلع واستقر مكانه الأمير علاء الدين علي ابن الطبلاوي في عام ٧٩٩هـ/١٣٩٦م على عهد السلطان برقوق، وتولى إستدارية الأملاك والذخيرة أيضا الأمير يونس بن عمر بن جرنجا.

(٨) شاد الشراب خاناة: أما وظيفة شاد الشراب خاناة فلم نعثر على كثير من أولاد الناس تولوا هذه الوظيفة إلا ما ذكر في بدائع الزهور خلال أحداث عام ٩٠٧هـ/١٥٠١م في الرابع عشر من رجب خلع السلطان قانصوه الغوري على " ولده المقر الناصري محمد وقرره في شادية الشراب خاناة عوضاً عن آقباي الطويل بحكم وفاته " وكان ولد السلطان حديث السن.

قد تولى بعض أما العشرات شادية الشراب خاناة للأمراء الكبار فورد خبر عن الأمراء احمد بن نوروز شاد الأغنام والذي تولى شادية الشراب خاناة للسلطان الظاهر جقمق عندما كان امير آخور السلطان الأشرف برسباي.

(٩) نقابة الجيوش: تعتبر وظيفة نقابة الجيوش من الوظائف التي تولاها عدد من أولاد الناس أبناء الأمراء في دولة سلاطين المماليك، ففي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٩هـ/١٣١٩م. تولى الأمير شهاب الدين احمد بن آقوش العزيزي المهمندار نقابة الجيوش بعد وفاة الأمير طيبرس الخازنداري، واستمر بها إلى أن خلعه السلطان الناصر عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م.

هذا وفي عام ٧٩٨هـ/١٣٩٥م أقر السلطان الظاهر برقوق الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير علاء الدين بن كلفت التركماني في نقابة الجيوش فظل بها إلى عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق. ولم نعثر على ما يفيد تولي أحد من أولاد الناس هذا المنصب غير ما ذكرنا.

(١٠) المهمندارية: وتلي وظيفة المهمندارية نقابة الجيوش في ترتيب الوظائف التي بحضرة السلطان، وبالبحث بالمصادر المملوكية، لم نجد أحدا من أولاد الناس أبناء الأمراء تولى هذه الوظيفة إلا الأمير محمد بن قاني باي اليوسفي في عهد السلطان الظاهر خشقدم، ولم يُعمر في هذه الوظيفة طويلا حيث غضب عليه السلطان لسببين: أولهما انه قام بفض مراسيم السلطان وعرف ما فيها والثاني انه كان أحد أصحاب جاني بك نائب جدّة"وانحط أمره عند الظاهر خشقدم"، ثم قويت علاقته بعد ذلك بالدوادار الكبير يشبك من مهدي ،وصار من أهم جلسائه.

(١١) شد الدواوين: وتأتي وظيفة شد الدواوين بعد المهمندارية في الوظائف السلطانية وأهمية هذه الوظيفة تكمن في كون صاحبها أداة للسلطان في المصادرات والقبض على المغضوب عليهم واستخلاص الأموال منهم وعقابهم ،فكثيرا ما وردت عبارات في المصادر تصف عمل شاد الدواوين مثل "وسُلّم لمشد الدواوين فعاقبه وشدد عليه العذاب"وكذلك " ومن خلال تعريف القلقشندي لها بقوله " أن يكون صاحبها رفيقاً للوزير متحدثا في استخلاص الأموال" دلالة أيضا على مدى ما تشكله من أهمية في سلك الوظائف الإدارية ولأهميتها لم تنسب إلى الوظائف الديوانية، وجعل صاحبها أمير عشرة.

وفي عام ٨٠٠هـ/١٣٩٧م تولاها الأمير بلبان واستمر بها إلى عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م فخلفه فيها الأمير أحمد بن خاص ترك البريدي شاد الدواوين، ثم عزل عنها في عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م " بحكم إقامته في دمشق"

(١٢) أمير طبر: من الوظائف التي شغلها بعض أولاد الناس فلم نستدل إلا على أربعة فقط ممن قلد هذه الوظيفة منهم في عام ٧٧١هـ/١٣٦٩م في عهد الأشرف شعبان بن حسين تولى الأمير ناصر الدين محمد بن قيران امير طبر عوضا عن الأمير شرف الدين موسى بن ديدار بن قرمان وكلاهما من أولاد الناس.

(١٣) إمرة شكار: صنف القلقشندي هذه الوظيفة في الترتيب الثانية والعشرين من الوظائف التي في حضرة السلطان، وقد شغلها عدد قليل من أولاد الناس على فترات متباعدة خلال العصر المملوكي، في عهد الناصر محمد بن قلاوون شغل الأمير شرف الدين الحسين بن أبي بكر بن جند ربك إمرة شكار، وكان محظوظا في الصيد فتقرب من الناصر وأعطاه تقدمة وعينية من هذه الوظيفة.

وفي عام ٧٩٥هـ/١٣٩٢م انعم السلطان برقوق على الأمير موسى بن قماري امير شكار بإمرة عشرة زيادة على عشرته المتولي بها إمرة شكار. وفي عهد الأشرف قانصوه الغوري، تولى إمرة شكار اثنان من أولاد الناس هما الأمير محمد بن أحمد بن أسنبغا الطياري، والأمير الناصري محمد بن القماري.

(١٤) حراسة الطير: وهي تلي إمرة شكار في ترتيب الوظائف، ولم نعثر إلا على خبر واحد يدل على أن أحد أولاد الناس تقلد هذه الوظيفة وذلك في حوادث ٧٤٥هـ/١٣٤٤م. حيث ذكر المقريزي أن ابن الأمير بيبغا الشمسي كان حارسا للطير في عهد السلطان الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون

(١٥) شد العمائر: بالبحث في المصادر لم نجد إلا خبرين فقط يشيران إلى تولى أولاد الناس هذه الوظيفة الأول عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م خلال عهد السلطان الأشرف شعبان ، حيث انعم على الأمير ناصر الدين محمد بن آقبغا آص بوظيفة شادية العمائر وفي أحداث ٧٩١هـ/١٣٨٨م ورد خبر بتقليد الأمراء خليل بن قرطاي شد العمائر

(١٦) الولاية: صنف القلقشندي وظيفة الولاية في المرتبة الخامسة والعشرين وقسم الولاة بالحاضرة إلى صنفين أولهما ولاية الشرطة، وهم المعروفون بولاة الحروب، وهي على ثلاثة أقسام بالقاهرة، الفسطاط(مصر)، والقرافة، والصنف الثاني ولاية القلعة وبدورهما ينقسمان إلى قسمين والي القلعة، ووالي باب القلة.

أ.ولاية القاهرة: وواليها يحكم في القاهرة وضواحيها وهي اكبر الأقسام الثلاثة وأعلاهم رتبة وعادته أمير طبلخاناة، وقد تولى ولاية القاهرة غير واحد من أولاد الناس أرباب السيوف، ففي عهد الصالح صالح بن محمد بن قلاوون، قلد الأمير ناصر الدين محمد بن بيليك المحسني ولاية القاهرة، ثم بعد عزله من ولاية القاهرة استقر عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م مشير الدولة، وجلس مع الوزير في قاعة الصاحب.

والأمير ناصر الدين محمد بن علي بن كلفت التركماني فقد استقر في ولاية القاهرة فترة، حيث قلد هذا المنصب عام ٨٠٤هـ/١٤٠٣م أضيف إليه أيضاً شد الدواوين كما ذكرنا آنفاً.

ب. ولاية الفسطاط(مصر): يحكم واليها في خاصة مصر على نظير ما يحكم والي القاهرة، وعادته أمير عشرة، وفي عهد القلقشندي أضيفت ولاية القرافة إلى والي الفسطاط وصار أمير طبلخاناة، ولكنه لا يبلغ مكانة والي القاهرة.

هذا وقد أخبرتنا المصادر المملوكية أن غير واحد من أولاد الناس تقلدوا أمر ولاية الفسطاط (مصر) فذكر المقريزي في وفيات عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م الأمير أمير على بن أمير حاجب" وكان والي مصر وأحد أمراء العشرات"، وفي عام ٧٧٩هـ/١٣٧٧م خلع على الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير قرابُغا الأناقي أحد العشرات واستقر في ولاية مصر.

جـولاية القلعة: وهي من الصنف الثاني من الولاية، وواليها أمير طبلخاناة، وله التحدث على باب القلعة الكبير حيث يخرج منه عامة العسكر في خروجهم ونزولهم وله النظر في غلقه وفتحه وغير ذلك. ولم نعثر من خلال المصادر إلا على الأمير صارم الدين إبراهيم بن بُلْرغي الذي تولى القلعة في فتنة منطاش والناصري.

وهكذا نرى ترقي عدد من أولاد الناس سواء من أولاد السلاطين(الأسياد)أو أولاد الأمراء في سلك الوظائف التي بحضرة السلطان المملوكي، وبالرغم من أن السمة السائدة في ذلك العصر هي عدم استقرار الأمير في وظيفته التي يرقى إليه بل وربما تصيبه مضرة بالغة مثل القبض عليه والمصادرات، وغضب السلطان، وأحيانا يلجأ الأمير إلى دفع براطيل وأموال حتى يلي الوظائف السلطانية.

ب.من هو خارج عن الحضرة السلطانية

ينقسم الأمراء الذين في وظائف أرباب السيوف خارج الحضرة السلطانية ثلاثة أقسام هم نواب السلطنة، والكشاف والولاة بالوجهين القبلي والبحري وقد شارك أولاد الناس من أبناء الأمراء في هذه الوظائف، وساهموا في إدارة المدن خارج الحضرة السلطانية، وسوف نحاول التعرف على مدى إسهاماتهم في ذلك.

أولاً: نواب السلطنة: نواب السلطنة في خارج الحضرة السلطانية هم نواب النيابات الكبرى في السلطنة المملوكية وما هو موجود منها بمصر ثلاث نيابات، نيابة الأسكندرية، نيابة الوجه القبلي ونيابة الوجه البحري، ومن النيابات الشامية، نيابة دمشق، وحلب، وحماة، وحمص، وطرابلس، وصفد، وبيت المقدس، وغزة وغيرهم من نيابات المملكة الشامية. وقد قصدنا ترتيب نواب السلطنة في النيابات المصرية أولا ثم النيابات في بلاد الشام. وذلك باعتبار أن مصر هي قاعدة حكم السلاطين المماليك.

١.نيابة الأسكندرية: الأسكندرية نيابة جليلة القدر تضاهي في قدرها نيابات طرابلس وحماة وصفد من النيابات الشامية، وقد رُتب بها كرسي سلطنة ونمجاة سلطانية توضع على الكرسي، ونائب الأسكندرية من الأمراء المقدمين، وقد تولى إمرة الأسكندرية منذ أن قررت فيها النيابة عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م عدد من أولاد الناس أبناء الأمراء، ففي عام ٧٧٩هـ/١٣٧٧م قرر السلطان المنصور علي بن الاشرف شعبان- والأمير الكبير في ذلك الوقت الأمير اينبك البدري الأمير علاء الدين علي بن قشتمر في نيابة الأسكندرية، عوضا عن صلاح الدين خليل بن عرام وكان علاء الدين علي قد أمر أمير مائة ومقدم ألف في عهد السلطان المنصور علي وكذلك عام ٨٤٥هـ/١٤٤١م في عهد السلطان الظاهر جقمق العلائي خُلع على الأمير شهاب الدين احمد بن علاء الدين علي بن إينال نيابة الأسكندرية واستمر بها "مدة طويلة"

٢.نيابة الوجه القبلي: وهذه النيابة مما استحدثه السلطان الظاهر برقوق في الأنظمة الإدارية بالسلطنة المملوكية، وهي ذات مكانة هامة في نيابات السلطنة واعظم خطراً من نيابة الوجه البحري ،ومقر نائبها أسيوط ويحكم على جميع بلاد الوجه القبلي.

هذا ولم نعثر على عدد وافر من أولاد الناس استقروا في ولاية الوجه القبلي إلا ما ذكر في حوادث ٧٨١هـ/١٣٧٩م من استقرار الأمير محمد بن إياز التركي في ولاية الوجه القبلي، وفي حوادث عام ٧٩٧هـ/١٣٩٤م في دولة الظاهر برقوق استقر الأمير فرج بن أيدمر في نيابة الوجه القبلي بعد إن نقل إليها من نيابة الوجه البحري.

٣. نيابة الوجه البحري: هذه النيابة أيضاً مما استحدث في عهد السلطان الظاهر برقوق، وتلي في أهميتها نيابة الوجه القبلي، ومقر نائب الوجه البحري في مدينة دمنهور بالبحيرة.

وبالبحث في المصادر المملوكية لم نعثر إلا على أمير واحد فقط من أولاد الناس تولى هذه النيابة وهو الأمير فرج بن أيدمر، وذلك في عام ٧٩٥هـ/١٣٩٢م في عهد الظاهر برقوق.

ثانياً: الكشاف.

وهم من الطبقة الثانية مما هو خارج عن حضرة السلطان، وقبل عهد الظاهر برقوق كان الكشافون هم الذين يتولون أمر الوجه القبلي والوجه البحري إلى أن استقرت بهما النيابة، وفي العصر المملوكي الأول ذُكر في سياق أحداث العصر أولاد الناس من الأمراء وتولى بعضهم كشاف للوجه القبلي ومنهم الأمير شرف الدين موسى بن الأزكشي الذي تولى ولاية قوص وأضيف إليه كشف الوجه القبلي في عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م على عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين.

وقد مثل أولاد الناس من أبناء الأمراء في وظيفة الكشاف في السلطنة المملوكية، ففي أثناء سلطنة الأشرف شعبان عام ٧٧٣هـ/١٣٧١م استقر الأمير محمد بن قيران الحسامي في كشف الوجه البحري وفي عهد السلطان الظاهر برقوق كان الأمير محمد بن قرابُغا يتولى كشف البهنساوية والأطفيحية، عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م في سلطنة الناصر فرج بن برقوق" تولى الأمير علاء الدين بن طرنطاي كشف الوجه البحري، عوضاً عن علاء الدين صهر الأمير قرطاي بحكم انفصاله"

ثالثاً: الولاة بالوجهين القبلي والبحري.

والولايات المصرية على مرتبتين، المرتبة الأولى هم الولاة أمراء الطبلخاناة وهم على سبع ولايات بالوجهين القبلي والبحري، والمرتبة الثانية وهم الولاة أمراء العشرات وهم أيضا سبعة ولاة بالوجهين. وباعتبار انه لم نعثر على معلومات تفيد تمثيل أولاد الناس بالمرتبتين في كل الولايات الأربعة عشر. فاكتفينا بترتيب الولايات التي أقيم بها أمراء أولاد ناس حسب الوجه القبلي والوجه البحري مع مراعاة إمراتهم.

ولاية البهنسي: وهي اقرب الولايات إلى القاهرة، وقد تولاها ولاة من قبل السلاطين المماليك من أولاد الناس، ففي عام ٧٧٦هـ/١٣٧٤م في عهد الأشرف شعبان "استقر الأمير محمد بن بهادر في ولاية البهنسي"

ولاية الفيوم: لم يذكر القلقشندي هذه الولاية ضمن ولايات مرتبة الطبلخاناة باعتبار انه ذكرها في طبقة الكشاف، ولم نعثر على أية معلومات تفيد بوجود كشاف على هذه الولاية من أولاد الناس بل في اكثر من مصدر ذُكرت باعتبارها ولاية من ولايات الوجه القبلي، وتولاها عدد من أولاد الناس من جملة الأمراء المماليك الذين تقلدوا إمرتها من قبل السلطان المملوكي، منهم في دولة الأشرف شعبان بن حسين الأمير محمد بن طغاي تولاها وعزل منها في عام ٧٦٤هـ/١٣٦٢م.

وخبر آخر يفيد تولي أحد أولاد الناس ولاية الفيوم وهو ما جاء في حوادث عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م من قبض السلطان على الأمير امير حاج بن آيدمر، وذلك لأنه كان يلي الفيوم في ولاية منطاش.

ولاية الجيزة: وهي من ولايات المرتبة الثانية حيث كان واليها امير طبلخاناة ثم استقر أمير عشرة، وقد تولى هذه الولاية من أولاد الناس ناصر الدين محمد بن أرغون المارداني.

ولاية منوف (المنوفية): وهي من ولايات المرتبة الأولى، فقد تولاها من أولاد الناس في عهد الأشرف شعبان بن حسين الأمير خاص ترك بن طغاي وفي عام ٧٨٠هـ/١٣٧٨م "خلع على الأمير محمد بن طاجار، واستقر في ولاية المنوفية".

ولاية الغربية: وهي من ولايات المرتبة الأولى، وقد تولاها عدد لا بأس به من أولاد الناس ، ففي خلال عام ٧٦٥هـ/١٣٦٣م قلد السلطان الأشرف شعبان الأمير عمر بن الكركند ولاية الغربية. وفي عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م تولى ولاية الغربية اكثر من امير من أولاد الناس فقد تولاها الأمير جمال الدين يوسف بن قطلوبك، وبعد وفاته تولى أمر الغربية الأمير محمد بن غُرْلو، إلى أن عُزل عنها بتولية الأمير سعيد بن الأمير فرج بن أيدمر.

ولاية البحيرة: وهي أيضا من ولايات المرتبة الأولى، ولم نجد سوى خبر واحد يخبرنا بالإنعام بهذه الولاية على أحد أولاد الناس في أحداث عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م في عهد السلطان الأشرف برسباي عندما خُلع على حسن بك بن سالم الدوكري ابن أخت قرايُلك باستقراره في ولاية البحيرة عوضاً عن امير على، ووجهه إلى مدينة دمنهور ، وأقام بها سنين عديدة، ويذكر أبو المحاسن أن أميرها على عهده ابن الأمير حسن بك.

ولاية قليوب: وهي من ولايات المرتبة الثانية، ولم نستدل إلا على خبر واحد يفيد تولي أولاد الناس هذه الولاية وذلك فيما ذكره المقريزي بتقليد الأمير ناصر الدين محمد بن طلِّي ولاية قليوب عوضاً عن الأمير ناصر الدين محمد بن قرابغا الأناقي. وكلاهما من أولاد الناس.

ولاية دمياط: وهي من ولايات المرتبة الثانية، وتعد من الولايات الهامة في سلطنة المماليك باعتبار دمياط ثغراً بحرياً له أهميته التجارية والحربية على حد سواء، وقد أمدتنا المصادر بعدد من الأمراء أولاد الناس تقلدوا إمرة دمياط، منهم الأمير شهاب الدين أحمد بن بيليك المحسني تولاها على عهد السلطان الناصر حسن.

ولاية قطيا: وهي أيضا من ولايات المرتبة الثانية، وقد تقلد إمرة هذه الولاية من أولاد الناس ، الأمير بكتمر بن علي بن الحسني الذي خلع منها في عام ٧٦٤هـ/١٣٦٢م وقلد ولاية القاهرة عوضاً عن الأمير علاء الدين علي بن الكوراني، وتولاها أيضا الأمير علاء الدين علي بن الطشلاقي في عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، وكان بجانب ولاية قطيا واليا على دمياط في نفس الوقت، وقلد ولايتها أيضا في عهد السلطان الظاهر برقوق الأمير محمد بن اشقتمر.

رابعاً: النيابات الشامية.

تعددت النيابات الشامية في دولة سلاطين المماليك وكان على كل نيابة منها نائب سلطنة من الأمراء أرباب السيوف، وهؤلاء من القسم الخارج عن الحضرة السلطانية وينوبون عن السلطان في نياباتهم ولا يقطعون أمرا دونه إلا إذا سمح لهم بذلك وقد ساهم الأمراء أولاد الناس في إدارة هذه النيابات الشامية ونتعرف في السطور التالية على مدى إسهاماتهم في هذه الوظائف.

١. نيابة حلب: وهي من أهم نيابات بلاد الشام، وقد قلد بعض الأمراء من أولاد الناس إمرة حلب، ففي عهد الأشرف شعبان بن حسين قلد الأمير سيف الدين أسنبغا بن بكتمر الأبوبكري عام ٧٧٠هـ/١٣٦٨م، عوضاً عن الأمير طيبغا الطويل وباشر الأمير أسنبغا ولايتها ستة اشهر ثم نقل إلى القاهرة.

٢. نيابة حماه: وهي من نيابات بلاد الشام، وقد تقلد أحد أولاد الناس من الأمراء نيابتها ففي أحداث عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م خلع الأمير المنصور امير حاجي على الأمير شهاب الدين أحمد بن محمد المهمندار "واستقر به نائب حماه" هذا ولم نعثر على أي أخبار أخرى تفيد تقلد أحد أولاد الناس إمرة هذه النيابة.

٣. نيابة غزة: هي من نيابات بلاد الشام، وقد تولاها من أولاد الناس عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م الأمير شهاب الدين احمد بن الأمير سيف الدين آل ملك الجوكندار على عهد الأشرف شعبان بن حسين.

٤. نيابة صفد: قلد هذه النيابة عدد من أولاد الناس، ففي حوادث عام ٧٦٥هـ/١٢٦٦م استقر الأمير عمر بن أرغون النائب في صفد، ودام بها حتى عام ٧٦٦هـ/١٢٦٧م. وتولى نيابتها أيضا الأمير مظفر الدين موسى بن الحاج أرقطاي الناصري، وكان من الأماثل وله وجاهة في الدولة وتوفي عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢، وقلد الأمير محمد بن مبرك الناصري نيابة صفد بعد وفاة الأمير يشبك الحمزاوي عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م في دولة الظاهر جقمق العلائي.

٥. نيابة الكرك: وهي من نيابات الشام الهامة، وكثيراً ما خرج إليها سلاطين المماليك وأولادهم، وجلس في نيابتها بعض الأمراء من أولاد الناس أرباب السيوف ففي عام ٧٦٩هـ/١٣٦٧م استقر الأمير عمر بن أرغون النائب في نيابة الكرك عوضاً عن ابن القشتمري، وكلاهما من أولاد الناس، وتولاها من قبل الظاهر برقوق الأمير محمد بن مبارك شاه المهمندار ،وفي عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م تولى الأمير غرس الدين خليل نيابة الكرك، "وسار بطلبه وأثقاله من ساعته"

٦. نيابة القدس الشريف: وهي إمارة جليلة القدر عند سلاطين المماليك. ولم نجد غير واحد من الأمراء أولاد الناس تولوا هذه النيابة، وهو الأمير شهاب الدين احمد بن آل ملك، والذي نقل إليها من نيابة غزة.

٧. نيابة نابلس: تولى هذه النيابة الأمير علي بن بلبان البدري.

٨. نيابة المرقب: تولى هذه النيابة الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير دقماق، أنعم عليه بنيابتها السلطان الأشرف برسباي الدقماقي، بعد أن أنعم عليه بإمرة طبلخاناة في طرابلس.

٩. نيابة طرابلس:وهذه النيابة تولاها الأمير برسباي بن حمزة الناصري في عهد الأشرف برسباي بعد قانباي الحمزاوي الذي نقل إلى حلب.

وهكذا رأينا كيف مُثل الأمراء أولاد الناس في نيابات الشام، وبالرغم من تمثيلهم الضعيف بالمقارنة مع الأمراء المماليك الآخرين، إلا انه قد وجد بعض منهم على رأس هذه النيابات، وان كانت فترة حكم السلطان الناصر حسن والأشرف شعبان بن حسين قد حظيت بنسبة لا بأس بها من مشاركة الأمراء أولاد الناس في إدارة النيابات الشامية، وهذا يرجع إلى عناية هذين السلطانين بأولاد الناس ورعايتهم وتوليتهم المناصب والإمرات.

ثانياً: الوظائف الديوانية

الوظائف الديوانية "كثيرة للغاية لا يسع استيفا ؤها" ومن الوظائف التي شارك فيها الأمراء من أولاد الناس.

أ. الوزارة: وهي من اجل الوظائف وارفعها رتبة منذ استقر شأنها وتمهدت قواعدها وتقررت قوانينها في العصر المماليكي. هذا وقد مارس أولاد الناس وظيفة الوزارة ..وذكرت المصادر المملوكية عدد منهم ، فقد وزر الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير حسام الدين لاجين الصقري المعروف بابن الحسام للسلطان برقوق ، وقد "باشرها بحرمة ومهابة" وتوفي في عام ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م.

واستقر أيضا في وزارة السلطان الظاهر برقوق عام ٧٩٤هـ/١٣٩١م الأمير ركن الدين عمر بن الأمير ناصر الدين محمد بن قايماز وذلك عوضاً عن ناصر الدين بن الحسام الصقري وكانت الوزارة من جملة وظائف باشرها الأمير ركن الدين عمر بن قايماز.

هذا ولم تمدنا المصادر بأي معلومات أخرى تفيد تولي أحد أولاد الناس الوزارة غير ما سبق ، ومهما يكن من أمر فقد باشر هذه الوظيفة الديوانية الهامة عدد من أولاد الناس.

ب. نظر بيت المال: وهو من الوظائف الديوانية التي لها مكانة في سلك الإدارة المملوكية .وصنفها القلقشندي في الترتيب الثاني على انه يمكن الإشارة إلى أن كل من تولى الوزارة من أولاد الناس كانوا من أرباب السيوف وليس من أرباب الأقلام ، وهناك مثال قائم يمكن أن يساق للدلالة على تنقل أولاد الناس بين الوظائف المختلفة سواء كانت وظائف أرباب سيوف أو وظائف ديوانية.

فمن خلال ترجمة الأمير غرس الدين خليل بن شاهين الصفوي الظاهري نرى ذلك المثال بوضوح ، فقد كان من جملة مماليك الأشرف برسباي ، ولاة الأشرف نظر الأسكندرية ، ثم حجوبيتها ، ثم نظر بيع البهار ، ثم في عام ٨٣٧هـ/١٤٣٣م تولى نيابة الأسكندرية ، وكان آنذاك امير طبلخاناة ، ثم استدعي إلى القاهرة وقرر في نظر دار الضرب ، وبعدها نقل إلى الوزارة ، واستُعفي منها بعد مدة يسيرة ، وبعد فهذه جملة الوظائف التي ساهم فيها الأمراء أولاد الناس داخل الإدارة المملوكية من وظائف أرباب السيوف والوظائف الديوانية ، وقد رأينا مدى تواجدهم تقريبا في كافة الوظائف الإدارية وخاصة وظائف أرباب السيوف في حضرة السلطان المملوكي أو خارج الحضرة السلطانية.

وبالرغم من ضعف مشاركة أولاد الناس في الوظائف الديوانية ، فربما كان ذلك بسبب أن هذه الوظائف يتولاها أرباب الأقلام في الدولة ، وقد لاحظنا أن اغلب أولاد الناس من أرباب السيوف ، وتجدر الإشارة أيضا إلى أن الفترة الخصبة التي حظي فيها أولاد الناس باهتمام السلاطين وترقيتهم هي من عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون مروراً بالناصر حسن والأشرف شعبان والمنصور علي وصولاً إلى عهد الظاهر برقوق في العصر المملوكي الثاني (الجركسي)، فقد تعهد هذا السلطان العديد من أولاد الناس ورقاهم في إمرات ووظائف مختلفة.

مشاركة أولاد الناس في الأحداث السياسية

تأتي مشاركة أولاد الناس في الأحداث السياسية الداخلية والخارجية في الدولة المملوكية باعتبار أن البعض منهم كان شارك مشاركة فعلية في وظائف أرباب السيوف ، وقد انخرطوا في السلك السياسي ، وشاركوا في أحداث الدولة من الخلافات والمنازعات التي كانت تنشأ بين السلاطين وكبار الأمراء أو بين الأمراء بعضهم البعض ، وأدي ذلك إلى ظهور دور يتسم بالتواضع لهذه الفئة داخل الحياة السياسية وذلك باعتبار أنهم تواجدوا بشكل ما في الإدارة السياسية المملوكية ، وتنقسم مشاركتهم هذه إلى قسمين:

أولاً: الصراعات والفتن والأحداث الداخلية

اعتبر العصر المملوكي في مصر والشام من أهم العصور التي شكلت فيها الصراعات والفتن خاصية من خصائصها ، وكان أكثر ظهور لهذه الفتن في أوقات شغور دست السلطنة ، وتولي سلطان جديد ، أو الثورة على سلطان قلد السلطنة فيظهر المناوئين له والرافضين لسلطنته.

ومن الأمثلة على تخلص بعض السلاطين من الأمراء أولاد الناس ظنا منهم أنهم يشكلون خطراً عليهم في الحكم ، ما حدث من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، تجاه ابن أخيه أمير موسى بن الملك الصالح علي بن قلاوون والذي كان من جملة الأمراء بمصر أولاد الأسياد ، وظهر سُمتُه وبانت سمعته إلى أن خشي جانبه عمه السلطان الناصر ، فأوكل به كل من الأمير علاء الدين ايدغدي والأمير سيف الدين بكتمر ، فما زالوا به حتى القوا القبض عليه وقتل وأصبح نسيا منسيا وهو لم يجن أي جريرة ارتكبها ليذهب بإثمها. هذا وقد عاقب السلطان الكامل شعبان بن الناصر بن محمد بعض أولاد الناس من الأمراء بنفيهم وإخراجهم إلى بلاد الشام وذلك لأنهم وافقوا رأي الأمير الكبير آل ملك الجوكندار في عدم سلطنته بسبب صغر سنه ولهوه بالحمام في القلعة ، وهم الأمير احمد بن آل ملك شاد الشراب خاناة واخوته الأمير قماري الإستادار.

ونرى دور أولاد الناس من الأمراء واضحاً في الأحداث الداخلية وذلك على عهد الأشرف شعبان بن حسين في عام ٧٦٩هـ/١٣٦٧م عندما قام مماليك الأمير يلبغا مع الأمير اسندمر الناصري أتابك العساكر وخاموا على السلطان الأشرف شعبان ولبسوا لامه الحرب، واجتمع مع السلطان المماليك السلطانية وجملة من الأمراء منهم أولاد ناس مثل الأمير خليل بن قوصون والأمير اسُنبُغا بن الأبوبكري وقشتمر المنصوري وآخرون ، واجتمع مع السلطان خلق كثير ولم يكن معه من المماليك السلطانية سوى مئتي امير ، وبلغ عدة من تجمع على اسندمر من مماليك يلبغا الذين يريدون عزل السلطان فوق الألف وخمس مئة ، وحتى يتخلص السلطان من هذه الفتنة ، أمر والي القاهرة بالنداء في شوارعها" من يقدر على مملوك من مماليك يلبغا الأجلاب فله سلبه ،ويعطي من المال ما هو كيت وكيت"، فسار الناس في شوارع القاهرة وراء كل من هو يلبغاوي ليقبضوا عليه ويحضروه إلى الوالي.

هذا وقد حمل عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م أحداث جسام في تاريخ دولة المماليك وهو العام الذي اشتهر بفتنة الأمير منطاش والأمير يلبغا الناصري ، وخلعهما السلطان برقوق من السلطنة ، وأعاده السلطان المنصور حاجي بن شعبان مرة أخري. وقد شارك أولاد الناس من الأمراء في هذه الأحداث مشاركة فاعلة فمنهم من كان مناصراً للسلطان برقوق ضد الثائرين عليه ، ومنهم من كان مع منطاش والناصري.

ولسنا هنا بصدد الحديث تفصيلاً عن أحداث هذه الفتنة ، ولكن يمكن أن نثبت مشاركة جملة من الأمراء أولاد الناس بجوار السلطان برقوق ، منهم الأمراء شهاب الدين احمد بن يلبغا امير مجلس من أمراء الألوف ، والأمير خضر بن عمر بن بكتمر الساقي ، وناصر الدين محمد بن محمد بن آقبغا آص ،وهما من أمراء العشرات والأمير ناصر الدين محمد بن الدواداري أحد الطبلخاناة ، والذي ندبه السلطان برقوق لحفظ قياسر القاهرة.

هذا وكان جملة من الأمراء أولاد الناس سائرين في ركاب الأمير منطاش والناصري ، وقام السلطان المنصور حاجي بالإنعام عليهم بإنعامات منهم الأمراء محمد بن رجب بن محمد التركماني ، ومحمد بن رجب بن جنتر ، وإبراهيم بن يوسف بن برلغي ، والأمير اسندمر بن يعقوب شاه امير مجلس والأمير أمير حاج بن مغلطاي الذي انعم عليه السلطان بتقدمة ألف ، وقام بعض أولاد الناس بحفظ القاهرة بعد تسلم السلطان المنصور حاجي مقاليد السلطنة ، منهم الأمير أبو بكر بن سنقر الجمالي الذي وُكّل إليه مع الأمير تنكز بغا رأس نوبة بحفظ القاهرة فكان موقع أبي بكر بن سنقر حفظ باب زويلة وإخراج من كان في القاهرة من المماليك الظاهرية والتركمان وغيرهم.

وكذلك بعد عودة السلطان الظاهر لقي كثير من أولاد الناس من الأمراء الذين انحازوا إلى منطاش والناصري كثير من الويلات ، فقد أمر السلطان بالقبض على كل من الأمراء محمد بن بكتمر الحاجب وأخيه ، وعلى أولاد الأمير أيدغمش وعلى أولاد الأمير قماري ، وأخرجهم جميعا إلى سجن الأسكندرية ، وكذلك ألقى القبض على الأمير أمير حاج بن بيدمر ، وذلك بسبب انه تولى إقليم الفيوم من قِبَل الأمير منطاش ، وحبس عند الأمير تمر باي الحسني حاجب الحجاب.

وفي حوادث عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م عندما قام الأمير قانصوه خمسمائة بالثورة على السلطان الناصر محمد بن قايتباي ٩٠٤٩٠١/١٤٩٥١٤٩٨م ،حاول قانصوة خمسمائة استخدام أولاد الناس ضد السلطان ، وذلك عندما نادى في القاهرة بأن أولاد الناس النفطية يطلعون إلى باب السلسلة ، فلم يخرج إليه أحد من أولاد الناس ولا انقادوا له ضد السلطان.

وشارك الأمراء أولاد الناس في السلطنة المملوكية بأحداث داخلية أخرى غير الفتنة والاضطرابات والثورات التي كانت تنشب بين الأمراء بعضهم البعض ، وبينهم وبين السلاطين ، ومن أمثلة ذلك خروجهم في تجاريد لقمع العربان المتمردين في الصعيد ، ففي عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م على عهد الملك الصالح صالح عقد بتملك الأمراء المشورة بين يدي السلطان في أمر عرب الصعيد بعدما تمرد الأحدب ابن واصل شيخ عرب عمك ، وحدثته نفسه بتملك بلاد الصعيد وأقام له حاجباً وكاتباً ، فقرر السلطان إرسال تجريده لتأديب هذا الخارج ، وكان على رأسها الأمير سيف الدين شيخو العمري رأس نوبة ، ومعه اثني عشر مقدماً، من أهمهم الأمير أمير علي بن أرغون النائب الذي أمره الأمير شيخو بالتوجه إلى البلاد الأطفيحية ، وقام بقمع العربان" إلى أن أمنت الطرقات برا وبحراً فلم يسمع بقاطع طريق بعدها"

وعلى صعيد الوجه البحري فقد شارك الأمراء من أولاد الناس في عدة تجاريد خرجت من القاهرة ، لتأديب عرب البحيرة وذلك في عدة سنوات متفرقة ، ففي عام ٧٨٠هـ/١٣٧٨م على عهد السلطان علاء الدين على خرج الأمير إينال اليوسفي امير سلاح ومعه جملة من الأمراء من بينهم الأمير احمد بن يلبغا لقتال عرب البحيرة ، وشارك أيضا هذا الأمير في تجريدة أخري إلى عرب البحيرة في عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م لتأديب بدر بن سلام الذي خرج عن الطاعة ، ورأس هذه الجملة الأمير أيتمش البجاس ، وصحبة من الأمراء أولاد الناس الأمير قرط بن عمر التركماني أحد أمراء الطبلخاناة.

هذا وفي أواخر العصر المملوكي على عهد السلطان الأشرف قانصوه الغوري خرج العديد من أولاد الناس بأمر من السلطان إلى أماكن عدة لحفظ النظام والأمن ففي عام ٩١٩هـ/١٥١٣م ، عرض السلطان"جماعة من المماليك السيفية وغير ذلك من أولاد الناس" وأمرهم بالتوجه إلى السويس تحت إمرة الأمير أر كماس امير مجلس بسبب الكشف على المراكب التي عمرها السلطان هناك ،وكذلك في عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م عين السلطان الأشرف قانصوه الغوري جماعة من أولاد الناس وغيرهم من المماليك لحفظ الجسور التي بالشرقية والغربية.

ثانياً: الأحداث الخارجية

تأتي مشاركات أولاد الناس في الأحداث الخارجية التي حدثت خارج مصر على عدة اوجه مثل خروجهم في حملات إلى الحدود المملوكية في بلاد الشام أو في سفارات ومراسلات مع الدول التي تربطها علاقات مع السلطنة المملوكية أو لردع قطاع الطرق من العربان في طرق الحج بين الحجاز والقاهرة هذه الأ حداث مجتمعة شارك فيها أولاد الناس من الأمراء.

ففي حملة الأمير أزبك من ططخ على بلاد التركمان على عهد الأشرف قايتباي. والتي عاد فيها الأمير أزبك منتصراً على القوات العثمانية ، مما أجج نار الغضب عند بايزيد العثماني واعد حملة للانتقام من المماليك ، مما جعل السلطان الأشرف يرصد جميع جهوده لإنفاذ حملة مماثلة للحملة العثمانية وأعلن أنه سوف يقود هذه الحملة بنفسه ، وأرغم أولاد الناس بالاشتراك في هذه الحملة ومن لم يشترك عليه أن يخرج عنه بدلاً أو يدفع أموالا لقاء عدم خروجه في الحملة.

وفي موقعة مرج دابق وعندما خرج السلطان قانصوه الغوري إلى لقاء السلطان سليم الأول ، خرج معه جملة كبيرة من أولاد الناس شاركوا مع السلطان المملوكي في رسم نهاية دولة المماليك ، وقد انفق السلطان على هؤلاء الأجناد من أولاد الناس الأموال ففرق لكل منهم ثلاثين ديناراً ، هذا وقد قتل في موقعة مرج دابق عدد من أولاد الناس نذكر منهم على سيل المثال شرف الدين يونس بن قانصوه ابن ابنة قرقماش أحد الطبردارية ، وجمال الدين محمد بن قرقماش أحد الطبردارية أيضا ، وأما من جاء بخبر أن السلطان سليم الأول العثماني قد تملك مدينة دمشق فهو أيضا من أولاد الناس ، وهو ناصر الدين محمد بن بلباي أحد الحجاب ويذكر ابن إياس انه تنكر في ذي العربان حتى يستطيع الوصول إلى القاهرة لا بلإالخبر.

وفي أثناء زحف السلطان سليم على القاهرة ثبت جماعة من أولاد الناس مع السلطان الأشرف طومان باي ، وخاصة بعدما أرسل السلطان إلى أبناء الأسياد من أولاد المؤيد وأولاد الملك المنصور ، وباقي أولاد الأمراء الذين بمصر "اعملوا يرقكم واخرجوا للسفر والذي لا يسافر منكم يقيم له بديل عنه للسفر" أما من ثبت مع السلطان طومان باي في وجه ابن عثمان ، الأمير حيي بن الأمير أزبك من ططخ الذي حارب حتى نهاية الصراع بين المماليك والعثمانيين ، وكذلك الأمير علي بن سودون الدوداري.

وفي أواخر العصر المملوكي واجهت مصر الوجود المتزايد للإفرنج (البرتغاليين) في البحر الأحمر ، وخاصة بعدما كشفوا عن وجههم السافر برغبتهم القوية في ضرب الوجود المصري الإسلامي في بلاد الهند والمحيط الهندي ، إلا أن السلطان الغوري لم ييأس وأرسل عدة حملات وتجريدات أخري إلى بلاد الهند شارك فيها أولاد الناس ، وذلك في أعوام متعاقبة ، واعد لذلك دار لبناء السفن في السويس ، وعمر ما يقرب من عشرين مركباً ، واعد حملة بحرية أخري على رأسها

امير البحر سلمان العثماني ومعه جماعة كبيرة من المماليك القراصنة وأولاد الناس وجماعة من العثمانية والمغاربة واعدت الحملة في نحو ألفي إنسان عام ٩٢١هـ/١٥١٥م لحفظ السواحل من تعديات البرتغاليين.

ومن مشاركات أولاد الناس المتعددة في الأحداث الخارجية، خروجهم في ركب الحجيج بأوامر سلطانية لأداء بعض المهام التي يكلفون بأدائها في بلاد الحجاز. ففي عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م جاءت الأخبار بتمرد الأمير ثقبه أحد أمراء الحجاز على أخيه أمير مكة الشريف عجلان، فاصدر السلطان أوامره سراً إلى أمير الحج ومن في صحبته من الأمراء بالقبض على الشريف ثقبه وإقرار الشريف عجلان منفرداً على إمارة مكة، وكان من شارك من أولاد الناس في هذه المهمة الأمير شهاب الدين احمد بن آل ملك، والأمير ناصر الدين محمد بن بكتمر الساقي والأمير ركن الدين عمر بن طقزدمر.

ومن نافلة القول أن نذكر مشاركات الأمراء أولاد الناس في الأحداث الخارجية ولكن بشكل آخر مغاير لما ذكرنا آنفا إلا وهي مشاركتهم على صعيد العلاقات الودية متمثلة في السفارات التي كانت ترسل من القاهرة إلى عواصم الممالك المجاورة، فبالبحث في المصادر الملوكية، وجدنا جملة من أولاد الناس ساهموا بجهد في هذا المضمار.

ففي عهد السلطان الأشرف شعبان عام ٧٧٠هـ/١٣٦٨م توجه الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير سُرتقطاي برسالة من السلطان إلى السلطان أويس ملك بغداد. واتجه أيضا الشيخ الفقيه الحنفي احمد بن كندغدي سفيراً إلى تيمورلنك سلطان التتار من قبل السلطان الناصر فرج بن برقوق في أواخر عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م غير انه مرض وتوفى ،وفي عهد الظاهر جقمق أرسل الأمير علاء الدين علي بن إينال " أحد خواص السلطان" من أولاد الناس إلى السلطان العثماني مراد بن عثمان عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م، وحمل معه هدية جليلة من الظاهر إلى السلطان مراد، وقد صحب الأمير علاء الدين رسل السلطان مراد الذين قدموا القاهرة قبل ذلك فكانت سفارة الأمير احمد رداً على السفارة العثمانية.

وفي عهد السلطان الأشرف برسباي، خرج الأمير ناصر الدين محمد ابن إبراهيم بن منجك كذلك بمرسوم سلطاني للأمير سودون من عبد الرحمن نائب دمشق لاستدعائه للمثول بين يدي السلطان بالقاهرة، وعاد صحبة الأمير إبراهيم حتى دخلا القاهرة في عام ٨٣٥هـ/١٤٣١م.

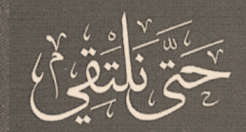
وفي حوادث عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م أرسل السلطان الظاهر جقمق خلعة الاستمرار في نيابة دمشق إلى الأمير إينال الجكمي نائب الشام وحملت هذه الخلعة على يد الأمير ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن منجك ،ويبدو من هذه الأخبار أن الأمير ناصر الدين محمد قد أرسل سفيراً اكثر من مرة وفي عهود مختلفة إلى نواب الشام من قبل عدة سلاطين.

وبعد فقد رأينا من خلال الصفحات السابقة مشاركة أولاد الناس في الحياة السياسية خلال العصر المملوكي، ومساهماتهم في كثير من معطيات هذه الحياة حتى أنهم وصلوا إلى مراتب سنية في الجيش المملوكي وتقدموا في الإمرات فبلغ منهم عدد لا بأس به إلى أمير مئة وتقدمة ألف ووصل العديد إلى مراكز طيبة في الوظائف، سواء وظائف أرباب السيوف أو الوظائف الديوانية وكذلك أدلوا بدلوهم في أحداث الدولة السياسية فكان لهم تواجد في الفتن والاضطرابات التي اشتهر بها ذلك العصر، وأصبحت سمة من سماته، وأسهموا في تأديب العربان المتمردين سواء في الصعيد والوجه البحري، وأيضا تأديب العربان من قطاع الطريق الذين يقطعون طريق قوافل الحجيج، ثم انتهينا بإبراز دورهم في العلاقات السياسية الودية التي كانت تربط سلاطين مصر المماليك وملوك دول الجوار، وهكذا أوضحنا دورهم السياسي بشكل اثبت تواجدهم في سيرة الأحداث السياسية خلال ذلك العصر هذه الإسهامات التي لم يقتصر دورهم عليها، بل كان لهم إسهامات أ خري وتواجد ملحظ في حياة المجتمع المصري الاجتماعية والثقافية وهذا ما سوف نتعرف عليه بوضوح أكثر.



من الإنتاج العلمي للدكتورة نهلة أنيس:

- الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الثغور والعواصم الإسلامية على الحدود مع الدولة البيزنطية –رسالة ماجستير منشورة – دار الكتاب الجامعي القاهرة ٢٠٠٢م.
- العلاقات بين مصر والممالك الإفريقية في عصر دولة المماليك الجراكسة ٧٨٤١-٩٢٢ هـ / ١٣٨٢-١٥١٧م. كلية الدراسات الإنسانية، القاهرة ١٩٩٥م. رسالة دكتوراه غير منشورة.
- الأسواق والمراكز التجارية في شمال الشام، والجزيرة خلال العصر العباسي، بحث نشر في المؤتمر الدولي التاريخ الاقتصادي للمسلمين، جامعة الأزهر، القاهرة ٢٨ :٣٠ ذي الحجة ١٤١٨هـ ٢٥:٢٧ أبريل ١٩٩٨م.
- الصراع علي السلطة وظاهرة العنف والاغتيالات في عصر دولتي سلاطين المماليك، كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر، القاهرة من ٤-٦ ربيع أول ١٤١٩ هـ / ٢٨-٣٠ يونيو ١٩٩٨م.
- سرحات الصيد والتريض والنزهة لسلاطين دولة المماليك بمصر، مجلة كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، العدد السابع عشر ١٩٩٩م.
- أولاد الناس بمجتمع عصر سلاطين المماليك، كتاب نشر بدار الكتاب الجامعي القاهرة ١٢٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- خوندات العصر المملوكي، كتاب، نشر دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٢٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الأيوبيون في كتابات كل من ابن الأثير وأبي شامة، كتاب نشر دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٢٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- نيابة دمشق في عصر دولة المماليك الجراكسة من ٨١٥/٨٠١هـ -١٤١٢/١٣٩٨م، بحث في ندوة دمشق في التاريخ المنعقدةفي جامعة دمشق من ٢٠:٢٥نوفمبر ٢٠٠٦م .
- القبائل العربية حول المدينة النبوية وعلاقتها بالمدينة في عصر النبوة، بحث مقدم للقاء العلمي العاشر للجمعية التاريخية السعودية، بعنوان منطقة المدينة المنورة عبر العصور، المدينة المنورة في الفترة من ١٢:١٤/٥/١٤٢٨هـ



سعد زغلول أول من دعا لإنشاء نقابة للمحامين

القاهرة - 20 مارس 1943:
قال كاتب ومحام مصري إن الزعيم سعد زغلول هو أول من دعا لتأسيس نقابة للمحامين في مصر. وأضاف الكاتب عزيز خانكي في مقال نشرته مجلة «المصور» في عددها الصادر أمس أن فكرة إنشاء النقابة كانت واردة قبل أن يدعو لها سنة 1886 الزعيم سعد زغلول، إلا أنه بلورها. وفيما يلي المقال المنشور في القاهرة أمس.

قرأت في مصور اليوم تحت عنوان «كيف أسست نقابة المحامين؟ وثائق تاريخية تصحح بعض الوقائع المتضاربة» كلمة من يمعن نظره فيها لا يجد تضارباً في الوقائع يقتضي التصحيح. لأن ما قيل إن المغفور له سعد باشا كان له الفضل في فكرة إنشاء النقابة وفي تنفيذها صحيح إذ إنه كان أحد أعضاء الجمعية التي اجتمعت سنة 1886 وسعت لإنشاء نقابة للمحامين. ولما تولى نظارة الحقانية في سنة 1912 أخرج الفكرة من حيز التفكير إلى حيز التنفيذ.

أما ما نسبه الكاتب إليّ من أني كتبت في كتابي «المحاكم الأهلية والمحاكم المختلطة» ما يفهم منه أن الفضل في تأسيس النقابة يرجع إلى خطاب مفتوح بعثت به إلى المغفور له سعد باشا زغلول ناظر الحقانية في ذلك الوقت فصحته أن الخطابين المفتوحين اللذين أرسلتهما إلى سعد باشا في 16 اكتوبر/ تشرين الأول سنة 1910 وفي خلال سنة 1912 كانا مجرد بسط الرجاء إليه ليخرج فكرة إنشاء النقابة من حيز التفكير فيها في خلال سنة 1886 إلى حيز التنفيذ.

ومثله ما نسبه الكاتب إلى المغفور له إبراهيم بك الهلباوي لأن الهلباوي بك لم يفته في خطبته اشراك الزملاء الذين سعوا معه لإنشاء النقابة.

أما الوثيقة التي أشار إليها الكاتب ووصفها بأنها «محضر مؤرخ في 10 ديسمبر/ كانون الأول سنة 1897» فإن هذا المحضر إن دل على شيء فإنما يدل على أن فكرة إنشاء النقابة كانت قديمة تجول في خواطر بعض المحامين.

وما دمنا في معرض بيان من هو أول من فكر في إنشاء نقابة للمحامين نكتفي بأن نثبت هنا ما كتبته «مجلة الحقوق» في ذلك سنة 1886، في العدد الأول من سنتها الأولى وفيه تقول:

«في 4 فبراير/ شباط الماضي بناء على استحسان حضرة نائب عموم المحاكم الأهلية المستر وست صار التئام جمعية حافلة من حضرات المحامين تحت رئاسة حضرة الوجيه العالم عزتلو جبرائيل بك كحيل وبعد أن استهل حضرته الجلسة بخطاب أنيق عن الغاية من ذلك الاجتماع وهو عمل لائحة تدرج فيها حقوق وواجبات هذه الصناعة المهمة كما هو جار في الممالك المتمدنة حفظاً لاعتبار المحاماة والمحامين عن الحقوق الشعبية وكان لخطابه وقع جميل. وبعد أن تبادلت الأفكار بالنظر إلى ذلك قر صوت الأكثرية على انتخاب ستة أعضاء من شهراء المحامين تحت نظارة البك المومأ إليه ليؤلفوا استمارة تقدم إلى حضرة النائب العمومي المشار إليه حتى إذا حازت القبول بعد الفحص والتنقيب يلتمس لها التصديق القانوني وتصبح قاعدة يستنار بها. والأعضاء المذكورون هم: حضرات دمتري بك عبده وسعد أفندي زغلول ومحمد أفندي الصدر وخليل أفندي إبراهيم وأحمد أفندي الحسيني وحسين أفندي صقر. وعلى ما بلغنا أنهم قد نظموا لائحة من مائة بند في هذا الشأن والمأمول أنها تكون موافقة لأحوال البلاد الحاضرة وأساساً للائحة ثانية يقتضيها تقدم البلاد فيما بعد الإصلاح القضائي».

إذن فسعد باشا اشترك في سنة 1886 (أي قبل اجتماع 10 ديسمبر سنة 1897 بإحدى عشرة سنة) في أول جمعية للمحامين فكرت في إنشاء نقابة للمحامين وسعد باشا أخرج هذه الفكرة في سنة 1912 إلى حيز الوجود.

سلطان حضرموت يزور مصر



القاهرة - 4 فبراير 1928:
وصل إلى القاهرة قبل أيام سلطان حضرموت، في زيارة تستغرق عدة أيام، وقد أقامت له جمعية الرابطة الشرقية حفل استقبال وتعارف، حضره عدد من المسؤولين والصحافيين والشخصيات البارزة.

ويظهر في الصورة سلطان حضرموت جالساً في الوسط، وإلى يمينه عبدالحميد البكري رئيس الجمعية، ورشيد رضا صاحب جريدة «المنار»، وإلى يساره أحمد شفيق، ووزير سلطان حضرموت، ورئيس غرفة تجارة وصناعة إيران في مصر.